

# الحمار الذهبي

(أو التحولات)

تأليف: لوكيوس أبوليوس  
ترجمة: عمّار الجلاصي



# الحمار الذهبير

(أو التحولات)

تأليف: لوكيوس أبوليوس  
ترجمة: عمّار الجلاصي



أعدّه للنشر موحمد ومادي

ملاحظة: لقد إعتمدنا نسخة السيد الجلاصي لم فيها من دقة، بالرغم من أن الكتاب كان قد ترجم مرتين، الأولى: من قبل الأستاذ علي فهمي خشيم عن الإنجليزية التي بدورها كانت قد ترجمت عن اللاتينية، والثانية: من قبل الأستاذ أبو العيد دودو عن الفرنسية التي كانت قد ترجمت عن اللاتينية، وبهذا تكون النسخة التي بحوزتنا الوحيد المترجمة مباشرة عن اللاتينية.

## مقدمة المترجم

"الحمارة الذهبية أو التحولات" ثانياً روايتين خلفهما لنا الأدب اللاتيني. مؤلفها لوكيوس أبوليوس. أحد أشهر كتّاب القرن الثاني وُلد في مادورة (مدوروش بالجزائر حاضراً) في 124 م. تعلّم بقرطاج وأثينا ثم أقام، وربما اشتغل محامياً، بروما. ثم عاد إلى إفريقية، وتزوج بأوبية (طرابلس) أثناء سفره إلى الإسكندرية أرملة غنية، رفع ضده ابنها وحمو أخيه وعمه قضية بتهمة تعاطي السحر في محكمة صبراته 159. فكتب "مرافعة عن نفسه". ثم عاش في قرطاج حيث كتب عدّة خطب ومقالات جمع بعضها تحت اسم "المنتخبات". له كذلك كتب فلسفية: "أفلاطون ومذهبه"، "في إله سقراط"، "في الكون". كما تنسب إليه كتب أخرى في مجالات عدّة، يرجح أنه كتب روايته هذه بعد 170. وأنه اقتبسها من كاتب يوناني بقي ملخص من قصته يُنسب للفيانوس السّموساطي معاصره السّوري، لكنّه صاغها بأسلوبه الفذّ وأعطاهها إلى جانب طابعها الشّيق بعداً فلسفياً.

وتما يعطي قصته نكهة فريدة مزاجته بين أساليب شتى من تشويق وفكاهة وإثارة جنسيّة ورعب وفضاعة وفخامة وجلال. ولها كذلك قيمة تاريخية ثابتة فهي مصدر مهمّ لمعرفة

ديانات المسارّة المنتشرة في الإمبراطورية الرومانية في ذلك العصر والتي أثرت في المسيحية، وعلى الأخصّ ديانة إيزيس. ومن الطريف أنّ بطلها حمار أو بالأحرى إنسان مُسخ حماراً لكنّه احتفظ بقدراته العقلية، ونقلته الصّدف بين أيدي شتى، فشارك من خلال تنقله في عدّة مغامرات وشاهد أخرى أو سمع بها. فهو بنحو ما كبطل الأوديسة والإنيادا. وتصف لنا الرواية، في أسلوب غلب عليه الطابع الهزليّ، معاناة الحمار على أيدي الناس، صغارهم وكبارهم، ومن كلا الجنسين. لكن قرائن عديدة تحمل على الاعتقاد بأنّ أبوليوس أراد من خلال مغامرات حماره المتمتعة تبليغنا برؤيته الأفلاطونية، والأقرب بالأحرى إلى الأفلاطونية الحديثة وللمذاهب الغنوصية، لمعنى الحياة الإنسانية.

قبل الإفساح لأبوليوس نودّ الإشارة إلى أنّنا أحقنا بالرواية تراجم للشخصيات الميثولوجية والتاريخية والأماكن الواردة وتفسيراً لمعاني أسماء شخصيات الرواية "وجلّها يونانية، وهي جزء من أساليب الفكاهة عنده) وحواشي وملاحظات (مشار إلى مواضعها بعلامة ( )"، وكذلك بعض الأفكار حول أصول الرواية وصورة الحمار في أدبيات الشعوب وعن معنى الرواية الفلسفيّ، كما وضعنا عناوين للفقرات، وفرّقنا بين جملها بالتنقيط أو بعلامة × لتيسير الرجوع إلى النّص اللاتيني لدى الحاجة). وحاولنا تقديم ترجمة قريبة من النّص الأصليّ قدر الإمكان حتّى في بنية الجمل، وذلك أمر عسير لاختلاف اللّغتين، خاصّة أنّ تراكيب أبوليوس معقّدة، ومليئة بالصّيغ البلاغية من جناس وسجع ومجاز (وقد ذكرنا أبرزها) وتحمل أحياناً، وبصفة

متعمّدة، أكثر من معنى. وهو يسرف في استعمال التصغير والمفعول فيه المطلق ( الشّبيه بالحال الوارد جملة عندنا). والله وليّ التّوفيق.

11 تشرين الأوّل 2000 . عمّار الجلاصي

## الكتاب الأوّل

### 1-1 تمهيد

ها أنا سأجمع لك في هذا الخطاب المؤلّف على التّمط الميليّتي (1) قصصا متنوّعة وسأشكّك أذنيك المجاملتين بهمس لطيف إن لم تأنف النظر إلى هذه الطرائف التي خطّتها على ورق البرديّ المصريّ حذافة يراع النّيل. فتشاهد معجبا تقلّب أحوال البشر وهيئاتهم: تتغيّر ثم ترتدّ فتعود كما كانت. أستهلّ مجيبا ببضع كلمات عن سؤالك من أنا: أنا سليل أسرة عريقة استوطنت تلّ هيتمّوس\* الأتيكيّ\* وخليج أفورية\* ومنطقة التينار\* الإسبرطيّة، وهي ربوع طبيّة كريمة أسّس أمجادها الخالدة بنوها الأكرمون. هنالك تعلّمت منذ فجر الطّفولة اللّسان الأتيكيّ: ثمّ اغتربت في مدينة اللّاتين حيث عكفت على دراسة لغة الرّومان الفحّة بجهد جهيد وبدون معلّم يقود خطاي. لذا أستميحك معذرة إن أسأت لقلّة خبرتي التّحدّث

(1) التّمط الميليّتي: لون أدبيّ يقوم على جمع قصص ومغامرات تخوي على إثارة جنسيّة عادة، نشأ في مدينة ميليتوس في القرن الثّاني ق م، ضاع كتاب أشهر ممثليه أرسطيدس الذي ترجم فورا إلى اللّاتينيّة.

بهذه اللغة الأجنبية الغربية عتي (1). وتغيير اللغة في حد ذاته يطابق منهج الفنّ البهلواني الذي نحن بصدده. ها نحن نبدأ قصة من الطراز اليوناني: فتنبّه أيّها القارئ، وستستمع (2).

### 1-2 لقاء على طريق هيباتة

كنت أقصد، لقضاء حاجة، تسالية (3)، فإليها تنتمي أسرة أمي التي شاد أسسها أفلوطرخس\* الشهير وابن أخيه الفيلسوف سكستوس\* صانعا مجدنا. بعدما اجتزت جبالا شاهقة وسهولا منبسطة ومراعي نديّة وحقولا مدرة، أركب حصانا محليّا ناصع البياض، رأيته قد نال منه الإعياء، ولأزبل كذلك عني كلل الجلوس. نزلت على قدمي لأتمشّي وأتنشّط. فنشّفت عرق حصاني ماسحا جبينه بعناية، وربّت برفق على

(1) اعتذار أبوليوس عن جهله بالأثينية: هو طبعا تواضع أدبيّ جدّ مثله عند كبار الأدباء ( انظر المعري مثلا في "رسالة الملائكة"). فهو من فرسان البيان اللاتيني بل يكتب في شتّى المواضيع باللغتين كما يؤكد مثلا في المرافعة وفي المنتخبات 9: والجملّة الأولى وحدها تبين ملكه ناصية البيان: At ego tibi sermone isto Milesio varias fabulas conseram auresque tuas benivolos lepido susurro permulceam, modo si papyrus Aegyptiam argutia Nilotici calami inscriptam non spreveris inspicere وانظر إلى التناظر حتى في نوع الكلمات من أسماء وضماير ونعوت وفي طولها. وكذلك إلى إشارته الخفيّة إلى مضمون روايته: فما عبثا أنت الإشارة إلى مصر وإلى حذافة براع النيل ( أو ربّما إلى مصادر مصريّة إلى جانب اليونانيّة). ثمّ انظر ابتداء الرسالة كأنها أتت تنمّة لحديث سابق.

(2) ستستمع: التمهيد شبيه بما جدّ في مسرحيات ترينيوس حيث جدّ نفس الدعوة إلى الانتباه والوعد بالمنعة.

(3) ورود الرواية بضمير المتكلم: أراد أبوليوس إعطاءنا معلومات عن نفسه وفكره، وإضفاء الواقعيّة عليها وذلك مطلوب في النصوص الفكاهيّة، وجدّه في روايات سابقة أو معاصرة ( ساتيريكون لبترونيوس، ليوكيبس وكليتوفون لتانيوس). وجدّه كذلك في فنّ المقامة في الأدب العربيّ ( الهمذانيّ، الحريريّ...)

أذنيه، ثمّ نزعت لجامه، وقدمته الهوينى ليستريح من وعثاء السفر ويطلق ما احتبس لديه من الخضام الطبيعيّ المألوف. وبينما راح حصاني يقتطف غداه، مادّا رأسه على جانب الطريق عبر الحقول، وجدت نفسي ثالث رفيقي سفر كانا بالصدفة يسبقاني بمسافة قصيرة. أنصت بفضول إلى حديثهما فإذا أحدهما يقول ضاحكا: "كفى يا صاح من هذه الأكاذيب السخيفة الأكبر من أن تصدّق". ما إن سمعت ذلك حتّى أثار ظمئي إلى الجديد: فقلت: "عفوا يا صاحبيّ الدرب! هلاّ أشركتmani في حديثكما! لستُ فضوليّا وإنما أودّ معرفة ما تخوضان فيه، كلّه أو أكبر قدر ممكن منه، عسى أن تخفّف طرفا قصصكما الشّيقة وعورة التلّ الذي شرعنا في ارتقائه."

### 1-3 نقاش حول عجائب السّحر

غير أنّ المتكلم الأوّل استأنف: "ما هذه التّرهات، لعمرى، بأصحّ من الادّعاء بأنّ بمقدور التعاويذ السّحريّة أن تقلب مجرى السّيول الدّافقة، أو تمسك البحر ساكنا، أو تكتم أنفاس الرّياح، أو توقف دوران الشّمس، أو تقشد زيد القمر#. أو تقتلع النجوم أو تلغي النّهار وتجعل اللّيل سرمدا." فتشجّعت وتدخّلت قائلا: "واصل أيّها الرّاوي حكايتك، أرجوك؛ ولا بمنعك غيظ ولا أنفة!" وللاخر: "أمّا أنت، فرمّا رفضت أخبارا صحيحة صامّا أذنيك مقرّا في العناد فؤادك، إنك لعمرى قليل الدّراية بتلك الأمور التي تعدّها أباطيل بناء على أفكار مسبقة خاطئة. لأنّها تبدو جديدة على سمعك أو طارفة على بصرك أو صعبة على فهمك وفوق متناول إدراكك، ولو تفحصتها بمزيد من التّدقيق لوجدتها جديدة

بالثقة نظريًا سهلة التحقيق عمليًا.

#### 1-4 مثال ألعاب المشعوذين

أنا مثلاً كنت أتعمّش إحدى الأماسي في جماعة قرص شعير وجين فأردت من باب المراء التهام لقمة أكبرمًا اعتدت شينما ما؛ فكدت أموت مختنقا بعدما التصقت بحلقي اللقمة الدّبة وسدّت نفسى. مع ذلك رأيت مؤخرًا قبيل الحادثة بعيني هاتين، في أئينة أمام رواق البقيل\* لاعبا مشعوذا يتلع سيف خيالة عريضا لهذما من شفرته الحذمة. ثم ما لبث، مقابل بضع دوينقات، أن أغمد في أحشائه حربة صيد من الجهة الفتاكة. وإن هي إلا لحظة حتى برز، على طرف قضيب الرّمح التي انغرزت في بطنه قناتها لتخرج من قذاله، صبيّ غصّ الجمال يؤدّي رقصة رشيقة غنجا، متلويًا في انعطاف وارتخاء، مثيرا إعجاب كلّ الحاضرين. كأنه في تثنيه تلك الحيّة المباركة الملتفة في انسياب حول صولجان إله الطّب (1) المشذوب، لكن دعنا من ذلك وواصل القصة التي بدأتها، أرجوك؛ سأصغي إليك وحدي مصدقًا نيابة عنه، وسأشركك في غدائي عند أول حانة نتوقف فيها؛ أقتح عليك هذه الصّفقة."

#### 1-5 قصة أرسطومانس

ردّ الرّجل: "أقبل بالتأكيد ما عرضت بسرور وطيب خاطر(2):

(1) إله الطّب: أسكولايبوس ابن أبولون، صعقه بوبتر بعد إعادته ميتًا إلى الحياة، يذكر أبوليوس في المرافعة 55 أنه ألقى محاضرة عنه في أوبه، وفي "المنتخابات" 18 نشيدا ألفه باللغتين اليونانية واللاتينية له.

(2) بسرور وطيب خاطر: aque bonique أو "بلياقة وطيبة" إن كان المنعوت

لذا سأعيد عليك ما بدأت؛ لكن سأقسم لك أولاً بهذه الشّمس الإلهية المطلعة على كلّ الكائنات ألاّ أذكر سوى ما ثبت عندي يفينا، ولن يساوركما فيه شكّ بعد وصولكما إلى أقرب مدينة في تسالية\*، فهناك تتناقل ألسنة الناس تلك الوقائع التي تمت برأى الجميع، لكن لتعلما أولاً من أيّ بلاد أنا ومن أكون، أقول: أنا من إيجيون\*، أمّا عن المهنة التي أعيش منها، فاعلما أنّي أذرع تسالية وإبتولية\* وبويتية\* في كلّ صوب للاجّار بالعسل والجين وما شابهما من السلع الخاصّة بالخانات، لذا لما علمت بوجود جين طارج زكّي المذاق معروض للبيع بسعر مغر في هيباتة\*، أهمّ مدن تسالية\* قاطبة، أسرعرت فوراً لشرائه كلّه، لكن، وكما يحدث عادة، خيّب انطلاقي بالرّجل اليسرى أملّ الرّيح المرجوّ، فقد اشترى كلّ المعروض دفعة واحدة في اليوم السّابق تاجر كبير يدعى لوبوس\*، لذا توجّهت عند حلول المساء إلى الحّمّام منهكا من عجلتي التي ضاعت سدى.

#### 1-6 لقاء مفاجئ

وإذا بي أشاهد صديقي سقراط\* جالسا على الأرض، ملتحفا رداء ممّقا لا يكاد يستره، وقد غير ملامحه الهزال حتى صار يشبه أولئك البائسين الذين يدفعهم نكد الحظّ إلى التسوّل في السّاحات العامّة. اقتربت منه وقد داخلني بشأنه الشّكوك، رغم معرفتي الجيدة به وعلاقتنا الحميمة، وقلت: "عجبا، ما خطبك يا عزيزي سقراط؟ ماذا تفعل هنا؟ وأيّ خزي هذه الذي أرى؟ في بيتك بكالك وناداكَ النداء الأخير الأهلون منذ مدّة وعين فعل "عرضت" لا "أقبل".

قاضي التّاحية (1) كفلاء لأبنائك. وزوجتك التي أدت لك الطّفوس وأذواها الحداد الطّويل وحذلت عيناها. يُكرهها أبواها اليوم على التّعزّي عن كآبة بيتك بأفراح زواج جديد. بينما أراك هنا. يا لعارنا. شبيحا عائدا من غياهب العالم السّفليّ\*." أجاب: "أخي أرسطومان\* لا إخالك جهل تقلّبات الحظّ الزّحلاقة وتبدّل أحواله وتناوب صروفه " وغطّى بردائه الخلق وجهه المحمّر من الخجل وهو يقول ذلك، بحيث عرّي جسمه ما بين السّترّة والخاصرة. فلم أطق مشهد بؤسه الممضّ ومددت إليه يدي محاولا إيقافه.

### 1-7 قصة سقراط

لكنّه لبث كما كان وستر وجهه قائلا: "كلاّ كلاّ. زر الحظّ (2) يسعد أطول بنصب النّصر الذي أقام لنفسه." أخيرا جّحت في حملته على أتباعي. وفي نفس الوقت نضوت أحد شقّي رداي وسارعت أكسوه به أو أستر عريه. لا أدري ما الأصحّ. وحملته فورا إلى الحمّام. فطفت أدلكه وأغسله. مسخّرا كل طاقاتي لخدمته. حتّى أزلت عنه طبقة سميكة من الأوساخ. بعدما وظّيته جيّدا. أخذته إلى فندق. مسندا جسمه المكدود بمشقة لتعبي أنا نفسي؛ فأرحته على فراش. وأشبعته من الطّعام وأنعشته بالشّراب، وسلّيته بطريف الفكاهات. حتّى انفتحت شاهيته للحديث والضّحك، واستخقه ظريف الهزل. واستثاره لطيف

(1) قاضي التّاحية: juridicus provincialis خطّة وجدت منذ عهد أغسطس. ألغيت وأعادها الامبراطور مرقس أورليوس 161-180: في مصر كان يساعد الوالي الذي يدعى هناك praefactus لا proconsul.

(2) الحظّ: المقصود هنا الحظّ مشخّصا في رتبة الحظّ. وهو كما سنرى حاضر طوال رواية أبوليوس. وله دور مائل للقدر في إنيادة ورجيلوس. يعطيه مكياقلي في "الأمير" أهمّية ماثلة.

المزاح. لكنّه ما لبث أن أخرج من أعماق صدره زفرة حارّة وضرب بيمينه بشدّة على جبينه وقال: "يا لبؤسي. أنا الذي كنت أنشد متعة الفرجة على عرض مصارعة تناقلت خبره ألسنة النّاس. كما تعلم ذهبت إلى مقدونية\* للاجّار، وعدت مثيرا بعد التّفرغ للأعمالي بها عشرة أشهر. وقبل وصولي إلى لاريسة\* بقليل. بينما كنت أقصد عبر طريق مختصرة ذلك العرض. هاجمني في شعب عميق منعزل لصوص عتاة. ففرتت بجلدي مجرّدا من كل أموالي. نزلت، وأنا على تلك الحال في حانة لامرأة تدعى مروة\*. مسنّة لكنّها احتفظت بظرفها. فذكرت لها أسباب حالتي وأخبار رحلتي الطّويلة وعودتي المنكودة وحادثه السّلب المؤسفة. فطفقت تعاملني بمروءة. مقدّمة لي طعاما مريئا ومجانّا (1) . ثمّ لم تلبث وقد أنارتها نار الشّهوة أن قاسمتني مضجعها. فلم يكن. يا لبؤسي. سوى ذلك اللّقاء الوحيد لأقع في عشرة تلك العجوز الوبيئة. واضطرتت إلى التنازل لها عن كلّ ما لديّ. حتّى الملابس التي تركها لي أولئك اللّصوص الرّحماء لسستر جسمي. وكذلك الدّوينقات التي كنت أكسبها من العتالة بفضل ما بقي من حيويّتي. إلى أن أوصلتني تلك الزّوجة العروب (2) وحظّي السّيء إلى الحالة التي رأيتني عليها قبل قليل."

### 1-8 ساحرة عليهمة

قلت: "إنّك جدير لعمرى بمعاناة أقصى الأتكال. إن كان يوجد

(1) مريئا ومجانّا: gratae et gratuitae جناس مضارع.

(2) الزّوجة العروب: يستخدم أبوليوس قلب المعنى antiphrasis كالمحج بمعنى الذّمّ ومجد ذلك في العربيّة أيضا.

حقًا أفصى ممّا ذكرت. إذ أثرت على بيتك وبنيك ملاذّ الشّهوة ومومسا مترهّلة. "ردّ صاحبي، واضعًا سبابته على فمه، ومتسمّمًا في ذهول: "سكوتا، سكوتا"، وبعد أن تلقت حوالبه ليتأكّد من إمكانيّة التحدّث بأمان، تابع: "حسبك! على نفسك جنّي بفلتة لسانك اللّجوج في حقّ امرأة تملك قوى خارقة." هتفت: "ماذا تقول، ويحك! أيّ امرأة هي، ملكة الفنادق الجيّارة التي ذكرت؟" أجاب: "ساحرة وعزّافة قادرة على إنزال السّماء ورفع الأرض، على جميد الينابيع وتذويب الجبال، على تصعيد الأشباح وتنزيل الآلهة، على إطفاء النّجوم وإضاءة سُدف الترتار\*." قلت: "أرجوك، نحّ ستار التّمثيل، واطو هذا السّجف المسرحيّ وأفصح لي بالكلام العاديّ." ردّ: "أتودّ سماع هذا المثال أم ذلك، بل عديد كراماتها؟ إنّ إضرام هواها، لا في سكّان هذه النّواحي فقط، بل والهنود والأحباش بفرقيهم وحتى سكّان أقاصي الأرض غيض من فيض علمها وألعاب صبيان عندها: إليك ما صنعت على مرأى من عدّة شهود.

### 1-9 أمثلة من سحر مروة

بكلمة واحدة مسخت عاشقا هجرها وتعلّق بسواها قندسا. لأنّ هذا الحيوان يلجأ، خشية الوقوع في قبضة مطارديه إلى بتر أنثييه، فأرادت أن يحصل للرجل نفس الأذى جزاء عدوله عنها إلى سواها، كذلك حوّلت جارا لها خمارا إلى ضفدع، لأنّه منافس لها، واليوم يدعو هذا الشّيخ وهو يسبح في زقّ من خمرة، متخبّطًا في الثّفالة، رواد حانته القدامى إلى خدماته في نفيق أجشّ(1). وشخص آخر محام رافع ضدها مسخته كبشا. (1)خدماته/ أجشّ: roncis/raucus جناس مضارع.

واليوم يصل ذلك الكبش في المحاكم، كذلك حكمت على زوجة عشيقها الحبلى التي شتمتها بأن تظلّ حاملا إلى الأبد بإغلاق رحمها وإرقاد جنينها، والمسكينة اليوم مثقل منذ ثمانية أعوام، كما يعدّ لها الجميع، وقد مغطّها حملها كأنّها ستضع فيلا.

### 1-10 ساحرة تتصدّى لمدينة بأكملها

لما أذت الكثيرين مرارا وتكرارا، عمّ السّخط واتّخذ يوما قرار بإقامة حدّ الرّجم عليها بصرامة من الغد، فأحبّطت الخطّة برقاها، ومثل ميدية\* التي بعد الحصول على مهلة يوم واحد من كربون\*، أحرقت باللّهب المنبعث من تاج (منافستها) البيت كلّه والبنّت مع أبيها العجوز، ألقت هذه السّاحرة في حفرة(1) طلاسّم مجتلبة من القبور، كما روت لي مؤخّرا هي نفسها تحت تأثير السّكر، فحبستهم جميعا في ديارهم بقوّة سحرها الصّامته، فبقوا فيها طيلة يومين عاجزين على كسر الأقفال أو قلع الأبواب أو ثقب الجدران، إلى أن جأروا بصوت واحد ضارعين، مقسمين بأغلظ الأيمان أنّ يرفعوا أبدا أيديهم لإيذائها وأن يقدّموا لها العون إن فكّر أحد في مسّها بسوء، إذك هدأت سورة غضبها فعفت عن أهالي المدينة؛ إلّا مدبّر تلك المؤامرة، فقد نقلته في ليلة ظلماء مع البيت برمّته، بجدرانها وأرضيته وأسسها وفي هيئته، مغلقا إلى مدينة أخرى تقع على بعد مائة ميل على قمّة جبل وعر، ومن ثمّ شحّ ماؤها، ولأنّ مبانيها المترصّصة الغاصّة بالسكّان لا تدع مجالا لساكن جديد، ألقت بالبيت أمام باب المدينة وانصرفت.

(1) حفرة: أوديسسيوس أيضا ألقى في حفرة بعض الموادّ للتّزول إلى العالم السفليّ، أوديسسة 11: 25-53



1-11 عمليّة اقتحام ليلىّة

هتفت: "ذكرت يا عزيزي سقراط أشياء عجيبة وإن كانت غرابتها لا تنقص شيئاً من فظاعتها. حقاً لقد ألقيت في روعي وجلا غير(1) يسير. بل هلعا شديدا. ووخزني برمح لا بشوكة. وأخشى أن تعلم تلك العجوز بعون قواها الخارقة بهذه الأحاديث بيننا. فهبنا ننم. وفي الفجر يكون قد خفّ تعبنا، فنهرب من هنا إلى أبعد ما يمكن." لم أفرغ من نصحي حتّى كان سقراط العزيز يغطّ في التّوم. محدثا شخيرا عاليا. جرّاء سكره غير المعتاد وإرهاقه الطّويل. فرددت الباب وعشقت المزلاج وسويت مفرشي على الأرض خلف المفصلة ورثدته جيّدا. ثمّ استلقيت فوقه. لكنّي في البداية لبثت أرقا متوجّسا لبعض الوقت. ثمّ قرابة الهزيع الثالث أغمضت عينيّ. فما كدت أغمضت حتّى فُتح الباب فجأة بقوّة أكبر من أن يتصوّر أنّه عمل لصوص. بل انهدّ بالأحرى بعدما هُشمت مفصلته وقُلعتا من عضادتيهما. فوقع من قوّة الدّفعة سريري التّخر القصير والمجّرد من إحدى فوائمه مستقرّاً على الأرض ودحدرني منقلبا عليّ ليغطّيني.

1-12 مروّة تدرك حبيب القلب الغادر

شعرت إذّاك أنّ بعض الأحاسيس بطبيعتها قد تنقلب إلى أضدادها؛ كثيرا ما تتولّد الدّموع مثلا من الفرح. كذلك لم أملك نفسي. وقد استحلّت من أرسطومان سلحفاة. من الضّحك. وفيما أنا ارتقب ما قد يحدث، قابعا في ركاب القذارة (1) غير يسير؛ أسلوب آخر يستخدمه بكثرة أبولوس: التّلطيف litotes ويصل أحيانا نفي النّفي.

محميا بحسن تدبّر مفرشي. رأيت امرأتين متقدّمتين في السنّ. تحمل إحداهما مصباحا مضيئا والأخرى إسفنجة وسيفا مجرّدا. فأحاطتا بسقراط الغارق في التّوم. ابتدرت صاحبة السّيف الأخرى: "هوذا. يا أخيّتي بنثية\*، إنديمون\* العزيز. هوذا كتميتوس\* الأغرّ الذي لها أيّاما وليالي بزهرة شبابي. هوذا الرّجل الذي لم يكفه بعدما استخفّ بحبّي هلبّي وثلبي. ها هو يهتّم كذلك بالهرب. فلم يبق لي. كما ترين. سوى بكاء وحدتي أبد الدّهر. مثل كالبسو\* بعدما تركها أوديسسيوس\* معدن المكر". ثمّ أضافت مشيرة صوبي بيدها. منبّهة إليّ بنثية: "وهوذا نصيحة الأمين الذي دبّر فراره وهو يقبع الآن جاثيا على الأرض حتّى سريره إلى الموت أقرب منه إلى الحياة. لاحظا كلّ ما يجري. يظنّ بوسعه الإساءة إليّ دون عقاب. سأجعله لاحقا. بل قريبا. بل فورا يتوب عن تهكّمه الماضي وفضوله الحاضر."

1-13 انتقام ساحرة

لما سمعت ذلك أحسستُ يا لبؤسي عرقا باردا يسيل على كلّ جسمي. وقشعريرة تسري فيه انخضت منها أحشائي. حتّى خلّت المفرش المهترّ من ارتجافي برقص في تشنّج فوق ظهري. لكنّ بنثية. بورك فيها. ردّت: "لِم لا نبدأ بالأحرى بذلك يا أختاه فنقطّع أوصاله على غرار كاهنات باخوس\* أو نبتّر ذكره بعد تقييد أطرافه؟" × ردّت مروّة- أدركت فعلا أنّها المرأة التي ذكر لي سقراط في قصّته: "كلّا. ليبق هذا على الأقلّ فيحثّو على جثّة ذلك التّعيس قليلا من التّراب." ثمّ أدارت رأس سقراط إلى الجهة المقابلة فأغمدت في جانب عنقه اليسار السّيف حتّى المقبض.

وتلقت في قرية صغيرة أدنتها منه الدّم الشّاحب بعناية بحيث لم تنسكب منه قطرة واحدة بالخارج؛ شاهدت كلّ ذلك بعينيّ. كذلك، وكبلا تغبّر في ظنّي شيئاً من طقوس التّضحية، أوّجت مروة الطّيبية بينها في الجرح سايرة أحشاء رفيقي فاستلّت قلبه، بينما أصدر المسكين الذي نُحرت حنجرتة بطعنة السيّف شخيراً كالخشجة وسلّم حشاشته. ضمّدت بنثية بالإسفنجة الجرح الفاغر كالأخدود قائلة: "يا إسفنجة يا ابنة البحر، إياك والانتقال إلى النّهر!" بعد الانتهاء من تلك الأعمال، انصرفنا عنه، فقلبتنا مفرشي، ثمّ أقمنا مفرشحتين على وجهي، فأفرغنا مئانتيهما، حتّى ضمّختاني بفيض بولهما المقرّف.

#### 1-14 مشروع الفرار

أ أن اجتازتا العتبة، حتّى انتصب الباب سوياً في وضعه السّابق، فاستقرّتا المفضّلتان في مخلعيهما ورجع الترابس إلى مزلقته وعاد لسان التّعشيق إلى مزججه، أمّا أنا فلبثت على حالي طريح الأرض بلا حراك عارياً مقروراً، ومبلاً بذلك السّائل المحّم، كما لو خرجت لتوّي من رحم أمّي، بل شبه ميّت خالفا ذاتي في شبه حياة برزخيّة، مرتقبا عذاب الصّلب المعدّ لي بلا ريب، حدّثت نفسي: "ماذا سيحدث لي عندما يكتشف في الصّباح هذا الذّبيح؟ ومن تُرى يصدّقني إن رويت حقيقة ما جرى؟ سيقال لي حتماً: × "كان بإمكانك على الأقلّ أن تطلب النّجدة، إن عجزت كما تزعم، وأنت رجل بمثل هذه الصّلاعة، عن مقاومة امرأة؛ تبا لك، أيّذبح شخص أمام عينيك، وتبقى ساكناً؟ × لمّ لمّ تُزلك أنت أيضا عمليّة قتل شبيهة؟ لمّ لمّ تتخلّص

منك هذه الوحشيّة الفتّاكة حتّى خيفة تبليغك عنها كشاهد على الجريمة؟ لقد جوت من الموت، فلنعد إليه الآن إذن!" × ذاك ما كنت أقلّب مع نفسي بينما بدأ اللّيل يفسح للنّهار؛ فبدا لي أنّ أفضل ما أفعل في حالتي أن أسرع بالفرار خفية قبل مطلع النّهار وأواصل متهيّب الخطى مساري. أخذت صرّتي وأدرت المفتاح وسحبت المزلاج، لكنّ ذاك الباب العاقل الأمين الذي فُتح في اللّيل تلقائياً لم يفتح لي إلّا بعسر بعد إبلج المفتاح فيه مرارا.

#### 1-15 فشل المحاولة

هتفت: "أين أنت يا رجل؟ افتح لي باب الفندق، أريد الذّهاب قبل طلوع النّهار!" فردّ البوّاب الذي افترش الأرض قرب مدخل الفندق، نصف نائم: × "ماذا؟ أجهل أنّ الطّرق مليئة باللّصوص لتدلج في السّحر؟ إن كنت تبغي الموت، لإحساسك قطعاً بوزر جرم أتيت، فما لي رأس يقطينة حتّى أموت من أجلك" (1). قلت: "لم يبق على مطلع النّهار كثير؛ ثمّ ماذا ينتزع اللّصوص من مسافر معدم مثلي فقير؟ أم جهل يا أحمق أنّ عشرة مصارعين لا يستطيعون سلب شخص عارٍ؟" × ردّ الرّجل خدراً وسنان، بعدما انقلب على جنبه الآخر: "من أين لي أن أعرف ما لو كنت تمزّ بحثاً عن مخبئ، بعدما ذبحت رفيقك، ذاك الرّجل الذي نزلت معه البارحة للمبيت هنا؟" × ساعتها رأيت الأرض تنشقّ حتّي عن غياهب التّرتار\* وفيها الكلب كريبوس\* يتحرّق لالتقافي، خطر إذّاك بيالي أنّ مروة الطّيبية ما أعفت رقبتني رحمة بي، بل استنبقتها بالتأكيد لعذاب الصّلب.

(1) ردّ البوّاب: لا يتماشى مع الموقف وقد يعود ذلك إلى التّأثر بقصّة شبيهة بردها فيها التّزليل على البوّاب

لذا قفلت راجعا إلى غرفتي، وشرعت أفكر في طريقة للتعجيل بموتي. لكن الحظ لم يهني لي سلاحا قاتلا سوى سريري؛ فناجيتته: "أي سريري العزيز الذي عشت وحمّلت معي كل تلك المحن، وتشهد على ما حدث البارحة. وبك وحدك يمكنني الاستشهاد، وأنا محلّ الاتهام، لإثبات براءتي، أمّديني بوسيلة للخلاص تعجّل بي إلى العالم السفليّ." شرعت، وأنا أقول ذلك، في سحب الحبل الذي جدل منه مفرشي، ففقدت طرفه على رافدة منغرزة حتّ النافذة تبرز نائئة إلى الخارج وربطته، وعقدت الطرف الآخر في خرّته متينة وارتقيت السرير، وارتفعت ساعيا إلى حتفي. ثمّ أدخلت رأسي في الأحبولة وألقيت بنفسي. لكن لما أزحت برجلي الدعامة التي كنت أعتد عليها، ليعصر الحبل بسقوط الثقل، عنقي فيسدّ تنفسي، × انقطع الحبل الرثّ العتيق فجأة، وهويت من حالق على سقراط النائم إلى جانبي، فجرّته معي في تدحرجي.

### 1-17 مفاجأة سارة

وإذا بالبواب يدخل بغتة في نفس اللحظة زاعقا: "أين أنت يا رجل؟ كنت في جوف الليل تتعجل الرحيل بمنتهى التهور والآن تغصّ في النوم ملتقا بالدُّثر." عند ذلك، وبسبب سقطتنا أو صياح الناطور التاشز، لا أدري، نهض سقراط مستويا وقال: "ما اجتناءً يكره المسافرون كلّ هؤلاء الملاعين نُدل الفنادق. لقد دخل هذا المتطفّل النحس بدون إنذار، بنّبة سرقة شيء في اعتقادي.

فانتزعني من نومي العميق بزعبقه الفظّ وأنا منهوك القوى. "فقمت خفا مبتهجا، تغمرني فرحة لم أكن أحلم بها، وهتفت: "هوذا أيّها البواب الأمين صاحبي وأخي الذي كنت البارحة تتهمّنتي بقتله جزافا. حتّ تأثير السكر": وأقبلت على سقراط أعانقه، لكنّه صدّني بشدّة قائلا وقد زكّمه الإفراز المعثي الذي ضمّختني به تانك السّعلاتان\*: "إليك عنّي بنتن المراحيض!" وأنشأ يسأل مازحا عن سرّ تلك الرّائحة. أمّا أنا، ففي انكسافي اختلقت حالا مزحة سخيّة وحولت اهتمامه إلى موضوع آخر، قلت مادّا بيدي: "لنذهب الآن فنستمتع بلذّة السير صابحا!" ثمّ أخذت الصّرة وبعد دفع أجره الإقامة لعامل الفندق، انطلقنا على الطّريق.

### 1-18 رحلة متعة

كنا قد قطعنا مسافة جيّدة لما بزغت الشمس مضيئة كلّ شيء، فأخذت أتأمّل بفضول رقبة رفيقي، ناحية الجانب حيث رأيت السّيف يُغرز، وأقول لنفسي: "يا أخبل حلمت بكوابيس فظيعة وأنت حتّ تأثير الرّاح وغطّة الأقداح. هذا سقراط سالما صحيحا معافى. أين الجرح والإسفنجة وأين أخيرا أثر تلك الطّعنة المستجدة التّجلاء؟" ثمّ خاطبته: "يؤكّد الأطباء الثّقاة محقّين أنّ من ينامون تقئين بالطّعام والتّبيذ يرون أحلاما مروّعة غمّاء، أنا مثلا، لإفراطني مساء أمس في الشّرب، حملت لي ليلتي اللّيلاء رؤى مشؤومة، حتّى لإخال نفسي إلى هذه اللّحظة مبلّلا وملطّخا بدم بشريّ." فردّ مبتسما: "لكنّك بشرفي لم ترشّ بدم، بل بيول. أمّا أنا فقد تراءى لي في المنام أنّي أدبح، وأحسست فعلا

بألم في رقبتي وُحِيلَ إِلَيَّ أَنْ قلبي يُسْتَلَّ، وإلى هذه اللَّحظة  
يضيق نَفْسِي وترجف ركبتي وتترنح خطاي. وأرغب في شيء  
من الطَّعام لأستردَّ قواي. "قلت: "هوذا الفطور جاهزا بانتظارك".  
وعلى الفور نزعتم المزود من على عاتقي. وأسرعتم أمداً له الخبز  
والخبز مضيفاً: "هيا جُلس خت هذه الدَّلبة".

### 1-19 شربة ماء

تناولت شيئاً من نفس الزَّاد ونظرت إليه يأكل بشراهة؛ فرأيت  
يمتقع ويعتريه شحوب كصفرة البقس وتخذله قواه. ويغور لون  
الحياة من محيَّاه، حتَّى أتتني من خوفي غصصت مستحضراً صورة  
جنيتي النِّقمة\* اللَّيليتين. وتلَبَّكتُ وسط حلقي على صغرها،  
قطعة الخبز التي تناولتها، لا تستطيع المضيَّ نزولاً ولا التراجع  
صعوداً (1). وكانت ندرة السَّالكين نفسها تزيد خوفي (2). وبمن  
يُشْتبه ترى في قتل أحد رفيقي سفر. سوى الآخر؟ × لكنَّه كان  
في الحقيقة قد ظمى؛ بعدما أصاب من الزَّاد شيئاً كثيراً ولم  
يطق على الشُّرب صبراً. إذ كان قد التهم بنهم حظاً وافراً من  
جين شهويٍّ؛ وكان يسيل الهوينى غير بعيد من أصل الشَّجرة  
جدول وديع. يحاكي بصفحته الغدير، وبصفائه اللِّجين أو البلُّور.  
هتفت: "هيا ارو غليلك من ماء هذا التبع الأزكى من الحليب!"  
فنهض ووجد بعد قليل حاشية من الصَّففة أكثر استواءً.

(1) تلَبَّكت...صعوداً: admodum/modicum, demeare/remearه جناس ومقابلة.

(2) ندرة السَّالكين تزيد خوفي: نوحى الجملة بمعنى ثان: زادني خوفاً تفكيرياً بأنَّ قادمين سيمرُّون بعد قليل.

واقترب من الماء متحرِّقاً (1). لكن ما كاد يلامس بطرف شفثيه  
صفحة الماء حتَّى انفتح في رقبته جرح فاغر غائر، وانبتقت منه  
الإسفنجة فجأة مرفوقة بقليل من الدَّم، وانكبَّ الجسم في  
النَّهر جثَّة هامدة، لولا أن أمسكته من إحدى قدميه وسحبته  
إلى الصَّففة بمشقة، فبكت قدر ما استطعت صاحبي المسكين  
وواريته صعيداً رملياً قرب النَّهر مئوى أبدياً، ثمَّ إنني، في توجَّسي  
وخوفي على نفسي، فررت عبر الفلوات المنعزلة النَّائية، وهأنذا  
الآن بعدما هجرت الأهل والأوطان يعدِّبني الشَّعور بوزر قتل نفس  
بشريَّة بنحو ما، وقد اتَّخذت لي منفساً اختيارياً بإيتولية\* حيث  
أفطن الآن بعد عقد قراني من جديد.

### 1-20 تقييم قصَّة أرسطومان

تلك كانت قصَّة أرسطومان؛ أمَّا صاحبه الذي كان يرفض  
في البداية تصديق حديثه بارتياب وتعنت، فقال:

"لا شيء حقاً أخرف من هذه الخرافة، ولا أسخف من هذه  
الكذبة". ثمَّ استأنف ملتفتاً إليَّ: "وأنت الرِّجل الكريم، كما  
أتوسَّم من هندامك وسمتك (2). أتصدِّق هذه الخرافة؟" أجبت:  
"فيما يخصني لا أحسب شيئاً مستحيلاً؛ بل كلُّ شيء يقع  
للشُّر وفق مشيئة القدر، لي ولكم ولكلِّ الناس تحدت يوماً  
أمور عجيبة وشبه مستحيلة، ولكنَّها تفقد مصداقيتها إن  
تُرو للجاهل. أمَّا أنا فأصدِّق صاحبنا وأذكر شاكرًا أفضاله (3).

(1) نهض...متحرِّقاً: جناس صوتيّ alliteration بالباء المعجمة.

(2) هندامك وسمتك: habitus/habitus جناس مطلق مع مقابلة.

(3) شاكرًا أفضاله: gratas gratias جناس مختلف (كان يمكنه أن يضيف

إذ سلّانا قَصَصه الممتع بظرفه وطرافته، بحيث قطعت طريقا وعرة وطويلة دون عناء ولا سامة، بل أظنّ ضعيفتي سعدت هي أيضا بجميله، إذ ها قد وصلتُ إلى باب المدينة الذي ترى دون أن أرهاها، محمولا لا على ظهرها بل على أذنيّ."

### 1-21 السّؤال عن ميلون

هنا كان منتهى حديثنا ودرينا المشترك، فقد دار رفيقاي إلى اليسار نحو ضيعة (1) قريبة، أمّا أنا، فدخلت أول فندق رأيته أثناء مسيري، وسألت العجوز صاحبة المحلّ: "هل هذه المدينة هيباتة\*؟" فهزّت رأسها بالإيجاب (2)، استأنفت: "هل تعرفين ميلون، أحد أوائل القوم هنا؟" فاستضحكت ثمّ قالت: "يُعَدّ الأوّل (3) حقًا صاحبك ميلون هذا الذي يقيم خارج الأسوار والمدينة كلّها." قلت: "دعي السّخرية يا أمّاه، وخبريني، أرجوك، عن الرّجل ومحلّ سكناه؛" فردّت: "أترى هناك تلك التّوافذ المتّجهة شطر المدينة، وفي الجهة المقابلة بابا مطلقا على زقاق محاذ؟ (4) × هناك يقطن صاحبك ميلون، وهو رجل ذو أموال كثيرة وأملاك وفيرة، لكنّه gratuitas لأنّهم لم يتوقّفوا في حانة ليدفع للرّجل أجر قصصه، سيما وأبوليوس يحبّ التّراكيب الثّلاثيّة!"

(1) ضيعة: في التّصّ استخدام أبوليوس التّصغير لكن بدون المعنى المقترن عادة بالتّصغير كما يفعل غالبا، لكنّ للتّصغير معنى أساسيا في مواضع أخرى، مثلا وصف فوتيس وهي تعدّ الطّعام 2: 7 حيث يعني التّحبيب.

(2) هزّت رأسها بالإيجاب: ينتقل أبوليوس هنا من الماضي إلى مضارع السّرد في نفس الجملة ليجعل الأحداث حاضرة أمامنا، وجد هذا الأسلوب (مع فتّيات أخرى لجذب انتباه القارئ) في عدّة مواضع أخرى.

(3) يُعَدّ الأوّل: تلاعب لفظيّ حول كلمة "الأوّل" فهي تعني: الوجه، أمّا هنا فمعناها مكانيّ وحقيقيّ.

(4) بابا مطلقا: fores/foris (إلى الخارج/ الباب) جناس مختلف.

مرذول لدى الجميع لشحّه المفرط وخسّته القبيحة. مواظب على ممارسة الرّيا الفاحش، لقاء رهن من الذهب أو الفضة، ومنطوف في بيته الضّيّق، دائب الحرص على قروشّه، وله زوجة هي كذلك شريكة رذيلته، لا يعول لديه سوى جويرية، ويسير دوما في هيئة المتسوّل. "رددت ضاحكا: "حقًا لقد رعاني صديقي ديمياس\* بتبصّر واعتناء، إذ عهد بي إلى رجل كهذا لن أخشى في ضيافته قُتار طبيخ ولا شواء."

### 1-22 لقاء ميلون

قلت ذلك وسرت متباطئا فاطر الهمة حتّى وصلت إلى البيت، فأخذت أطرق الباب الموصل بإحكام وأنادي. عندئذ تقدّمت فتاة في خصر العمر وقالت: "مهلا يا من تفرع بابنا بكلّ هذا العنف، مقابل أيّ رهن تبتغي الاقتراض؟ أم تراك جهل دون سواك أنا لا نقبل ضمانا غير الذهب والفضة؟" × أجبت: "تفاءلي بي خيرا وأجيبيني بالأخرى: هل أجد سيّدك الآن في البيت؟" ردّت: "طبعًا، لكن فيم سؤالك؟" قلت: "أحمل إليه رسالة توصية كتبها له ديمياس الكورنتيّ\*؛" فردّت: "انتظرنى هنا، في نفس المكان، ريثما أبلغه." ولم تتمّ كلامها حتّى أوصدت الباب مجدّدا ودلّفت إلى الدّاخل؛ ولم تلبث أن عادت وفتحت لي باب البيت قائلة: "سيّدي يطلبك." تقدّمت، فوجدته مفترشا سريرا (1) مفرط الصّغر وعلى أهبّة العشاء، وحذو قدميه جالس زوجته، وقد وُضعت إلى جانبه سّفرة فارغة، أشار إليها قائلا: "تفضّل." أجبت: "شكرا:"

(1) السّرين: كان اليونان والرّومان يأكلون متكئين على سرر أمام مائدة والنّساء والأبناء عند أقدامهم.

وقدّمت له رسالة ديمياس فوراً. فقرأها بعجل وهتف: "أنا مدين لصدّيقى ديمياس بفضل إمدادي بضيف مثلك."

### 1-23 استقبال حارّ

ثمّ أمر زوجته بالتّنجي ودعاني إلى الجلوس في مكانها. وأمسك بطرف ثوبي وجذبني. إذ لم أزل متردداً في استحياء. قائلاً: "اجلس هنا. فلخوفنا من اللصوص لا يمكننا إحضار مقاعد وأثاث كافٍ". ففعلت. ثمّ خاطبني: "كنت سأشيم بحق من وسامة مظهرك وحسن خفرك وحدهما كرم أرومتك. لكنّ صدّيقى ديمياس زاد فأحاطني في رسالته علماً بنفس تلك الحاسن: فأرجو ألاّ تزدرى ضيق بيتنا المتواضع. ستكون لك تلك الغرفة المحاذية هناك مقاماً مقبولاً؛ فلتنستطب الإقامة عندنا. وإنك لعمرى ستجعل هذا البيت بشرف مقامك أكبر وأرفع. وستكتسب منقبة مجيدة إن ترض ببيتنا الصّغير اتّساءً بنيسيوس\* العظيم، سمّي والدك(1). الذي لم يترفع عن قرى العجوز هيكالة\* على تواضعه." ثمّ دعا الخادمة وقال: "فوتيس\*، خبئي في موضع أمين من هذه الغرفة متاع ضيفنا. وأخرجي في نفس الوقت من خزانة المؤن زيتاً ليدهن به ومناشف ليمسح بها وغير ذلك ممّا يصلح لنفس الغرض؛ ثمّ خذي ضيفي إلى أقرب حمّام، فهو تعبّ من رحلته الشّاقة الطّويلة."

### 1-24 في سوق المؤن

عند سماعي ذلك قلت، مفكراً في طباع ميلون وبخله، وراغباً

(1) نيسيوس سمّي والدك؛ بالطبع لا ينبغي أن تؤخذ الإشارة إلى اسم أب لوقيوس. أو أمّه 2:2 أو وطنه أو انتسابه إلى أسرة بلوتاركوس 1:2 و2:3 مأخذ السّيرة الذاتيّة للكاتب. انظر الكتاب 11

في استمالته بنحو أوثق: "لا حاجة بنا(1) يا سيّدي الفاضل إلى هذه الأشياء فقد صحبتنا طوال الطّريق. وحتّى الحمّام سنسترشد عنه بسهولة؛ بصراحة أهمّ الأولويّات عندي حصاني الذي حملني بعزم، فخذني هذه التّقود يا فوتيس واشتري له كلاً وشعيراً." بعدما أمّت هذه التّرتيبات وخبّئت أمتعتي في تلك الغرفة، قصدت وأنا في طريقي إلى الحمّام السّوق أولاً لأتدبّر أمر عشاءنا. رأيت هناك سمكاً وفيراً معروضاً، وبعد الاستفسار عن السّعر والمساومة، اشتريت بعشرين ديناراً ما عرض بمائة درهم(2). لقيني وأنا أغادر السّوق بيثياس\*، قريني في الدّراسة بأثينة الأتيكيّة\*. الذي تعرّفني بعد الأمد الطّويل، فأقبل عليّ هاشاً باشاً وقال وهو يحتضنني ويقبّلني بمودّة: × "عزيزي لوقيوس\*، مرّ دهر لعمرى لم نرك منذ غادرنا مقاعد الدّراسة عند المعلّم كليتيوس\*. فما غاية رحلتك؟" أجبت: "غدا تعرف؛ لكن ماذا أرى؟ أهنتك بنيل المنى: أرى معك الدّرك والمخاض وكلّ شارات القضاء." قال: "أعنتي بالتموين وأشغل خطّة المحتسب(3). وإن تبغ شراء شيء فأنا بخدمتك في كلّ حين؛ فأشرت برأسى بالنّفي إذ سبق أن اقتنيت من السّمك ما يكفي للعشاء. لكنّ بيثياس رأى

(1) لا حاجة بنا: استخدام صيغة الجمع، التي قد تعبّر أيضاً عن المفرد، ربّما لأنّه يقصد خادمه معه.

(2) الدرهم: sestertius عملة فضّيّة تساوي دانقين ونصفاً والدّينار denarius عملة فضّيّة تساوي عشرة دوانيق. كما يظهر من اسميهما ( لكنّ دينار الخلافة الإسلاميّة رغم اشتقاق اسمه من هذه العملة كان ذهبياً عادة). أمّا المتقال الذهبّي aureus فيساوي 400 دانق. أي 100 درهم.

(3) المحتسب: aediles شبيه بصاحب الحسبة، أمين السّوق. كان في رومية مسؤولاً عن السّيطرة البلديّة والتموين ومراقبة الأسواق وكذلك عن تنظيم بعض الألعاب وحفظ سجلات الطبقة الشعبيّة.

السَّئِةُ فحَضَخُ السَّمِكِ لِيَتَفَحَّصَهُ ثُمَّ سَأَلَنِي: "كَمْ دَفَعْتَ مِقَابِلَ سَقَطِ الشُّبَاكِ هَذَا؟" أَجَبْتُ: "انْتَزَعْتَهُ مِنَ الْبَائِعِ غَلَابًا بَعِشْرِينَ دِينَارًا."

### 1-25 أحشفا وسوء كيلة؟

مَا إِنْ سَمِعَ ذَلِكَ حَتَّى أَمْسَكَ بِيَدِي وَأَعَادَنِي إِلَى السُّوقِ. وَسَأَلَ: "وَمَنْ أَيْ مِنْ هَؤُلَاءِ ابْتَعْتَ هَذِهِ السَّفَاسِفَ؟" أَشْرَتُ إِلَى شُوبِيخٍ كَانَ يَجْلِسُ فِي زَاوِيَةٍ؛ فَازْدَجَرَهُ فَوْرًا بِلَهْجَةٍ صَارِمَةٍ بِمُقْتَضَى سُلْطَنِهِ الْإِحْتِسَابِيَّةِ: × "وَيَحْكُمُ، لَمْ تَعُودُوا تَرَاعُونَ حَتَّى أَصْحَابِنَا، بَلْ وَلَا حَتَّى ضِيُوفِ مَدِينَتِنَا! تَسْعَرُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَثْمَانِ الْمُنْشَطَةِ هَذَا الْحَشْفِ الرَّدِيِّ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَحِيلُوا زَهْرَةَ مَدَائِنِ تَسْأَلِيَّةٍ\* مِنْ غَلَاءِ الْمَعِيشَةِ جَلْمُودًا صَفْصَفًا؟ لَكِنَّكَ لَنْ تَفْلَتَ مِنْ عَقُوبَتِي، سَأُرِيكَ كَيْفَ يُقَمِّعُ الْعَشَّاشُونَ حَتَّى سُلْطَنِي". وَنَثَرَ أَسْمَاكِي عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ أَمْرَدَكِيًّا يِرَافِقُهُ بِدَحْسِهَا وَسَحَقَهَا حَتَّى قَدَمِيهِ، بَعْدَ ذَلِكَ التَفْتُ صَدِيقِي بِيَثْيَاسٍ نَاحِيَتِي رَاضِيًا عَنِ صِرَامَتِهِ وَقَالَ مُودِّعًا: "عَزِيزِي لَوْ قِيُوسَ، هَذِهِ الْإِهَانَةُ تَكْفِي شَيْخِنَا فِي ظَنِّي". لَمْ يَسْعَنِي، وَقَدْ أَدهَشَنِي مَا جَرَى بِلْ أَدهَلَنِي تَمَامًا، سَوَى مُتَابَعَةِ سَبْرِي إِلَى الْحَمَّامِ صَفَرِ الْيَدِينِ مِنَ النَّقُودِ وَالْعِشَاءِ مَعًا، ثُمَّ عَدْتُ بَعْدَ الْإِغْتِسَالِ إِلَى بَيْتِ مَضِيْفِي مِيلُونَ فَأُوبِتَ إِلَى غُرْفَتِي مُبَاشَرَةً.

### 1-26 مآذبة ميلون

وَإِذَا بِالْخَادِمَةِ فُوتَيْسَ تَقُولُ: "سَيِّدِي يَطْلُبُكَ!"; لَكِنِّي اعْتَذَرْتُ بِأَدَبٍ، لِعَلْمِي بِتَقَالِيدِ مِيلُونَ التَّقَشُّفِيَّةِ، مُتَعَلِّلًا بِحَاجَتِي إِلَى

الاستراحة من وعثاء السفر لا بالطعام بل بالنام. لَمَّا بَلَغْتُهُ اعْتِذَارِي، أَتَى بِنَفْسِهِ، وَمَدَّ إِلَيَّ يَدَهُ مَحَاوِلًا جَرِيَّ بَرَفِقٍ، وَلَمَّا رَأَى تَرَدُّدِي وَتَمَنِّي بِلِينِ وَأَدَبِ قَالٍ: "لَنْ أُبْرِحَ الْغُرْفَةَ حَتَّى تَتَبَعَنِي"، مُرَدِّفًا إِلَى قَوْلِهِ أَغْلَظَ الْأَيْمَانَ، فَاسْتَسَلَمْتَ لِإِلْحَاحِهِ مَكْرَهَا، وَتَبَعْتَهُ إِلَى سَرِيرِهِ حَيْثُ أَجْلَسَنِي وَسَأَلَنِي: "كَيْفَ حَالُ صَدِيقِنَا دِيمْيَاسٍ؟ وَزَوْجَتُهُ؟ وَأَبْنَائُهُ؟ وَخَدْمُهُ وَحِشْمَتُهُ؟" × فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ أَخْبَارَهُمْ جَمِيعًا؛ ثُمَّ اسْتَخْبِرَ بِالتَّدْقِيقِ عَنِ أَغْرَاضِ رِحْلَتِي؛ فَسَرَدْتَهَا لَهُ بِالتَّمَامِ، ثُمَّ طَفِقَ يَسْتَوْضِحُ عَنِ أَخْبَارِ بِلْدِي وَأَعْيَانِهِ ثُمَّ وَالِيَهُ بِأَدَقِّ التَّفَاصِيلِ (1). وَلَمَّا رَأَيْتِي، مِنْ شِدَّةِ تَعَبِي مِنْ تَلَاحُقِ الْقِصَصِ مُضَافًا إِلَى مَشَقَّةِ رِحْلَتِي الْمَضْنِيَّةِ، أَتَوَقَّفَ وَسَطَ الْكَلِمَاتِ مَثْقَلًا بِالتَّعَاسِ، بَلْ وَأَتَلَجَّحَ فِي عَيِّ مَغْمَغَمًا بِالْكَلِمَاتِ الْمُسْتَعْصِيَّةِ، قَبْلَ أَخِيرًا أَنْ يَدْعَنِي أَوِي إِلَى فِرَاشِي. هَكَذَا أَفْلَتَ أَخِيرًا مِنْ مَأْدَبَةِ عَجُوزِنَا الْمَزْعَجِ الْجَزَلَةِ كَلَامًا وَالْهَزِيلَةَ طَعَامًا إِلَى النَّوْمِ، مَثْقَلًا بِغَيْرِ طَعَامٍ، مُتَعَشِّيًا فَقَطْ عَلَى الْقِصَصِ، وَعَدْتُ إِلَى غُرْفَتِي حَيْثُ سَلَّمْتُ جِسْمِي الْمَكْدُودَ لِلْجَمَامِ الْمُنْشُودِ.

(1) أسئلة ميلون: كنادرة الأعرابي الذي راح يسأل صاحبه عن أهله وجملة وكلبه ولا يدعو إلى طعامه (أوردها في ظننا القلقشندي)، أو لعله فعل كعبية بن جبير القائل عن ضيفه حسب ما جاء في ديوان الحماسة لأبي تمام: "أحدته إن الحديث من القرى / وتعلم نفسي أنه سوف يهجع"، وذاك لعمرى منتهى الجود!

## الكتاب الثاني

### 2-1 المدينة المسحورة

تولّى الليل وبعثت شمس جديدة ضياء النهار فنهضت من فراشي قلقا متشوّقا لمعرفة ما هناك من نادر ومعجب الأخبار. مفكراً أنّي أدركت مركز تساليّة\* الذي جُمع الألسن في كامل الأرض على الإشادة به كمولد فنون السّحر وأنّ قصّة رفيقي الفاضل أرسطومان أنت من موقع هذه المدينة خديداً. مثلولاً عن الإرادة والفعل معاً؛ وأخذت أنظر إلى كلّ الأشياء بفضول. فلم يكن شيء في تلك المدينة يبدو لي إذ أنظر إليه هو حقاً ما هو. بل بدت لي كلّ الأشياء قد حوّلت (1) بنبس نحس إلى صورة مختلفة. حتّى خلّت الحجارة التي ألقيناها مسخت من الهيئة البشريّة إلى الصّلابة. وبنفس التّحو اكتسبت الطّيور

(1) التّحوّلات: في الأدب القديم أمثلة على حوّل بشر إلى حيوانات بفعل السّحر كما فعلت كرخية بأصحاب أوديسيوس. أمّا التّحوّل إلى جماد فهو من صنع الآلهة: كما في أسطورة نيبوية التي حوّلت إلى صخرة وكذلك أختيون. ودفنية التي حوّلت إلى شجرة غار وسمرنة التي حوّلت إلى شجرة مّرّ أو كيانة الحوريّة التي حوّلتها هادس إلى غدِير. وفي الأدب الحديث تعدّ قصّة "التّحوّل" لفرانتس كافكا أهمّ أثر أدبيّ في هذا المجال. لهذه الفقرة معنى فلسفيّ إذا اعتبرنا خلفيّة أبوليوس الأفلاطونيّة: لوقيوس في عالم الظواهر المتغيّرة كما في أسطورة الكهف لأفلاطون. وفي الكتاب 11 سيصل إلى عالم الحقيقة الثابتة.

التي أسمعها ريشها. والأشجار المحيطة بالأسوار أراقها. ومياه الينابيع تدقّت في الحقيقة من أجسام بشريّة. بل بدا لي أنّ التّمثيل والصّور ستمشي والجدران ستتكلّم والثيران وغيرها من البهائم توشك أن تنطق بنبوءات. ومن السّماء نفسها وقرص الشّمس المتهادي تحت قبّتها سينزل بغتة وحي إلهيّ مبین.

### 2-2 لقاء قريبته

أخذت أطوف بكلّ الأشياء. مشدوها بل مذهولاً برغبة عاتية تعدّيني دون أن أرى بداية ولا أدنى أثر لما كنت أرغب فيه. بينما أنا أهيّم من باب إلى باب. في ما يشبه كسل المتسكّع. × دخلت السّوق فجأة على غير هدى. فإذا امرأة تسير هناك برفقة طاقم كبير من الخدم فحثت خطاي لأدركها. كان الذهب الذي يرصّع حلّيها ويوشّي جلابها ينم عن سيّدة من النّخبة بالتّحقيق. وكان يمشي بجانبها عجوز أثقلته السنون. ما كاد يراني حتّى هتف: "إنّه لوقيوس وحقّ السّماء." وأقبل عليّ يعانقني ثمّ وشوش بكلام لم أتبيّنه في أذن المرأة وخاطبني: "ألا تتقدّم وتسلم على أمّك؟" أجبت: "أخشى ألا تكون سبقت لي معرفتها". وتأخّرت لتوّي مطاطناً رأسي مخضّباً بحمرة الخجل. أمّا هي فالتفتت إليّ معنة فيّ النّظر وقالت: "هي ذي استقامة أمّه سلّوية\* الفاضلة ودمائة أخلاقها في وجهه؛ بل أيّ تطابق وأيّ تناسب في بقيّة أعضاء الجسم: × القدّ المشيق والقامة الهيفاء والحمرة الخفيفة والشّعر الأشقر دون خضاب. والعينان الزّبرجديّتان اليقظتان. كعيني التّسر. والوجه المتألّق في كلّ قسماته والمشية الأنيقة غير المتكلّفة."



### 2-3 استضافتها له

ثم أضافت: "أنا التي ربّيتك بيدي هاتين يا لوقيوس؛ فأنا قريبة أمك لا بالدم فقط بل بالرضاعة أيضا. ننحدر سويا من أسرة أفلوطرخس(1) ورضعنا نفس المرصعة وترعرعنا معا في تآلف الأختين(2). إنما فرقت بيننا المنزلة إذ تزوجتُ هي أحد الشخصيات العامة وأنا أحد الخواص. أنا برينة(3) التي قد تذكر اسمها فلا شك أنك سمعت ألسنة مربيك تردده. فانزل بلا حرج في بيتي بل اعتبره منزلك." رددت على دعوتها وقد زابلني الخجل أثناء حديثها: "معاذ الآلهة يا خالة أن أغادر مضيّفي ميلون بلا سبب. لكنني سأحرص على أداء واجباتي كاملة. وكلّما جدّد دافع سفرتي. لن أنزل عند سواك." وبينما كنّا نتجاذب أطراف هذا الحديث وما شابهه، وصلنا في بضعة خطوات، إلى بيت برينة.

### 2-4 في بيت برينة

كانت الردهة من أبهى طراز. تحمل على أعمدة منتصبة في كل واحدة من زواياها الأربع تمثالا × لإلهة (النصر\*) بسعفها المميز. وقد أفردت جناحيها، وانتصبت لا لتستقر، ملامسة بأسفل قدميها المهفهفتين كرة تكاد تجرّها. حتّى لتخالها من خفة الوطاء تطير. وهذا رخام باروس\* منحوتا في صورة ديانة\*.

(1) الانتساب لأفلوطرخس: للمرّة الثانية، فهل يريد أبوليوس الإشارة إلى خلفته الفلسفيّة الأفلاطونيّة؟

(2) انحدرنا... الأختين: نرى هنا، كما في مواضع كثيرة أخرى استخدام الصيغة الثلاثيّة المتدرّجة Trikolon .

(3) جهل لوقيوس ببرينة ووجودها في هيبانة: غير معقول طبعا وهي بمثابة أمّه؟ هل ترمز إلى إيزيس؟

يحتلّ وسط الردهة الممهّد، تمثالا متألّقا، معارضا بثوبه نسيمات الصبا. ينبض في مشيته بالحياة. بلاقي الدّاخلين، مجلّلا بفخامة الألوهة. وكلاب تتبع الإلهة محيطة بجانيها. كلاب لكنّها رخام. تنوعّد منها العيون، وتنتصب الأذان، وتنتفخ الخياشيم، وتكثّر الأفواه: فلو أتى نباح من كئيب، خلّته يخرج من تلك الحناجر الحجرية. وقد أظهر فيه النّحات المبدع أرقى نموذج للعمل الفنّي: ففي تلك الكلاب المتحرّزة من على لبّاتها المتينة، تريض القوائم السفلى وتوثّب العليا(1). ووراء ظهر الإلهة ترتفع صخرة على نحو كهف وسط الطّحالب والأعشاب والأوراق والأفنان: هنا عرائش مثقلة بعناقيدها، وهناك جنبات محمّلة بأزهار من حجر. وفي الدّاخل يلقي الرّخام المتألّق على ظلّ التّمثال سنناه: وحتّى حاقّة الصّخرة، تتدلّى فواكه وأعناب صُقلت بتفنّن وإتقان. عرضها الفنّ منافس الطّبيعة فجاءت شبيهة بالحقيقة. حتّى لنظنّ بوسعك جني بعض منها للأكل لّما يلقي عليها الخريف بنفحاته اللّواقح لّون النّضوج. ولو انحنيت وتأمّلت النّبع وهو ينبجس نجاجا في كلّ صوب من تحت قدم الإلهة فيسببطر مرتعشا في اللّجة الوديعة، خلّتها حبات العنب المتدلّية في الحقل بين عرائش الكروم لا تعوزها الواقعيّة ولا الحركة. وبين الأغصان الحجرية التي تتوسّط المشهد، يرى أختيون\* مشربّتا

(1) كلاب التّمثال: هنا كما في مواضع أخرى كثيرة ترمز الكلاب لوحشيّة عالم البهيمّة: 4-3-4 20-4 6-7 32-7 8-4 4-8 17-8 31-8 2-9 9-36 فضلا عن وصف كبروس 6-19 وتضيف صورة الكهف هنا إلى وحشيّة المشهد. جدّ إشارات أخرى إلى الوحشيّة الحيوانيّة: الوحوش والكواسر 3: 17، 6: 31، 8: 16، الدّب 7: 26، الخنزير البرّي 8: 5، التّين 8: 21، التّمل 8: 22، سباع الشّرك: 8: 16، 10: 35

نحو الإلهة بنظرة فضوليّة، وقد أحيل ظبياً لكن من رخام، راقبا ديانة\* وهي تستعدّ للاغتسال في التبع(1).

### 2-5 برينة تحذره من زوجة مضيّفه

بينما أنا أستمتع بمشاهدة تلك التّمائيل مبهوراً ناقلاً بينها النّظر مستزيداً، قالت برينة: "كلّ ما ترى هو لك"(2). ثمّ أوعزت إلى الآخرين سرّاً بالانصراف، ولما انصرفوا كلّهم، قالت: "بحقّ الآلهة، يا لوقيوس العزيز، لشدّ ما أتعدّب خوفاً عليك ولكم أودّ اتّخاذ أشدّ تدابير الحيطة خشية على قريب غال! فاحترس أرجوك كثيراً من شرور وإغراءات تلك المجرمة بنفيلة\*، زوجة مضيّفك ميلون. يُعتقد أنّها ساحرة من الدّرجة الأولى عليمه(3) بفنون السّحر والتّعزيم برفات الموتى، وبعيديان وحصى وسفاسف مائلة تنفخ عليها بتمتمة تعرف كيف تغطّس ضياء العالم العلويّ في سُدف التّرتار\* والسّديم الأصليّ. ولما ترى شابّاً بهيّ الطّلعة تهوى حسنه وسرعان ما حوّل عينها وفؤادها نحوه، وتنشر

(1) ووصف التّمثال: يهتّم أبوليوس في كتاباته بالفنّ التشكيليّ وعلاقته بالطبيعة وفق نظريّة أرسطو المعروفة: انظر مثلاً مرافعته 14: 3-8 ومنتخباته 15: 6 لكنّ لاختبار قصّة أختيون بالذات هنا دلالة خاصّة: فهي بمثابة خذير للوقيوس من عاقبة فضوله بعد مثال سقراط، وقد تشير ألّهات النصر المحيطات بتمثال أختيون إلى انتصار لوقيوس التّهاتّي بفضل إيزيس، قد يكون التّمثال أيضاً رمزاً لعالم الطواهر والوهم.

(2) كلّ ما ترى هو لك: نفس المعنى في قصّة بيسيشبة 2-5 قد يعني أنّ كلّ ما في الأرض هو للإنسان طالما بقي الإنسان متّصلاً بعالم الألوّهة بالتّجوّ الصحيح. (تقريباً كالاستخلاف في الإسلام)، والتّمك هنا من جنس الذي يشير إليه إيليا أبو ماضي في بيته: كم تشكّي وتقول أنّك معدم/ والأرض ملكك والشما والأخيم.

(3) ساحرة/عليمه: جناس مع سجع maga primi nominis et omnis carminis sepulcharis magistra.

إغراءاتها(1) من حوله لتغويه وتستولي على عقله وتقيّده بشراك الهوى الأبدية، من يفتر إذّاك جأوبهم معها أو يثيرون بإعراضهم بغضها تمسخ حالاً بعضهم حجارة أو أنعاماً أو بهائم أخرى وتلاشي الآخرين تماماً. لذا أخاف عليك من مكرها وأرى من واجبك الاحتراز من شرّها؛ فإنّها تستعر أبد الدهر، وأنت بسنك ووسامتك قادر على إثارتها": ذلك ما حدّثني به برينة في جزع.

### 2-6 خطّة "دون خوان"

لكني لفضولي الفطريّ، حالما سمعت اسم السّحر المحبّب دوماً إلى نفسي، لم أدع الحذر من بنفيلة فقط، بل أتقدت رغبة في تلقّي دروس بمثل خبرتها ولو بأبهظ ثمن والارتداء بقفزة عجلي في الهاوية، فتخلّصت بعجلة هوسية من يدها كقيد بغيض وودّعتها متعجّلاً، وطرت على جناح السّرعة إلى بيت ميلون. قلت لنفسي وأنا أسرع الخطو في جنون: "تبقّظ يا لوقيوس وكن ثبت الجنان. هي ذي فرصتك وبوسعك الآن إشباع قلبك من شغفه الدائم بالعجائب. فدع عنك مخاوفك الصّيبانية، وبادر بحماس إلى الشّأن الذي إليه تسعى. حذار أن تفكّر في ربط علاقة غرامية مع مضيّفك، واحترم قداسة عشّ الزوجية إكراماً لميلون الفاضل، لكن اجتهد للظّفر بخادمته فوتيس. إنّها حلوة لعوب، ومرهفة الذّكاء حقّاً؛ لما انسحبت البارحة لتنام، قادتك برقة إلى غرفتك فوضعتك على الفراش متلطفة وغطّتك مترففة، وعندما قبّلت رأسك، أبدت على محياها وهي تنصرف

(1) تنشر إغراءاتها: serit blanditias أو: خبك مكابدها، وأبوليوس كثيراً ما يستخدم كلمات مزدوجة المعنى.

من عندك مدى ضيقها بمبارحتك وتلكأت ملتفتة إليك مرارا. لا يجوز أن تفوت على نفسك هذه الفرصة السعيدة اليمونة، لتغو فوتيس.

### 2-7 رقصة القدر

وصلت إلى باب ميلون وأنا ناقش هذه الأمور مع نفسي. راكبا رأسي كما يقال (1): لكنني لم ألق بالبيت ميلون ولا زوجته، وجدت فوتيس الحبيبة بمفردها، كانت تحضر لسديها لحم سجق مفروما ومحشوا ولحما مقطعا في مرق متبل بذكي الأفاويه، وحسب ما تناهى إلى منخري قديدا شهيا، كانت ترتدي مئزرا نظيفا من الكتان خزمت عليه بزئار أرجواني رفعته إلى ما تحت النهدة مباشرة، وتدير القدر بيديها الحلوتين، وتقلقه في ليات دائرية برجات متلاحقة، ثانية في نفس الوقت أعضاءها برقة، هازة برفق جذعها وموجة بلطف خصرها، تسمرت مبهوتا مفتونا أمام هذا المشهد وانتصبت أعضائي التي كانت هامة قبلا (2). أخيرا خاطبتها: "عزيزتي فوتيس، ما أحلاك وما أطفك وأنت تدورين هذه الطنجرة مع ردفك! أي مرق لذيذ تعدين! يا بخت ويا سعد من تأذنين له بأن يغمس فيه إصبعه." فردت تلك البنت المرحة الطروب: "إنء بنفسك يا مسكين عن تنوري! لو لفحك لسان من ناري لا تقدت حتى الصميم ولن يستطيع إخماد الأوار أحد

(1) راكبا رأسي: pedibus in sententiam meam vado حرفيا: أمشي بقدمي منضما لرأسي: استخدام لعبارة مأثورة تقال عند التصويت في مجلس الشيوخ، حيث يذهب كل واحد للإدلاء ببطاقة في صندوق.

(2) التي كانت هامة قبلا: quae jacebant ante كلمة ذات معنيين: "قبلا" أي سابقا أو "قبلا" أي إلى الأمام.

سواي أنا التي أجد الطبخ، وأعرف كيف أهزأ أعذب الهز القدر والتخت.

### 2-8 مديح الوجه

نظرت إلي وهي تقول ذلك وضحكت؛ غير أنني لم أنصرف قبل أن أتفحص جيدا مظهرها كله. لكن ماذا أقول عن البقية وهمي الوحيد كان على الدوام الشعر والوجه: أنعم فيهما النظر بالخارج سابقا وأنعم بهما في البيت لاحقا. والمبرر الثابت لذهبي هو أن هذا الجزء البارز من الجسم والكائن في محل بين وجلي أول ما يبدو منه لأعيننا، وأن الحسن الفطري وحده هو الذي يبهرنا في الوجه بخلاف بقية الأعضاء حيث ينوب عنه رونق اللباس. بل إن الكثيرات، لإثبات جاذبيتهن الطبيعية، يخلعن كل رداء، ويتجردن من كل غلالة، ويحبين أن يتقدم حسنهن عاريا، ليفتن بنصرة بشرتهن المتوردة أكثر مما يبهرن بسنا الذهب في ملابسهن. لكن - ويا لفظاعة المثل الذي سأسوق، فإن قوله لإحدى الكبر- لو جرّدت من الشعر رأس غادة رائعة الجمال وعريت وجهها من هذه الحلية البديعة التي حبتها بها الطبيعة، ولتكن نزلت من السماء لتوها أو انبثقت من البحر، أو خرجت من اللجة، بل لتكن فينوس\* نفسها × محفوفة بموكب ربّات الرّواء\* بأتمهن وبكلّ آلهة الحب\* مرفرفين حواليتها، مننطقة حزامها البديع، فواحة بشذا الكافور، عبقة بأريج المرّ، تتدرج صلعاء، فلن تعجب أيّا كان، حتى زوجها فلكان\*.

2-9 مديح الشَّعر

لكن ماذا لو أشعَّ بالشَّعر لون فاتن ورونق مشرق، وتألَّق معارضا آية الشَّمس أو عاكسا في دعة سناها، أو تدَّرج على سلَّم الألوان، مشعشعا نارة بريق الذهب الوهاج ومنغمرًا في فيء العسل الفاخ. ومحاكيا نارة أخرى بسواد كالغراب وورقة التتف الغبشاء في أجياد الحمائم، أو دهن بصمغ بلاد العرب وسرَّح بأسنان مشط رقيق دقيق، وألوي وراء العنق فتراءى لعين العاشق، عاكسا كالمرأة صورة كلِّها بهاء وحلاوة ورواء؟ ماذا لو ضُفر في عقصة كثيفة مكلِّلا أعلى الرُّأس، أو انحدر منسرحا على الظَّهر خصلة مديدة ناعمة؟ من عظم شأن الشَّعر أن المرأة مهما أخذت زخرفها واژنبت بالحلل الموشاة بالذهب واللآلئ وشبَّتى الحلى، وتدَّرجت تختال، لا يمكن أن تعتبرها متزيَّنة ما لم تصفَّ شعرها، أما فوتيس حبيبتي، فقد زاداها الشَّعر عذوبة على العذوبة، لا بتسريحته المتفتنة، بل بإهماله وفوضاه، فقد جمعت عقدة في أعلى رأسها خصلها المتلافة وتركتها تنساب برقة فتدلَّى من أعلى القفا وتنحدر على نحرها متموجة ناعمة وتستقرَّ على حافة ياقة إزارها منعقدة أطرافها.

2-10 نشوة الحب

لم أستطع مقاومة عذاب الشَّهوة أطول، فاقتربت منحنيا، وطبعت على محطَّ خصلها، من حيث يصعد شعرها إلى قمة رأسها، أعذب قبلة، إذآك أدارت رأسها وغمزنتني بعينين تلتمعان إغراء، وقالت: "انتبه أيها التلميذ المشاغب! ها أنت تتناول

مقبَّلات حلوة ومرة، فحذار أن تثير بحلاوة العسل المفرطة مرارة الصِّفراء المستديمة!" أجبت: "ماذا تقولين يا بهجتي، أنا مستعدَّة من أجل قبلة واحدة تحيي مهجتي، حتَّى لأن أصلى ممددا فوق هذه النَّار"، قلت ذلك وأخذت ألثمها وأضمتها بحرارة إلى صدري، فما لبثت أن جأوبت مع اضطرامي، متَّحدة معي في التحام الغرام، وشذا أنفاسها المتضوِّع من ثغرها المنفرج، وزغزغة لسانها العذبة ينبضان بالرغبة، هتفت: "إني أهلك، بل هلكت إن لم تسعفيني." فعادت تعانقني وقالت: "تشجَّع فيبي مثل ما بك، وأنا أمة لك، ولن تؤجِّل متعتنا أطول: عند الغسق آتي إلى غرفتك؛ فاذهب وهيء نفسك، لآتي الليلة منازلتك ببسالة وبطيب خاطر."

2-11 في انتظار الموعد

بعدما تبادلنا هذه النَّامات افترقنا؛ وعند الزَّوال أرسلت لي برينة، هدايا ترحاب، خنزيرا سميئا وخمسة فراريح ودنا من خمر معتقة من أجود صنف، فدعوت فوتيس وقلت: "هو ذا باخوس\* مشجَّع فينوس\* وحامل سلاحها يسبقها، لنشرب اليوم كلَّ هذه الخمر لتزيل عنَّا وجل الحشمة وتبعث فينا جراءة الشَّهوة المتلظية، لهذا الزَّاد فقط يحتاج مركب فينوس\* لنسهر الليل كلِّه ويطفح بالرَّيت مصباحنا وبالدمام أفداحنا." قضيت بقيَّة النَّهار في الحمَّام ثمَّ العشاء، إذ طلبني ميلون لأشاركه عشاءه، فاستلقيت أمام الخوان متجنِّبا نظر زوجته، ذاكرة وصايا برينة، ونائبا بعيني عن وجهها كأني أخشى الوقوع في فؤارة أورنوس\*، لكنني كنت أنعش مهجتي بالنظر إلى فوتيس التي أنت لخدمتنا

بين الفينة والفينة. فجأة هتفتُ بنفيلة ملتفتة إلى الصباح. وقد حلّ المساء: "أي مطر غزير سيأتي غدا(1)". ولما سألت زوجها مستوضحاً أجابت أنّ ذلك ما أنبأها الصباح. فعلق ميلون ضاحكاً: "إننا نحتفظ حقاً في شخص مسرجتنا هذه بعزّافة سيبلية\* ترقب من مرصد مشكاتها كلّ شؤون السّماء، بل الشّمس نفسها!"

### 2-12 سهرة مع ميلون وبنفيلة

تدخلت عند ذلك: "تلك فعلاً أولّيات فنّ العرافة. لا عجب أن يمكن هذه الدّبالّة المهينة والمصنوعة بأيّد بشرية لا محالة، الحاملة مع ذلك ذكرى اللّهب السّماويّ الأعظم مصدرها الذي منه انبثقت وفيه ستتلاشى أن تعلم وتنبئنا عرافة وإلهاما بما دُبر في أعالي الأثير، فمثلاً، يوجد عندنا في كورنتوس\* (2) عزّاف(3) عجيب يثير بكهاناته المدينة بأكملها ويعلن للجماهير أسرار الأقدار مقابل دوينقات. أيّ يوم مثلاً يثبّت روابط زيجة، أو يرسّخ أسس مدينة، أو يناسب تاجراً، أو يواتي مسافراً، أو يلائم ركوب البحر. أنا مثلاً لما سألته عن نتيجة سفرتي أنبأني بكثير من الأمور المتنوّعة الباهرة، بأمجاد ساطعة وقصّة رائعة ومغامرات غاية في العجب وكثير من الكتب."

(1) تكهن بنفيلة بالطر: أي بالعاصفة، تلميح إلى مغامرة لوقيوس الآتية.

(2) عندنا في كورنتوس: نعلم هنا وطن لوقيوس بعد إشارة خفية إليه أثناء الحديث عن ديمياس 1: 22

(3) عزّاف: في النّص "كلداني" والكلمة لا تحمل دوماً معنى جغرافياً وإن أوحى أوصافه 2: 13 بأصل شرقيّ.

### 2-13 عزّاف عليم

قال ميلون ضاحكاً على كلامي: "ما أوصاف عزّافك ذلك وما اسمه؟" فأجبت: "هو رجل فارغ أسمر يدعى ديوفانس\*." فهتف: "هو بعينه ولا أحد سواه! لقد أقام هذا الرّجل عندنا وقدّم للعديد من نبوءات كثيرة كاسبا من صنعه لا دوانيق بل أموالاً وفيرة، لكنّ المسكين وقع في شرك حظّ لا أدري أقول منكود أو غشوم(1). ذات يوم، بينما مضى، وسط جمهور غفير، تقدّم للجمع المتحلّقين به تكهّناته، أتاه تاجر يدعى كردون\* مستفسراً عن اليوم المناسب لسفر ينويه، حدّد له يوماً اختاره، وها هو يطرح همياناً فينثر التّقود ويعدّ مائة دينار هي أجر الكهانة، وإذا بشابّ تنمّ هيئته عن كرم محتده يتسلّل وراء صاحبنا، ويجذبه من طرف ثوبه؛ ولدى التفاته يعانقه بحرارة، فردّ حنّته وأجلسه إلى جانبه، وخاطبه مشدوها وناسياً من فرط دهشته من اللّقاء المفاجئ الصّفقة التي كان يصدد إبرامها: × "متى نزلت أهلاً بيننا بعد طول شوقنا؟" فردّ الشابّ: "عند المساء تماماً؛ لكن حدّثني بدورك، أيّها الأخ الكريم، كيف تمّت رحلتك بحرا وبتراً بعد إبحارك المفاجئ من جزيرة أوبويا\*."

### 2-14 نباهة عزّاف

ردّ عزّافنا العليم ديوفانس وهو لا يزال في غيابه وذهوله: "على كلّ أعدائنا وخصومنا أدعو بمثل تلك السّفرة النّحسة التي أريت على رحلة أوديسيوس\* شؤماً! فقد تلاعبت بالسّفينة (1) حظّ منكود أو غشوم؛ تلاعب لفظي scaevam/saevam وهي كذلك فكرة تتكرّر عند أبوليوس.

التي أفلتتنا عواصف عاتية وفقدت كلتا دفتيها ثم جنحت على ساحل شديد الوعورة مرتطمة بعنف وانغرست في القاع؛ وبشق الأنفوس سبحنا إلى الشاطئ ناجين بأنفسنا بعد ضياع كل أمتعتنا. وكل ما استطعنا من بعد جمعه، سواء من صدقات الأجانب أو من مساعدة الإخوان. انتزعه اللصوص منا. بل إن أخي الأوحده أرغوتوس\* الذي تصدى لجيروتهم بشجاعة الأبطال ذبح أمام عيني هاتين. "قبل أن ينهي قصته الحزينة استولى التاجر كردون على المال الذي كان قد دفعه أجرا للنبوءة وفر فوراً. حينذاك فقط أفاق ديوفانس. وهو يرى الحضور المتحلقين حوله ينفجرون في ضحكة مدوية. وتفظن للكارثة التي أوقعته فيها غفلته (1). لكن لك أنت وحدك. أيها السيد الفاضل لوقيوس. لا بد أن ذاك العرّاف قال صدقا (2). كانت السعادة بصحبتك واليمن رفيق مسيرتك."

### 2-15 الاستعداد ليلية حب

بينما مضى ميلون في هذه الأحاديث، كنت أتألم داخلياً بصمت وأحترق نعمة على نفسي أنا الذي أثرت هذه السلسلة من القصص في الوقت غير الموافق. مفوتاً على نفسي جزءاً هاماً من الشهرة وأنسها الزائق. أخيراً غلبت حيائي وقلت لميلون: "فليُقاس ديوفانس ما قدر له حظّه، وليسلم بدوره إلى الكوارث التي وقعت لديوفانس: تلقى شكوكاً على صحّة ما توقع للوقيوس؛ عموماً نلاحظ عند أبوليوس ازدواجية في الحديث عن المنجمين والعرّافين: انظر مثلاً: 8: 24 و 9: 8 أو في "المرافعة" 97 (2) لا بد أنه قال صدقاً: plane ille vera dixerit في الصيغة اللاتينية سخرية يصعب نقلها. فالتمييز plane يعني التأكيد. وصيغة الفعل dixerit (ماضي المستقبل) لا تخلو من التشكيك.

البر والبحر سووية ما استحوذ عليه من الناس. أما أنا فما زلت خائراً من تعب أمس فائذن بأن أوي إلى فراشي باكراً." قلت ذلك وغادرتّه وذهبت إلى غرفتي؛ هناك لاحظت أن ترتيبات للعشاء دُبرت بأحسن وجه. فقد فرّش للغلمان (1) خارج الغرفة على الأرض وبمناي. لإبعادهم حسبما بدا لي عن سماع نأمتنا ليلاً. وبجانب سريري نُصبت مائدة حفلت ببقايا عشاء طيبة. ووضعت عليها قدحان من صنف وسط سُكبت فيهما خمر إلى النصف فقط في انتظار مذاقتها. وركزت في تناول اليد قنينة رُفعت بفتاحة الأكواز سدّادتها. فوهتها المفتوحة ميسرة للاعتراف: كلّ المعدّات لمنازلة عاشقين.

### 2-16 ليلية حب

ما كدت أتمدّد على السرير حتى أتت حبيبتي فوتيس طليقة الأسارى. بعد إيواء سيّدتها إلى فراشها. وقد دسّت ورداً منظوماً وآخر مفروطاً في صدارها. وبعدما عانقتني بحرارة وطوّفتني بجديلة الورد وألقت عليّ نثار الزهر. تناولت قدحا وسكبت فيه ماء ساخناً ثمّ قدّمته لي لأشرب. وقبل أن أفرغه تماماً أخذته برفق ورويدا رويدا. مرّت البقية زامة شفيتها ورانية إليّ. ثمّ دار بيننا ثمان فثالث، وتنقلت بيننا الأقداح تترى. حتى ثقّت خمرًا وكمل استعدادي للشبّاق. لا بالروح فقط. بل كذلك بالبدن. وانتشيت

(1) الغلمان: ذكر الكاتب أن ميلون بلا خدم ويذكر لاحقاً عبداً واحداً له (2: 31، 3: 8، 3: 27، 7: 2). وفي 11: 20 يستخدم صيغة الجمع/الثنائي، وقصّة لقيانوس تذكر عبداً واحداً. فرّماً استخدم الجمع من باب التعميم أو نقل عن قصّة شعبية ولم يغيّرها لتحقيق التماسك والأرجح أنه يغيّر المعطيات حسب حاجته.

واعتراني خدر خفيف، فأمطتُ إلى حدِّ العانة طرف الرداء، مبدياً لفوتيس الحبيبة نفاذ صبر شهوتي. "ارحميني"، قلتُ. "وعجّلي بإسعافي، فأنا كما ترين على أتمّ الأهبة بحماسة للمعركة الوشيكة التي قرّرتها لنا دون إعلان حرب حسب الأصول. حالما تلقيتُ في سويداء قلبي أوّل سهم سدّده كوبيدون\* الغشوم صوبي، وتّرتُ قوسي بدوري بأقصى الشّدّ، حتّى لأخشى أن ينقطع الوتر من شدّة المدّ. لكن لتبدي رغبتك بنحو أتمّ، أرسلني شعرك في انسياب مهفهفا فوق ضمّاتك العذاب."

### 2-17 صراعات الحبّ

في الحال أجلت كلّ أطباق الطّعام بخفّة، وجردت من كلّ ملابسها وحلّت شعرها في دلّ مثير فتحوّلت بروعة إلى صورة لفينوس\* وهي تخرج من اللّجج، مغلّلة بغنج، لا مخفية بخفر، أنونتها الأملود بكفّها القرمزيّة الصّغيرة. "إلى النّزال"، قالت، "وإلى النّزال ببسالة، فما أنا لك بمستسلمة ولا مؤلّية قفائي؛ فاصمد أمامي وجها لوجه إن كنت تحمل عزم الرّجال واهجم بحماس وقاتل مستميتا، فلا توقّف الليلة لمعركتنا." طلعت وهي تقول ذلك على السّريبر وجلست فوقي برقّة، وبهزّات متلاحقة، وتثبيات مثيرة أخذت حرك ظهرها الرّشيق، فروت ظمئي من لذة فينوس\* المعلقة حتّى فترت همّتنا وكلت جهودنا فتهاوينا معا منهكين، ومتحاضنين مسلمين روحينا، وامتدّ بنا السّهر ونحن في هذه الصّراعات وأمثالها إلى حدود الفجر، مستعينين بالقدح بين فينة وأخرى لشحد همّتنا وتأجيج شهوتنا وجديد لذّتنا؛ وشفعنا ليلتنا تلك بعدّة ليالٍ أخرى ماثلة.

### 2-18 دعوة برّينة

ذات يوم طلبت منّي برّينة بإلحاح حضور مأدبة عشاء عندها؛ ولمّا اعتذرتُ لها بشتّى التّعلاّت لم تقبل اعتذاراتي. فكان عليّ أن أذهب إلى فوتيس لسنتذانها واستفتائها؛ ورغم استيائها من ابتعادي عنها ولو قدر أئمة، قبلت أخيراً بطيب خاطر هذه الهدنة الوجيزة لحرينا الغراميّة. أضافت: "لكن حاول أن تعود من العشاء باكرا، فإنّ فئة مسعورة من شبابنا المنتمين إلى أرقى الأسر تشوّش الأمن العامّ؛ ستري هنا وهناك قتلى متناثرين على السّاحات العامّة، فحامية والي إقليمنا لبعدها عن مدينتنا عاجزة عن إراحتنا من هذا الأذى. وقد يجلب لك الخطر مظهرك الموحى بالثّراء وكذلك الاستخفاف بالأغراب." أجبت: "لا تنشغلي يا عزيزتي؛ ففضلاً عن تقديمي لذّاتي معك على كلّ الولايم عند الغير، سأزيل كلّ مخاوفك بالعودة إليك باكرا؛ ثمّ إتّي لن أذهب بمفردي، بل سأقلّد على جنبي سيفي رفيق دربي وإلّفي، حاملاً وسيلة سلامتي؛ ثمّ التحقت مجهّزا بهذا النّحو بالمأدبة.

### 2-19 المأدبة

كان هناك حشد غفير من المدعوّين هم بالضرورة، كما يُتوقّع لدى امرأة من النّخبة، زهرة المدينة؛ وكنّت ترى موائد فخمة متألّقة بخشب السّرو(1) والعاج، وأسرة مسجّاة بأغطية موشاة بالذهب، وأكوابا كبيرة متنوّعة في بداعتها وإن أّخذت في (1) خشب السّرو: citrus شجر thuya articulata يدعوّه علماء التّبات callitris quadrivalvis وأصله من شمال إفريقيا كان ولع الرّومان به كولع نسائهم بالجواهر، ذكر بلينيوس 13: 29 أنّ طاولة دائريّة بقطر 4-5 أقدام بيعت بثمن عقار كبير، وهو لا شك المعنّي بالخشب الثّمين في رؤيا يوحنا 12: 18

نفاستها. هنا الرّجاج المنقوش بمنتهى الإتقان. وهنا البّور النّقيّ بلا شبة، وهناك الفضة الصّافية والذهب المتألّي والكهرمان المحفور بأروع الرّسوم، والأحجار الكريمة، أعدت للشرب كلّها. وكلّ ما لا يمكن وجوده كان يوجد هناك. راح عدّة نُدل ارتدوا كسرى فاخرة يعرضون بكياسة أطباقا حافلة بأشهى الأَطعمَة. وولدان جُعِد شعْرهم بالحديد وليسوا ثيابا جميلة يقدّمون للمدعوّين بلا توقّف أحجارا كريمة سُكّلت أكوابا من المدام الخندريس. بعدما أدخلت المشاعل. تعالّى السّممر حول المائدة وانطلقت من هنا وهناك الضّحكات والنّكات والدّعابات. عند ذلك خاطبتني برّينة: "كيف جَد العيش في بلادنا؟ نحن. فيما أعلم. نتقدّم بشأو بمعايدنا وحمّاماتنا وبقية المرافق العامّة على كلّ المدن. ونتفوّق كذلك بوفرة المعدّات المنزليّة. فهنا تتوفّر حقّا للزائر الحرّيّة إن كان عاطلا(1). وحيويّة رومية إن أتى يسعى في شغل. وراحة الرّيف إن جاء للاستجمام ببساطة: باختصار مدينتنا منتجع مستطاب لكلّ الإقليم."

## 2-20 السّممر

قلت ردّا على كلامها: "صدقنا تقولين. فما خلّنتني أكثر حرّيّة في أيّة بلاد أخرى ممّا أنا هنا؛ لكنّي أخشى في مدينتكم(2) مكاييد السّحر التي خآك في الخفاء وليس منها محيد. يقال إنّ قبور

(1) تنوّقر الحرّيّة للعاطل: *libertas otioso et negotioso*... لكن إن كانت *negotiosa* يصير المعنى: تنوّقر الحرّيّة الخليّة ( من كلّ شغل وشاغل).

(2) أخشى في مدينتكم: *oppido formido* أو: أخشى كثيرا. ترد نفس العبارة بالمعنى الثّاني للكلمة في 2: 25 وفي "المرافعة" 62 تلاعب لفظيّ حولها. وقول لوقيوس يناقض ما قال عن اهتمامه بالسّحر.

الموتى نفسها ليست بمأمن من شرّها. بل يُبحث في المحرقات ونشوز الرّموس عن شتّى البقايا والمزع لتدبير المهلكات للأحياء. بل حتّى أثناء إقامة طقوس المأتمّ تستبِق بعض السّاحرات العجائز بسرعة الطّير طريقة الدّفن الأخرى(1). "عقب أحد الحضور على كلامي: "الحقّ أنّ الأحياء أنفسهم لا يسلمون ممّا ذكرت؛ وهناك شخص تعرّض لأذى من هذا النوع فقد بُتر وشوّه وجهه تماما." في الحال. انفجر كلّ الحضور مقهقهين بلا اتّزان. وسُلّطت وجوه وأنظار الجميع ناحية شخص منزو في ركن على سريره. فغمغم مستنكرا(2) وقد سيء بالاهتمام الجماعيّ وهمم بالتهوؤ. لكنّ برّينة استوقفته: "أرجوك. يا عزيزي تليفرون\*، أن تبقى قليلا معنا. وتعيد قصّتك على مسامعنا. وفق حسن أدبك المألوف. ليستمتع ابني لوقيوس هذا بحلاوة حديثك اللّطيف." فردّ: "أنت يا سيّدتى دوما على ودادتك وإخلاصك لا جدل. لكنّ صفاقة البعض هنا أكبر من أن تختمل." بدا وهو يقول ذلك في غاية التّأثير إلاّ أنّ إلخاف برّينة التي راحت تناشده بإلحاح أن يحدثنا بحكايته، وتستحلفه بحياتها حقّق لها ما أحبّت.

## 2-21 قصّة تليفرون: في لاريسة

كدّس الأغطية في كومة واستوى على الفراش متّكئا ثمّ

(1) يستبِقن طريقة الدّفن الأخرى: *alienam sepulturam antevortunt* كما لو كانت أحد البدائل المتاحة ( على سبيل السّخرية). لكن قد يكون المعنى أيضا: يسبقن إلى دفن غريب عنهنّ ( أهله).

(2) غمغم باستنكار...: *qui cunctorum obstinatione confusus indigna*... *murmurabundus* يمكن أيضا أن تكون *indigna* نعنا للاهتمام الجماعيّ ( = "غير اللائق". وإن كان موضعه الطبيعيّ قبل الاسم).



مدّ يده اليمنى؛ وشكّلها على طريقة الخطباء. ثانياً إصبعها الأسفلين. ومبرزا بقية الأصابع ورافعا برفق سبّابته، وأنشأ يقول: × "انطلقت من ميليتوس\* وأنا لا أزال في طور الكفالة لمشاهدة الألعاب الأولمبية فعنّ لي أن أزور كذلك هذه الربوع من إقليمكم ذائع الصيت. وبعدهما جبت أرجاء تسالية وصلت جراء طيور نحس إلى لاريسة\*؛ وفيما رحّت أنقلّ باحثا، بعد نضوب مواردني، عن كلّ وسيلة لتخفيف عُدمي. شاهدت وسط ساحة شيخا فارح القوام × قد اعتلى صخرة يهتف بصوت جهوريّ معلنا أنّ لمن يرغب في حراسة ميّت أن يراجعه حول الأجر. فسألت أحد المارة: "ما معنى ذلك؟ أمن عادة الموتى في هذا البلد الفرار؟" × أجابني: "اسكت! واضح أنّك غلام غشيم، وغريب بلا شكّ، وتجهل أنّك في تسالية\* أين تتمرّع السواحر وجوه الموتى حيث يجدن مستحضرات وصفاتهنّ السحرية."

### 2-22 حراسة الموتى

رددت سائلا: "قل أرجوك في ماذا تتمثّل حراسة الموتى التي ذكرت". فأجاب: "أولا يجب أن يظّل الحارس متيقظا ومنتهبا كامل الليل، فاتحا عينيه باستمرار ومركّزا على الجثمان وألا ينشغل باله عنه بأيّ شيء سواه ولو بلفتة لأنّ أولئك السعالى المريدات يغيّرن أشكالهنّ إلى أيّ حيوان شئّن ويزحفن متسلّلات حتى ليخفين عن عين الشمس أو ربة العدالة\*. يتقمّصن أشكال طيور وكلاب وفئران بل وحتى ذباب ويغرقتن الحراس في نوم عميق بأخذاتهنّ. ولا أحد يستطيع أبدا أن يعرض باستيفاء كلّ ما يستنبطن من الحيل لتحقيق غاياتهنّ. ثمّ إنّ الأجر المقدم لهذا العمل لا يتعدّى

أربعة أو ستّة مثاقيل\*. وي! اعلم أيضا وهو ما كدت أغفله أنّ من لا يعيد الجثمان في الصّباح كاملا لأهله مجبر على ترفيع ما أنلف أو أنقص منه بخزعة ماثلة تُفتطع من وجهه."

### 2-23 مع أرملة الفقيّد

بعدهما علمت بكلّ ذلك، استجمعت شجاعتي وتقدّمت من المنادي قائلا: "توقّف! أمامك حارس على أتمّ الاستعداد؛ فقل لي أجرك؛ ردّ: "ستعطى ألف درهم، لكن مهلا يا فتى! احتط جيّدا لحراسة الجثمان من أولئك الحرباوات\* الدواهي، فإنّه لابن أحد أعيان المدينة." قلت: "خرافات تروي لي ومحض سخافات! أمامك رجل من حديد لا يعرف جفنه الغمض، أحدّ بصرا من لنكيوس\* نفسه أو أرغوس\* كلّه أعين يقظى." ما كدت أتمّ قولتي حتى قادني إلى بيت أوصد بابه، فدعاني إلى الدخول من باب خلفيّ صغير، واقتادني إلى غرفة أغلقت نوافذها ورائت عليها العتمة، فأشار إلى امرأة محزونة الفؤاد تلبس ثوب الحداد، قال وهو يقترب منها: "ها قد حضر رجل استؤجر لحراسة زوجك بكلّ أمانة." فأزاحت خُصل الشّعير المتدلّية أمام محيّاها، كاشفة عن وجه لم يح الأسى نضرته، وقالت محوّلة إليّ نظرها: "أحرص، أرجوك، على أداء مهمّتك بأتمّ اليقظة". فأجبت: "لا تشغلي بالك يا سيّدي، حصّري فقط مكافأة مناسبة."

### 2-24 جرد بالمستلمات

اتفقنا ونهضت فقادتني إلى غرفة أخرى. هناك أماطت بيدها اللّحاف عن جثمان مسجّى بأكفان فاخرة، بعدما أدخلت

سبعة شهود، وأخذت تذرف فوقه الدموع طويلا، وتعرض أعضائه تفسلا، وتستشهد الحضور؛ وقد سجل أحدهم مسبقا بنود ذلك الجرد بالصيغ المعمول بها على ألواح أُعدت خصيصا للغرض. قالت: "هذا الأنف كاملا وتان العينان صحيحتين والأذنان سليمتين والشفتان وأفيتين وهذا الذقن تمًا بلا نقصان، فاشهدوا أيها المواطنين الأفاضل!" ولم تنته من قولها حتى خُتمت الألواح وانصرفت. قلت عندئذ: "مُري يا سيديتي بأن يُجلب لي كل ما يلزم." ردت: "ماذا تحديدا؟" أجبت: "مصباح كبير، وما يكفي من الزيت للإضاءة حتى الفجر، وماء ساخن مع نياطل من التبيذ، وقدر، وصينية محملة ببقايا عشاء." فهزّت رأسها وقالت: "اغرب عني أيها المجنون! تطلب عشاء ومخصصات في بيت مفجوع لم يُر به دخان منذ أيام. أتحسب أنك جئت للقصف؟" × نظرت وهي تقول ذلك إلى خادمة وقالت: "مُرّنة\*، اجليي حالا مصباحا وزيتا وأفليي باب الغرفة على الحارس وانصرفي فورا."

### 2-25 سبحان من لا ينام

هكذا أُفردت لمؤانسة الجثمان، ففركت عيني طويلا وسلّحتهما لمقاومة التعاس. ثم مضيت أثبتت قلبي مدننا بالأغاني. إلى أن حلّ غبش الغروب، فغسق الليل الساجي فالليل الداجي ثم هدأ الليل الهاجع، ثم همود الليل الخاشع، ومع تلبّد الظلمة ادلهمت رهبتي. فجأة، تسلّلت إلى داخل الغرفة نمس انتصب قبالي وحرجني بنظرة شزرأ، فطار قلبي شعاعا من فرط ثقة ذلك الحيوان الصغير بنفسه، ثم خاطبته: "إليك عني أيتها الخشاشة النجسة، هيا اختفي عند أمثالك من الجرذان

قبل أن تخبري بطشي السريع! هلاّ ارتحلت؟" × فأدار ظهره واختفى لتوّه من الغرفة؛ وإن هي إلاّ لحظة حتى ألقى بي نوم عميق في غياهب هاوية سحيقة، حتى أنّ إله دلفي\* نفسه ما كان ليميّز من متنا نحن الاثنين الممددين أكثر إيفالا في هجوع الموت. فقد كنت هامدا وبحاجة إلى حراسة غيري، وكما لو لم أكن موجودا هناك.

### 2-26 المكافأة

وما لبث أن علا، مؤذنا بانسحاب جحافل الليل مؤقتا، صياح كتيبة المقنزحات، فأفقت أخيرا وهرعت، وقد تمّلكني هلع شديد، إلى الجثمان؛ فقرّبت منه الضوء وكشفت عنه، وأخذت أتفحص بالتفصيل ما أناني بالجملة، وإذا بالزوجة المنكودة تدخل باكية مع شهود البارحة وفي الحال تنكبّ مبجلة على الجثمان فتضمّه طويلا بحرارة، ثم على ضوء المصباح تستعرض كل أعضاءه، ثم تلتفت وتطلب وكيل أعمالها فيلودسبوتوس\*. فتأمّره بأن يسلم في الحال للحارس الأمين أجره بالتمام والكمال، وتخاطبني بعد أن سلّمه: "لك متنا، أيها الفتى، جزيل الامتنان؛ وإنّا لنعدك من الآن، وحقّ هرقل، أحد خلصائنا جزاء خدمتك المثلى." رددت وأنا أنهلل فرحا بهذا المكسب غير المؤمل مشدوها بالقطع الذهبية التي رحت أقلبها بين يدي: "بل قولي أحد أتباعك يا سيديتي؛ وكلّما رغبت في خدمتي مُري بفائق الثقة." ما كدت أقول ذلك حتى انهال عليّ رجالها، متطيرين من فآلي المشؤوم، مدججين بالعصيّ وكلّ ما وقع تحت أيديهم. هذا يهشّم بلكماته فكّي، والأخر يدقّ بزنده كتفي، وذاك يطلق قبضتيه الفتاكتين في

جنبتي ويشب عني ركلا ويقلّع شعري ويمزّق ثوبي. ثمّ طردت من البيت ممزّقا مخزّقا كذلك الفتى الأونّي المتغطرس أو كذلك الموسيقار المعلّم المغرور(1).

### 2-27 تهمة خطيرة

بينما أنا في ساحة قريبة ألتقط أنفاسي وأستعيد بتأخير أقوالي النحسة الطائشة. موافقا على أنّي كنت أستحقّ زيادة عمّا نلتُ جُلدا كثيرا. × إذا بالميت قد أخرج من البيت بعدما بكاه زووه ونادوه. وبصفته واحدا من الأشراف نظّمت له وفق عادات البلاد جنازة رسميّة سارت تشقّ مركز المدينة. فبرز شيخ يلبس السّواد. يكي في انكسار ويمزّق شعره الأشيب الوقور: فأمسك النّعش بيديه وقال بصوت متهدّج يقطّعه الشّهيق: × "أناشدكم أيّها المواطنين بالأمانة ورباط المواطنة أن تنصّدوا لقتل مواطن. وتنتقموا بصرامة من تلك المجرمة الغادرة. عقابا على جرميتها المنكرة. هي. ولا أحد سواها. قتلت بالسّم ابن أختي هذا الفتى المنكود بسبب علاقة زنا وطمعا في الميراث(2)". وأخذ ذلك الشّيح ينتقل من واحد إلى آخر. باثا شكواوا المؤثّرة: فأثار شيئا فشيئا نعمة الجمهور ودفعتهم استلاحة الوقائع إلى تصديق التّهمة. فعلت أصواتهم تطلب النّار وتلتمس الأحجار وخرّض ضدّ الرّوجة الصّغار. بينما أصرت هي على إنكار الجريمة.

(1) الأونّي: بنبوس ملك طيبة بعد مؤسّسها قديموس جدّه لأمه. رغم إنذار العرّاف تيرسياس لم يعترف بالوهمه ديونيسوس لما قدم إليها في صورة إنسان بعد رحلته الآسيويّة. فمزّق خطأ على أيدي أمّه وأخواتها. المعلّم المغرور الموسيقار لينوس ابن كليوبه رته الشعر الغنائيّ قتله أبولون لنطاوله أو تلميذه هرقل لضربه.

(2) اتّهام الرّوجة: في "المرافعة" 2 توجّه لأبوليوس تهمة قتل ربيبه بنتيانوس طمعا في الميراث.

مقابلة وعيدهم بدموع مهيبّة ومقسمة بأفدس المقدّسات.

### 2-28 إحضار العرّاف المصري لمعرفة الحقيقة

إذّاك هتف الشّيح: "لنحتكم إذن إلى العناية الإلهيّة لتبيّن الحقيقة: يوجد بيننا زتكلاس العرّاف المصري القدير الذي اتّفق معي قبل قليل. مقابل مكافأة ضخمة(1). على إعادة التّروح لمدّة وجيزة من العالم السّفليّ وإحياء الجسد واستدراك الموت إلى حين." قال ذلك وقاد إلى وسط الجمع فتى حليق الرّأس يلتحف إزارا من الكتّان وينتعل خفّين من السّعف. فلثمّ يده طويلا وتمسّح بركبتيه قائلا: "حنانيك أيّها العرّاف! ناشدتك بنجوم السّموات. وبألهة العالم السّفليّ. وبالعناصر الطّبيعيّة. بخشوع اللّيل وحرمة المعابد القبطيّة. بفيضانات النّيل وأسرار آلهة منفيس\* وصنّاجات جزيرة فاروس\*. هب هاتين العينين المغمضتين إلى الأبد نعمة الشّمس برهه. لا اعتراض لنا على حكم الصّورة. ولا ننازع الأرض ملكها؛ وإثما نسأل ضارعين نزرا من الحياة علّنا نجد في الثّار من الجاني شيئا من السّلوان." رقّ العرّاف لحاله فوضع عشبة في فم الميّت وأخرى في صدره. ثمّ ولّى وجهه قبل المشرق ملتمسا في صمت بركات الشّمس المتهدّية في مهابة وجلال. فأثار حماس الحضور الذين اشترأوا متزاحمين يرتقبون الآية الكبرى.

### 2-29 بين الميت وأرملته

اندسست داخل الحشد وارتقيت صخرة عالية بجانب النّعش

(1) مقابل مكافأة ضخمة: إشارة فيها تعريض بالسّحرة والمشعوذين والعرّافين. في نفس الوقت هناك. في هندام العرّاف وابتهالاته. إرهاص بعبادة الإلهة إيزيس التي سيعرضها في الكتاب 11

مباشرة، وأخذتُ أتطلع بعينين ملؤهما الفضول إلى كل أعضاء الميت. وما هي إلا لحظة حتى شال صدره انتفاخ، وهز عروقه نبضان، وسرت في كامل جسمه الحياة، ونهض الجثمان، وتكلم الفتى. "لم أعدتني بحق السماء بعدما شربت كؤوس ليثية\*(1) وانطلقت سابحا في مستنقعات إستكس\* إلى متاعب الحياة الفانية؟ كفى أرجوك! دعني في راحتي الأبدية!" بهذا تكلم الصوت الصادر من الجسم؛ لكن العزاف قال بشيء من الحدة: "ألا تكشف للشعب بالتفصيل أسرار موتك بالأحرى؟ أولا تظن بوسع صلواتي إحضار جنّيات النّعمة\* ولي أطرافك التعبى؟" × فردّ الميت من النّعش متوجّها إلى الجمهور في زفرة عميقة: "لقد أردتني مكائد زوجتي التي مضى قليل على اقتراني بها، وحكمت عليّ بكوب مسموم فتركتُ فرلشي الذي ما زال دافئا لعشيقها." إذّاك استجمعت المرأة الفاضلة شجاعته وبلا وجل من انتهاك حرمة الموت راحته جادل زوجها؛ فضجّ الشعب وتباينت الآراء بين حاكم بدين المرأة الفاجرة حيّة مع زوجها في الآن، ومستقبح تصديق مزاعم الجثمان.

### 2-30. المفاجأة

لكنّ تصريح الفتى التالي حسم الجدل؛ إذ تنهّد مجدداً من أعماقه وقال: "سأفدّم لكم أدلة ساطعة على خالص صدقي، وأكشف ما لم يعلم أو يتظنّ يذكر أحد غيري." وتابع مشيراً

(1) كؤوس ليثية: Lethaea pocula في التّصّ يستخدم التّعت بدل الإضافة، ووجد نفس الأسلوب في مواضع أخرى ( مثلًا 2:19 حيوية رومية: Romana frequentia).

بإصبعه إليّ: "بينما كان حارس جسمي هذا الفتى البصير يضرب حراسة مشدّدة عليّ، حاولتُ ساحرات عجائز طامعات فيّ مسخن لهذا الغرض أنفسهنّ مغافلة بفضته المستمرة السهرى مرارا دون جدوى. أخيرا، وبعد ما ذررن في عينيه غبار التّوم وطمرنه في سبات عميق، أخذن ينادينني باسمي ولم يكففن إلا حين بدأت مفاصلي الهامدة وأطرافني الباردة تتململ في محاولات متخاذلة للاستجابة لأسحارهنّ. لكنّ هذا الشخص الحيّ في الواقع والميت بالتّوم(1) فقط، لأنّه سمّي، أفاق عند سماع اسمه جاهلا بالشّخص المعنيّ. فمشى تلقائيا كشبح بلا حياة، ورغم أنّ باب الغرفة كان مغلقا بإحكام جُدع من خلال ثقب فيه أنفه ثمّ الأذنان؛ فتعرّض إلى هذه المذبحة الاستبدالية مكاني. فليستدركن آثار خطئهنّ ألصقن له شمعا شكّل على صورة أذنيه المصلومتين شبها كاملا وجهّزن كذلك للأنف بديلا مائلا؛ والمسكين الآن هنا حاضر معنا، وقد نال ثمن جدعه لا جدّه." ما كاد ينهي قوله حتى سارعت هلعا إلى وجهي أتبيّنه؛ مددت يدي وأمسكت أنفي فتبعها وجذبت أذنيّ فانفصلتا، وإذا بالحضور يشيرون إليّ بأصابعهم ويلتفتون مومئين ناحيتي وينفجر مدويا ضحكهم؛ ففررت متسلّلا بين أرجل المتفرّجين المحيطين بي وعرق بارد يبلّلسني. بعدما صرّت مسخا مضحكا بهذا الشّكل لم أستطع العودة إلى بيت آبائي وأهلي بل أطلقت شعري على الجانبين لأعطي ندبة الأذنين، وأخفيت خزي أنفي بما يكفي

(1) الميت بالتّوم: التّوم موتة صغرى. انظر القرآن الكريم 39:42 وجلال الدّين التّومّي: اسبب جانها را كند عاري ززين/سرت التّوم أخ الموتست أين (إنّ معنى الموت في التّوم مبان/ وخفاء الموت في التّوم عيان).

بالصاق هذا اللثام عليه بإحكام" (1).

### 2-31 تجديد دعوة برينة

ما إن انتهى تليفرون من رواية هذه القصة حتى عاد الندامي المترعون خمرا إلى الضحك؛ وبينما تعالت أصواتهم مطالبة بشرب النوبة المعتادة على نخب ريسوس\* × توجهت إلي برينة قائلة: "يحلّ غدا يوم الاحتفال بتأسيس هذه المدينة لما كانت لا تزال في المهدي؛ ونحن وحدنا بين الناس نتقرب في هذا اليوم إلى الإله المعظم ريسوس\* بطقوس ملؤها الفرح والمرح؛ فلتجعلهُ بحضورك عندنا أبهج وأزهى. وحبذا لو استنبطت شيئا ظريفا من ابتكارك الخاص لتكرم هذا الإله علنا نسترضيه بنحو أفضل وأكمل": "أجبت: "حسنا، ليكن كما تأمرين؛ ألا ليت شعري هل أصيبتُ فكرة تليق به إني إذن لسعيد". ثم لم ألبث بعدما أخطرتني خادمي إلى تقدّم الليل أن نهضت تقنا بالخمير(2). وودعت برينة عجلا ثم توجهت إلى البيت مترنح الخطى ثملا.

### 2-32 صراع بطولتي

لكن ما إن سرنا في أول ساحة حتى أطفأت الريح المشعل الذي كنا نعتمد عليه فلم نتمكن إلا بشقّ الأنف من العودة إلى بيت مضيئي منهكين وأصابع أرجلنا مدماة من العثار على الأحجار والتخلص من ظلمة الليل الغرّار. فبينما نحن نقترّب منه

(1) شهادة الميت: هنا يستغفل أبوليوس قارئه إذ لا يرى كيف يدلّ ما حصل لتليفرون على خيانة الزوجة.

(2) بالخمير: crapula الكلمة تعني عند كتّاب متأخرين الطعام، كما في اعترافات القديس أغسطينوس.

مترافقين. لاح لنا ثلاثة صعاليك عراض غلاظ ينهالون بكلّ قواهم على بابنا. دون أن يخيفهم بتاتا وجودنا. بل كروا بقوى مضاعفة متنافسين في العنف. بحيث بدوا لنا، ولي خصوصا، لا بغير مبرّر لصوصا ومن أشرس صنّف. في الحال انتضيتُ سيفي الذي كنت أتقلّده تحت ثوبي تحسبا لمثل هذه الطوّاري، وبدون تردّد وثبتّ وسط اللصوص فأغمدته عميقا فيهم واحدا تلو الآخر لأسحق كلّ من يقاومني. إلى أن لفظوا أخيرا أنفاسهم أمام قدمي، مثنخين بجراح عديدة وبليغة. هكذا انتهيتُ من المعركة التي أيقظت ضجتها فوتيس. ففتحت البيت فدخلت لاهثا مرهقا. أتصّبب عرقا؛ وسلّمتُ نفسي. منهكا من صراعي مع أولئك اللصوص الثلاثة، سوغ قتل جريون\* (1). للفراش والنوم معا.

(1) قتل جريون: يشبّه لوقيوس بأحد أعمال هرقل\* الاثني عشر.

## الكتاب الثالث

### 3-1 الصّباح الجديد

ما لبثت أورورة\* ذات الصّفائح الأرجوانيّة أن ارتفعت على جيادها في السّماء نافضة ذراعها الموردة؛ فانتزعتني اللّيل من راحتني الأمنة وسلّمني للنّهار. ألّم بنفسني اضطراب وأنا أنذكر جناية البارحة؛ فجلست على السّرير ثانياً رجلتي، شابكا أصابع يديّ ضاغطاً بهما على ركبتيّ ورحت أذرف الدّموع، متمثلاً المحكّمة والمقاضاة بل الحكم وحتىّ الجلاد. "أيقئض لي قاض رؤوف رحيم إلى حدّ الحكم ببراءتي وأنا مضرّج بنجيع ثلاث مجازر، ملطّخ بدم كلّ أولئك المواطنين؟ أهذه هي الرّحلة الجيدة التي بشّرتني بها العرّاف ديوفانسس بإصرار؟" × بينما أنا أندب حظّي متسائلاً عن مصيري إذا بالباب الخارجيّ يُقرع بعنف وسط هرج ومرج.

### 3-2 إلى المحكّمة

في الحال فُتح البيت بعنف شديد، وامتلأت كلّ الأرجاء بقضاة وأعوانهم وخليط من الدّهماء؛ وعلى الفور ألقى

القبض عليّ فائسان(1) بأمر من القضاة وأخذنا يجزّاني. وأنا بتعقل ومطاوعة لا أبدي أيّة مانعة. ما إن سرنا في الرّفاق حتّى انصبّ السكّان في الطّريق العامّ، متجمهرين حولنا وتبعونا في ازدحام. ومع أنّي كنت أمشي حزينا مطرقاً، أنظر إلى الأرض بل إلى العالم السّفليّ. لاحظت وأنا أرمق من طرف خفيّ أمراً في منتهى الغرابة. فبين تلك الألاف من المواطنين المحيطين بي، لم يكن هناك أحد إلّا وهو يتلوّى من الضّحك. وبعدهما جابوا بي كلّ الميادين ولقّوا بي كلّ التّروايا كما يطوّفون على السّاحات العامّة قرابين الفداء، تكفيراً عن الخطايا ودرعاً لما أنذرت به خوارق من شرّ البلايا. أحضروني أخيراً إلى ميدان القصبّة أمام المحكّمة. في الحال اعتلى القضاة المنصّة وجلسوا؛ وطلب المنادي من الجمهور الصّمت؛ فجأة طلب الجميع بصوت واحد أن تجرى محاكمة بمثل تلك الأهميّة في المسرح. نظراً إلى كثافة الحشد المعرّض من فرط الاكتظاظ لخطر الحرق. فهورل الشّعب فوراً إلى المدرجات بفوضى واحتلّها بسرعة عجيبة كلّها. وغصّ بالزّحام حتّى المدخل وكلّ المنافذ. كثيرون متراصّون حول الأعمدة وآخرون متعلّقون بالتّمائيل وبعض تكدّسوا على الكوى والنّوافذ لا يرى منهم سوى جزء. والكلّ مع ذلك لحرصهم على المشاهدة مستهينون بالأخطار على سلامتهم.

### 3-3 عريضة الادّعاء

من مؤخّرة الرّكح هدر صوت المنادي يدعو المدّعي العامّ إلى

(1) الفانس: lictor يرافق القاضي ويحمل شارات.

الكلام؛ فنهض شيخ، وبينما مضت زجاجة تفيض من الماء المسكوب فيها قطرة قطرة من خلال أنبوب مستدقّ حمّله مكان العنق لتحديد مدّة كلامه (1). حيّى الشعب وقال: "أيّها المواطنين الأفاضل، ليست فضيّة الحال بالأمر الهين، بل تتعلّق أساساً بأمن مدينتنا كلّها، وستصلح مستقبلاً عبرة لمن يعتبر. لذا يتعيّن عليكم، فردياً وجماعياً وباعتبار الوظيفة السّامية المفوّضة إليكم أن تحرصوا على ألاّ يكون هذا السّفاح الأثيم قد ارتكب مجزته الوحشيّة دون أن يعاقب. لا تحسبوني مدفوعاً إلى الصّرامة بحوافز خاصّة إرضاء لغلّ شخصيّ؛ فأنا رئيس نوبة الحراسة الليليّة ولا إخال بوسع أيّ أن يطعن في يقظتي الحازمة إلى هذا اليوم، باختصار سأروي الواقع ذاته وما حصل البارحة بصدق وأمانة، في الهزيع الثّالث (2) تقريباً، بينما كنت أقوم بدوريّتي متفحّصاً من باب إلى باب كلّ شيء في المدينة بأكملها بمنتهى التدقيق، × رأيت هذا الشّابّ المتوحّش متشققاً سيفه ينشر الرّدى في غارة شعواء وثلاثة من ضحايا بطشه جُندلوا أمام قدميه محشرجين ومتشحّطين في دمائهم، اضطرب كما كان طبيعيّاً، إذ أدرك فداحة جرمه تلقائيّاً، وفرّ فوراً منسلاً تحت جناح الظّلام في بيت ظلّ مختفياً داخله اللّيل كلّه، لكنّي بفضل عناية الآلهة التي لا تسمح للمجرمين بالإفلات من العقاب، تدبّرت، بعدما انتظرت حتّى الصّباح على الباب،

(1) الإيذاء الموصوف: هو السّاعة المائيّة clepsydra التي كانت تُستخدم لقياس وقت الخطب.

(2) هزيع اللّيل: كان الرّومان يقسمون اللّيل إلى ستّة أجزاء، فالهزيع الثّالث هو حوالي منتصف اللّيل.

وقبل أن يهرب من بعض الطّرق المستترة، لأفتاده أمام قداسة محكمتكم الموقّرة، بين أيديكم إذن متّهم ملطّخ بجرائم قتل عديدة، متّهم ضُبط متلبّساً بالجريم المشهود، متّهم غريب؛ فأنزلوا على أجنبيّ بشدّة حكمكم على جريمة كنتم ستعاقبون عليها حتّى أحد مواطنيكم بصرامة."

#### 3-4 الدّفاع

قال متّهمي الفظيع ذلك ثمّ خرس صوته المرعب؛ فطلب منّي المنادي في الحال أن أبدأ إن كنت أوّد الرّدّ على تلکم الأقوال. لكنّي لم أكن أستطيع إذّاك سوى البكاء، لا نظراً وحقّ السّماء لعنف ذلك التّشهير بقدر ما هو بسبب تأنيب ضميري؛ أخيراً رددت بشجاعة ألهمنيها الآلهة: × "لا أجهل كم يصعب على متّهم بجرائم قتل، وقد عُرضت جثث ثلاثة مواطنين، وإن قال الحقّ واعترف بالوقائع تلقائيّاً إقناع حشد كهذا ببراءته، لكن إن منحنتني رحمتكم فرصة الإصغاء إليّ برهة، فسأثبت لكم بسهولة أنّي لا أواجه خطر الإعدام بوجه حقّ على إجرامي، بل بالخطأ! نعمة عنيفة على فعل حصل صدفة، نتيجة غضب مبرّر من أمر منكر.

#### 3-5 رواية المتّهم

بينما كنت عائداً من العشاء في ساعة متأخّرة نوعاً ما، وبي شيء من السّكر، وهو لا جرّم جرّم لمن أنكره، رأيت أمام باب بيت مضيّفي- فأنا نازل عند مواطنكم الفاضل ميلون- بعض اللّصوص العتاة يحاولون الدّخول ويجدّون خلخ الباب بنسفس

مفصلتيه، وبعدهما اقتلعوا المزلاج الذي كان مثبتاً بإحكام، شرعوا يتداولون حول قتل سكان البيت. انبرى أشدهم بأساً وأضحهم جثة يحترض الآخرين بهذه الأقوال: × "هيا بنا يا شباب، نهجم بعزم الرجال على التيام وقوة الأبطال: ليزل من قلوبنا كل تردد وكل تهيب؛ لنسل سيوفنا وليجب الموت أرجاء البيت. فأما التائم فلنحزروا وأما من يحاول المقاومة فلنجزز؛ فإنها ننسحب سالمين إن لم ندع بالبيت أحدا سالماً." اعترف أيها المواطنون الأفاضل، أي خوفاً على مضيي وعلى نفسي، واعتباراً لواجب كل مواطن صالح، هجمت على أولئك اللصوص الأذلين بسيفي الذي أصطحبه حسباً لأخطار كهذا لترهيبهم وتهريبهم. لكن أولئك الهمج المتوحشين لم يفرّوا، ومع أنهم رأوني شاهراً سيفي، قاوموا بجسارة.

### 3-6 مرافعة مقنعة

اصطفوا للمعركة؛ فهجم عليّ القائد عريف الآخرين بكلّ قواه؛ جذبني فوراً بكلتا يديه من شعري، ولوانني إلى الوراء مزمعا سحقي بحجر أوعز بإحضاره، لكنني في الحين جندلته بيد واثقة؛ ثم سدّدت لأخر تعلق بعنت برجليّ ضربة شقت كنفه؛ وأرديت الثالث المندفع نحوي بدون تبصّر بطعنة في الصدر. هكذا حفظت النظام وحملت بيت مضيي والأمن العام؛ وكان ظني لا أن أجو من العقاب فقط، بل أن أنال الثناء الرسميّ كذلك، أنا الذي لم أطلب للقضاء أبداً بأقلّ جنحة، بل كنت مقدّراً عند مواطنيّ دوماً أوتر الاستقامة على كلّ المزاي. لا يمكنني حقاً أن أفهم لماذا أواجه الآن لانتقامي المشروع من أولئك اللصوص

الأشرار غضبا للحقّ، بينما لا يمكن لأيّ كان إثبات وجود أية عداوة خاصّة بيننا مسبقاً، بل ولا حتى معرفة لي بهم من قبل مطلقاً، ولا أيّ غنم قد يُظنّ أنّ رغبتني فيه دفعنتني إلى مثل تلك الفعلة."

### 3-7 تأثير المرافعة غير المتوقع

قلت ذلك وعدت أذرف الدموع، ومددت يدي مستدراً رافة الشعب، مناشداً في ضراعة بأئسة تارة هؤلأء وتارة هؤلأء باسم أغلى ما لديهم، ولما بدا لي أنهم قد اهتزوا شفقة، وتأثروا رثاء لدموعي، أشهدت أعين الشمس والعدالة\*، وفوّضت أمري لعناية الآلهة. ورفعت بصري قليلاً فرأيت الشعب كلّه لا يتمالك نفسه من الضحك، حتى مضيي ووالدي الفاضل ميلون يتلوّو ليحبس ضحكة كبرى. إذك قلت لنفسني: "يا لوفاء ويا لنقاوة الضمير! أنا أقتل من أجل سلامة مضيي وأحضر كمتهم بجناية قد تكلفني رقبتي، وهو لا يكفيه امتناعه عن منحي عزاء المساعدة، بل يضحك فوق ذلك ملء شذقيه من نكبتني."

### 3-8 النطق بالحكم

في تلك الأثناء هرعت إلى وسط المسرح امرأة باكية متشحة بالسواد، حملت في حضنها صغيراً، وخلفها عجوز متخافقة الأطمار تبكي بحزن مثلها، وكلتاها تلوّح بغصن زيتون. فوقفتا على جانبي الفراش حيث سجّيت جثث الفتلى، وقالتا باكيتين ملتدمتين: × "باسم التراحم بين المواطنين وحقّ الإنسانيّة المشترك، ارحموا هؤلأء الفتية المغدورين ظلماً، وقدموا لثكلنا



ووجدتنا العزاء بالثأر لهم. أغيثوا على الأقل هذا الصغير الذي ترك منذ نعومة أظفاره بدون مورد وقدّموا دم هذا السّفاح كقّارة لقوانينكم والنّظام العامّ. "ثمّ قام القاضي الأكبر سنّاً وخطب الشّعب بهذه الأقوال: "إنّ الجريمة المطلوب عقابها بحزم لا يستطيع الجاني نفسه إنكارها، لكن بقيت مسألة فرعيّة واحدة تشغلنا هي البحث عن مواطنيه في جرم بهذا الحجم، فمستبعد أن يكون شخص بمفرده قتل ثلاثة شبّان بمثل قوّتهم؛ لذا يجب كشف الحقيقة بالتعذيب. فقد فرّخفية غلامه الذي كان يرافقه ووصلت المسألة وضعا لا بدّ فيه من تعذيبه ليُقرّ على شركائه، ويُجنّت من الأساس إرهاب هذه الفئة الباغية."

### 3-9 القلب

في الحال أحضروا وفق عادة اليونان النّار والدّولاب وشتّى أنواع السّياط والقضبان. وزاد حقّاً بل ضاعف حزني ألاّ يُسمح لي على الأقلّ بالموت كامل البدن. لكنّ تلك العجوز التي أفسدت كلّ شيء بدموعها قالت: "أيّها المواطنون الأفاضل، قبل أن تسمّروا على الصّليب هذا المجرم قاتل بنيّ البائسين، انذونا بكشف جثث المغدورين، × ليذكي مرأى بهائهم وشبابهم جذوة الاستنكار المشروع أكثر وأكثر أمام وحشيّة جرمه الشّنيع." فهتف النّاس لهذه الأقوال، وأمّرتني القاضي في الحال بالكشف بيدي عن الجثث المطروحة على الفراش. وبأمر من القضاة لفسري أمام تمّعي العنيد عن إعادة جرمي السّابق بكشفه من جديد، اجتذب فائسان عنوة يدي المقبوضة إلى جنبي حتّى كادوا يخلعونها ومدّوها فوق الجثث. فاستسلمت أخيرا مكرها لحكم الصّورة.

وعلى ماض أمطت اللّحاف لكشف الجثث. يا آلهة السّماء! ماذا أرى؟ أيّة أعجوبة هذه؟ أيّ منقلب مفاجئ من مقالب حظّي؟ كنت في عداد متلكات بروسرينة\* وماليك أركوس\*. فإذا بي أنسّمر بغتة مشدوها حيال صورة مختلفة. لا يمكنني حقّاً أن أفسّر سرّ المشهد الجديد بألفاظ مناسبة، إذ كانت جثث قتلاي ثلاث قرب منفوخة مرقّشة بثقوب شتّى وفاغرة حسبما أذكر عن معركة البارحة في نفس المواضع حيث طعنت أولئك اللّصوص.

### 10-3 جبر الخواطر

إذّك انفجرت بحريّة تلك الضّحكة التي احتبسها البعض بمكر إلى حين وسرّت في الشّعب كاللّهب: هؤلاء يقرقرون من فرط بهجتهم، والآخرين يشدّون بأيديهم على بطونهم لتخفيف ألهم؛ ثمّ انصرف الجميع من المسرح في انشراح وملقين عليّ نظرة استملاح. أمّا أنا فحالما سحبت الغطاء تسمّرت كالحجر باردا كالجليد، لا أختلف في شيء عمّا في المسرح من التّمائيل والعواميد. ولم أطف من العالم السّفليّ قبل أن يقترب منّي مضيّفي ميلون ومدّ إليّ يده ويجزني بقسر رقيق (1). وأنا أمّنع و يطفر دمي مجددا ويرجع شهيق. وإذ لاحظ خلّو الطّريق التي قادني عبر منعرجاتها إلى بيته، طفق يسألني بشتّى الأحاديث، وأنا مكروب بل وحتّى ذلك الوقت مخضوض. لكنّه لم يستطع بحال تخفيف غيظي الكظيم من تلك الإساءة في صميمي.

### 3-11 تكريم

وإذا بالقضاة أنفسهم يدخلون البيت فجأة، وهم يحملون (1) بفسر رقيق: clementi violentia تضادّ لفظيّ oxymoron لتأكيد المعنى.

شاراتهم، فيهيبون بي محاولين تطيبب خاطرني: "لا جُهل أتيها السَّيد لوقيوس علوِّ مقامك وكرم أرومتك؛ فقد طوى أرجاء مصرنا شرف أسرتك الشَّهير(1). وما لضرَّتكَ تعرَّضتَ لما تشكو بشديد التَّأثر: فأجل عن صدرك الهَمُّ وأزل عن نفسك الغمَّ. فهذه الدَّعابة التي نحييها عاما بعد عام بمشاركة كافَّة المواطنين احتفالا بالإله ريسوس\* الحميد تزدهر دوما بكلِّ جديد مبتكر. ويرافق هذا الإله مبتدعه ومثله في كلِّ مكان مسبغا عليه بركاته وألطافه؛ ولا يرضى أبدا أن تبخع نفسك أسفا وبسرا. بل ليُطفحن محيَّاك دوما بشاشة وبسرا. هذا وقد قدَّمت لك مدينتنا اعترافا بفضلك أمجادا ساطعة، فسجَّلتك ضمن حُماتها وقرَّرت إقامة تمثال لك من البرنز." فرددت على خطابهم: "سأكنَّ لك يا زهرة مدائن تسَّالية\* ودرَّتْها اليتيمة عرفانا يوازي هذا الشَّرف الرَّفيع. وإن كنت أرى من الأفضل تخصيص التَّمائيل والصُّور لمن هم أجدر منِّي وأعظم شأنًا"(2).

### 3-12 إلى الحَمَام

قلت ذلك بأدب، وبعد قليل ودَّعت القضاة عند انصرافهم بلباقة تطلق الأسارير ومحاولا قدر طاقتي أن أظهر مزيدا من الابتهاج. في نفس اللحظة دخل الخادم مهرولا وقال: "أمك بريئة تطلبك وتنبِّهك لاقتراب موعد المأدبة التي وعدتها البارحة في

(1) شرف أسرتك الشَّهير: inclitae vestrae familiae nobilitas قلب hysteron proteron أو anastrophe/ anaphrase فالأصح "شهرة أسرتك التَّييلة".

(2) التَّمثال: حظي أبوليوس نفسه بهذا التَّكريم في حياته. من قرطاج ورمًا مدن أخرى. وفي "المرافة" 14 و"المنتخبات" 16 ما بيِّن حساسيَّته نحوه. كذلك وبعد قرنين حدَّث أغسطينوس عن تقدير سكان قرطاج له.

آخر السَّهرة بحضورها. "فرددتُ وقد دبَّت فيّ فشعيرية من الخوف والتَّفور من بينها: "لكم أوّد يا خالة الامتثال لأوامرك لو أتيح لي أن أفعل دون إخلاف عهدي. فقد تدبَّر مضيي ميلون لأشراكه عشائه مقسما بعزّة ربِّ هذا اليوم فلا هو يبرح بيته ولا هو يقبل أن أخرج؛ فلنؤجِّل إلى مناسبة أخرى تعهدي بحضور مأدبة الليلة." جذبني ميلون بيد حازمة قبل أن أنهي كلامي. وقادني إلى حمّام قريب بعدما أمر بإتباع لوازم الحمّام؛ فما فتئت أمشي ملتصقا بجانبه مستخفيا. خاشيا لأعين النَّاس وهربا من صحك المارة الذي صنعت أنا نفسي. فمن خجلي لا أذكر كيف اغتسلت وتنشَّفت. ولا كيف عدت إلى البيت؛ إذ بقيت ذاهلا شاردا الدَّهن وأنا مرمى عيون الجميع وغمزاتهم وإشاراتهم.

### 3-13 زيارة فوتيس

تناولت بعجل عشاء ميلون الهزيل. ثم استرخصته في الدَّهاب إلى فراشي. متعلِّلا بصداع شديد سبَّبه لي الدَّموع الغزيرة. فحصلتُ على إذنه بسهولة وانصرفتُ؛ وأخذت. وأنا مستلق على سريري، أستعيد مكسوف الخاطر الأحداث بالتَّفصيل. حتَّى أتت حبيبتي فوتيس أخيرا. بعد إيواء سيِّدتها إلى فراشها وقد تغيَّرت كثيرا؛ لم تكن تتكلَّم بمحيَّاه الضَّحوك ولهجتها الفكهة، بل بجِدِّ وجههم وقد علت جبينها الغضون. فاتختني في تردّد ووجل: "أعترف من تلقاء نفسي أتّي أنا التي تسبَّبت لك في ذلك الكدر." قالت ذلك وأخرجت من حضنها سيِّرا. ثم واصلت وهي تمده إليّ: "أمسك أرجوك وانتقم من امرأة غادرة بل سلَّط عليها أيّ عقاب أقسى؛ لكن لا تحسبني أرجوك.

دبرت لك ذلك الحرج عمدا؛ حاشا للآلهة أن يمسك بسببي أدنى أذى. بل أهريق دمي فداك إن رفقت عليك ضراء؛ فإنما ارتدت عليك لسوء حظي ما أمرت بفعله لغرض آخر."

### 14-3 أدب الألفة والألف

استفاد إذك فضولي المعتاد ورددت متحرقا إلى اكتشاف سر ما حصل: × "شاه السير شتر الأشياء وأسفهاها ذاك الذي تعدد جلدك. لألا شينه تشربا وتفتيتا قبل أن يمس بشرتك البضة الغضة. لكن، بصدق، خبريني أرجوك، أي ارتباك جم عمّا فعلت فرده وبالا عليّ؟ أقسم برأسك الغالي أنني لا يمكن أن أصدق أحدا. ولا حتى أنت نفسك، إن أكد لي أنك فكرت أبدا في الحاق آية أذية بي، إن النتيجة العرضية غيرالمطابقة بل حتى المضادة للقصد لا تجرم ذا النوايا الطيبة" (1). ما أنهيت كلامي حتى انكفأت على عيني حبيبتي الخضلتين الرامشتين الذابيتين صباة أغمرهما بقبلائي الحزى وأنهل بنهم منهما.

### 15-3 أسرار بنفيلة

قالت وقد استعادت بهجتها: "اسمح أولا أن أوصد باب الغرفة جيّدا مخافة أن أرتكب بتفلت لساني النزق ناكث العهد مخزية كبرى." قالت وعشقت المزلاج بسكته وأولجت في القفيز في نهايته، ثم عادت إليّ فطوّفتني بكلتا يديها وقالت بصوت خفيض بل كتيهم تماما: "أخاف وأفرق من كشف خفايا هذا البيت

(1) الأعمال بنواياها: فكرة جدها عند أبولوس في "الرافعة" 48 و"المنتخبات" 20 كذلك. وكذلك في "اعترافات" القديس أغسطينوس 3: 9 وفي الحديث الشريف وهي إحدى أسس أخلاقيات كنط.

وإفشاء أسرار سيّدي. لكّتي أشيم فيك وفي نهج حياتك مخايل الخير؛ فإنك، فضلا عن كرم المنبت وتسامي التهي، تعلم، أنت المطلع على عديد الأسرار المقدّسة، واجب الكتمان المقدّس. لذا أرجوك أن تحفظ طيّ الكتمان ما أستودع محراب فؤادك الطهور وأن تجزي سلامة طويّتي إذ أبوح لك به باستمساكك بسريّته. فحبي لك هو الذي يفرض عليّ مسارتك بما أعلم بمفردتي. ها أنت ستتعرف أوضاع بيتنا وستطلع على أسرار سيّدي العجيبة، التي تخضع بها أرواح الموتى، وتحوّل عن مساراتها النجوم، وترضخ الآلهة، وتسخر العناصر، وأنشط ما تكون في استخدام سلطان فنّها إذا رنت بوله إلى فتى بهي الشكل، وهو ما يحدث كثيرا لعمرى.

### 16-3 الشعر

هي الآن مفتونة بشاب بيوتّي\* رائع الحسّن شفّفها حبا، وتوظّف بحماس كلّ قوى فنّها وحيله (1) لاستمالتة. في الأصيل سمعتها، بأذنيّ هاتين سمعتها تتوعّد الشّمس نفسها، لأنّها لم تسرع انحدارها في السّماء وتعلّج بالإفساح لليل كي تمارس مكائد سحرها، بحجبها بضباب حالك وظلمات سرمدية. وقد لاحظت أمس صدفةً، عند إيابها من الحمّام، ذلك الشّابّ جالسا في دكان مزّين، فأمرتني باختلاس قبضة من شعره الذي اجتزّه المقرّاض وما زال ملقى على الأرض. وفيما

(1) حيله: machinas يستخدم أبولوس كلمة تعني الوسيلة الحربية وتتصل بعلم الآلة، الميخانيكا أو علم الحيل كما كان العرب يسمّونه. جد نفس اللفظة في "الرافعة" 97 في الحديث عن حيل رجل لتزويج ابنته.

أنا أجمعه بعناية وتخفّ، اكتشفني المزيّن، ولعلمه شيئا ما بما شُهر عَنّا من تعاطي الأسحار أمسكني وفرّعني بفظاظة: × "ألا تنتهين أخيرا يا خسيّسة عن اختلاسك المتكرّر لشعر من تنتقين من الشّبّان؟ إن لم تكفّي أخيرا عن هذا العمل الإجراميّ، فسأسلمك بحزم إلى القضاة"; وأردف الفعل بالقول، داسّا يديه بين نهديّ للتفتيش، فانزع مغضبا خصل الشعر التي أخفيتها، تأثرت بما حدث، وفكرت في طباع سيّدي التي اعتادت، من شدّة الغيظ لفشل كهذا، أن تضربني بقسوة؛ فأخذت أفكر في الفرار لكنني عدلت عنه في الحال لأنك خطرت ببالي.

### 3-17 مستحضرات سحرية

لكن بعدما انصرفتُ من هناك حزينة خشية أن أعود صفر اليدين لاحظتُ شخصا يجزّ بجلّم قريبا من جلد الماعز، ثم رأيتها مربوطة بإحكام ومنفوخة ومعلّقة، فالتقطت قبضات من شعرها الأشقر الملقى على الأرض والشّبيه بشعر ذلك الفتى، فحملتها إلى سيّدي مخفية عنها الحقيقة، هكذا منذ بداية الليل، قبل انسحابك من المأدبة، صعدت سيّدي بنفيلة بالشعر الذي جلبتُ لها وبها لهب وحرّ ومن الحبّ جنون مستمرّ، متنسّرة إلى سقيفة بجانب البيت المقابل، معرّضة للريح من كلّ صوب، مطّلة على الشّرق والجهات الأخرى سوّيا، تعوّدت المكوث فيها خفية إذ جعلتها مناسبة تماما لممارسة أفانين سحرها، فأقامت فيها بدءا، حسب إعداداتها المعتادة، مشغلها المشووم، الحاوي كلّ أصناف العقاقير، وصفائح تحمل طلاسّم مستغلقة، وما تبقي من حطام سفن منكوبة، × وأجزاء كثيرة معروضة من

جثث بُكيّت وأخرى دُفنت: هنا مناخر وأصابع وهناك دُسر علفت بها جذم من جثث مصاليب وهنالك دم قتلى محفوظ وجمجمة منهوشة انتزعت من أنياب الوحوش غالبا.

### 3-18 حلّ اللغز

ها هي بعدما تلتّ تعاويذ على أحشاء لم تبارحها اختلاجة الأنفاس، تسكب عليها أشربة شتّى، من ماء نمر، إلى حليب بقر، فمادّي جبل وبتع عسل، ثم تقدّم ذلك الشعر مضمفورا ومعقودا(1)، مع أنواع شتّى من البخور، لجذى متأججة لتأكله النّار، في الحال، بقوة السّحر القاهرة وجبروت القوى العمية المسخّرة، تستعير تلك القرب التي تطقطع جزها على الجمر مشوّبة، روحا بشريّة، فتحسّ وتسمع وتمشي وتأتي حيث تقودها رائحة شواء رفانها، وحاول، بدلا من الفتى البيوتّي\*، الدّخول، فتهاجم على بابنا، وإذا بك تصل فجأة، مخبولا بالخمور ومخدوعا بظلمة الليل الغرور، فتستلّ سيفك بعزم وتشهره كأياس\* في هياجه المسعور، لكن بينما مرّق هو في جنونه قطعانا من أغنام حيّة، أزهدت أنت بشجاعة أكبر بكثير أنفاس ثلاث قرب منفوخة من جلد الماعز(2)، فعانقتُ إذّاك فيك يا بطلي، بعدما جندلت العدا بدون لطفة دم، لا باتر رقاب بل باقر قراب."

### 3-19 طلب غزل

ضحكتُ من فكاهاة فوتيس ورددتُ مازحا بدوري: "أستطيع (1) معقودا: تُستخدم العُقد للعقد وجدها في كثير من الوصفات السّحرية، وقد جاء ذلك في سورة الفلق. (2) أزهدت أنفاس ثلاث قرب: تلاعب لفظي لأنّ exanimo تعني "قتل" وكذلك "أخرج النّفس" أو الهوا.

إذن، منذ هذه اللحظة، أن أعدّ هذا النَّصر باكورة مآثري، نظير أحد أعمال هرقل\* الإثني عشر. فإني أعدل بجثة جريون\* ثلاثية الجذوع أو قامة كربروس\* ثلاثية الرؤوس عددا مائلا من القرب القتلى. لكن لأغفر لك طوعا وبطيب خاطر خطأك الذي ألقاني في كُرب كبرى امنحيني ما أطلبك بأقصى مناي. أريني سيّدتك، وهي تعمل شيئا من علمها الخوارقي؛ بوّدي أن أراها عند استحضر الآلهة، أو على الأقل عند مسح نفسها. فإني أتقد رغبة في الاطلاع على السحر عيانا. وإن كنت أنت نفسك لا تبدين لي حقاً قليلة أو عديمة الخبرة بهذه الأمور. أدرك ذلك وأحسّه بكل وضوح، إذ تمسكينني، أنا الذي كنت في ما مضى أنكف عن أحضان النساء، عبدا راضيا برقي، لعينيك المزلزلتين ووجنتيك المتوردتين وشعرك الشعشعاني وشفيتك المتلظتين ونهديك المتأرجحين. حتى زهدت في بيتي وأهلي، وبّت لا أوتر شيئا على ليلتي معك."

### 3-20 الوعد

أجابت: "كم أودّ يا لوقيوس أن أمنحك ما خبّ؛ لكتّها، زيادة على جفاء طباعها، اعتادت الاختلاء بمفردها، بمعزل عن الجميع، لمزاولة أنشطتها السريّة. غير أنّي سأقدّم مطلبك على خوفا من الخطر، وسأجهد لتنفيذه، متحينة فرصة مواتية؛ لكن، كما قلت في البدء، أعط من جهتك هذا الأمر الخطير الأمانة والكتمان." هكذا بقينا نتسامر، إلى أن أيقظت الصبوة المتبادلة الشوق في روحينا وجسدنا معا. فنضونا كلّ ثيابنا وأطلقنا عارين أجريدين جماح الهوى المتلظي، حتى منّت فوتيس عليّ وقد

أخذ منّي الإغياء، بالخلوان المرجى، من جودها الفتّي المستديم؛ ثمّ سرّت في عيوننا الدّاوية من السّهر سنة من التّوم أخذتنا إلى سراة النّهار.

### 3-21 حوّل بنفيلة

بعدما قضينا بضع ليال نستنزل اللذات بهذا النّحو، هرعت إليّ فوتيس يوما منفعة والاضطراب باد عليها، فأخبرتني أنّ سيّدتها عازمة في الليلة التالية، لأنّ وسائلها الأخرى لم تقدّم شيئا في شأن حبّها، على اتّخاذ ريش والتّحوّل إلى طير لتطير إلى حبّها. وعليّ إذن أن أعتد لنفسي مرصدا آمنا لرؤية هذا المشهد الفريد، وعند حلول اللّيل، قادتني بنفسها خلسة إلى مقصورة السّقيفة وأمرتني بمراقبة ما يجري من شقّ الباب، ما لبثت بنفيلة أن جردت من كلّ ملابسها وفتحت سقفا عندها سحبت منه عدّة علب نزعّت سداة إحداها، فأخرجت منها على مرّات مرهما دهنت به كفيها طويلا ثمّ عرّكت كثيرا كلّ جسمها من أخمص قدميها إلى قمّة رأسها، وأسرت للمصباح بكلام كثير؛ ثمّ انتفضت فجأة، وهزّت أطرافها رجفات متتابعة، فمرنت وماعت ورخت، ونبت عليها زغب ناعم، ثمّ نما ريش أخشن، وتصلّب الأنف متقوّسا، وتبيّست الأظافر معقوفة، صارت بنفيلة بومة! فنعبت نعيبا عاليا ثمّ نطت من على الأرض عدّة نطات لاختبار طاقتها وبعد قليل طارت مرتفعة إلى أعالي الجوّ بأسطة جناحيها.

3-22 لوقيوس يريد تقليد بنفيلة

لقد مسخت حقاً نفسها طيرا ومحض إرادتها؛ بينما تسمّرتُ أنا الذي لم يفتني أيّ سحر مشدوها بما يجري أمام عينيّ، بل كنت أشبه إلى أيّ شيء مني إلى لوقيوس. كنت مصعوقا غير واع بما حولي، كمن به مسّ، غائبا، مفتحةً عيناى نائما؛ فأخذت أفرك جفنيّ وأعيد لأتأكد أنني في حالة اليقظة، أخيرا عدتُ إلى الوعي بما حولي، فأمسكتُ يد فوتيس وأدنيتهُا على عينيّ وقلتُ: × "اسمحي، أرجوك، ما دامت الفرصة تدعوني، بالاستفادة من ثمار مودتك العظيمة والرائعة، وبإعطائي شيئا من ذلك الدهان، بحياة نهديك ذبلك يا حلوتي؛ واضمني، بهذه المنّة التي لا تقدّر بثمن، أن أظّل عبدك إلى الأبد، واجعليني ألازمك كيويبدا\* مرفرفا حول فينوسى\*." ردت: "ماذا تقول ويحك، يا ثعلبان ويا زير النسوان! أتدفعني إلى أعمال فأسى في رجليّ بنفسي؟ بالكاد أحتفظ به وهو أعزل من ذئبات (1) تسّالية\* فأين ترى سأبحث عنه إن استحال طيرا، ومتى سأراه؟"

3-23 ويطمئن فوتيس

أجبت: "معاذ الآلهة أن أرتكب مثل هذا الجرم النكر، أن أمتنع، حتّى بعدما أخلق عاليا في السماء كالنسر، رسولا أمينا ليوبتر\* الأعظم أو حاملا لجنته بادي البشر، عن النزول أخيرا مرفرفا إلى وكري. أقسم بعقصة شعرك الحلوة التي سببت روجي بها أنّ أوتر على فوتيسى ما حبيتُ امرأة غيرها، ولقد خامرتني بالناسبة (1) ذئبات: ذئبة تعني في اللاتينية أيضا بغى، والمقصود هنا النساء صيادات الرجال عموما.

خاطرة: أنّ عليّ بعدما أذهن وأتقمّص هيئة الطير أن أجتّب كلّ دار؛ فلعمرك ما أظرف وما أبهى اليوم عشيقا تقضى الغواني منه وطرا، ألسنا نحرض على إمساك هذه الطيور الليلية كلّما دخلت أحد البيوت، وتسميرها على الباب، لتفتدي أسرتنا بعذابها من الخطر الذي يهددها به طيرانها المشؤوم؟ لكن، كدت أغفل سؤالك عمّا أقول أو أفعل لأخلع ذلك الريش وأعود لوقيوس من جديد." أجابت: "لا خوف عليك في هذا الباب، فقد علمتني سيّدتي بالتفصيل ما يعيد إلى الهيئة البشرية تلك الصور المسيخة، لا تظنّها فعلت ذلك طيبةً منها، وإنما ليتمكني ردها بالعقار الناجع سيرتها الأولى. انظر بأية عشيبات تافهة مهينة يؤمّن أمر بهذه الخطورة: قليل من الشبّيت مع أوراق من الغار مزوج في ماء نير، يعطى مغتسلا وشرابا."

3-24 حوّل لوقيوس

أكدتُ لي ذلك مرارا، وتسلّلت وهي في غاية الاضطراب داخل الغرفة وأخرجت علبة من الصندوق، فاحتضنتها وقبّلتها أولا داعيا أن تبارك طيراني، وبسرعة خلعتُ كلّ ملابسني ثمّ غمستُ يدي بلهفة، فاغترفت منها كمّية وافرة من الدهان دلكت بها كلّ أعضائي. ثمّ أخذت أرفرف بذراعتي كالطير في محاولات متتابعة؛ لكن لا ريش ولا زغب حتّى. بالعكس اخشوشن شعر بدني تماما إلى سبائب، وتيبّست بشرتي الرقيقة إلى جلد غليظ وفي أطراف أكمّي اتّحدت كلّ الأصابع في حوافر ونبت لي في العصعص ذنب كبير. ها أنا الآن بوجه ضخم وفم عريض وخيشومين فاغرين ومشفرين متهدّلين وأذنين مسبستين مع

نماء مفرط. ولا أرى لي من عزاء على هذا التحوّل التعيس سوى نموّ بعض أعضائي. وإن بتّ الآن عاجزا عن احتضان فوتيس الحبيبة.

### 3-25 الدّواء في تناول... الفم

أخذت أقلّب البصر ولا وسيلة للخلاص. في كلّ أعضاء بدني. فلا أراني طيرا بل حمارا (1). فأهّمّ بالشكوى ممّا فعلت فوتيس بي. لكنني سلّبت الحركة والصّوت البشريين. فما أستطيع سوى مطّ شفتي والرّنوّ إليها بعينين دامعتين. موجّها إليها شكاتي الخرساء. لما شاهدتني على تلك الصّورة لطمت وجهها وهتفت: "سحقا لي من شقيّة! أضلّني تعجّلي واضطرابي. وخذعني تشابه العلبتين. لكن. لحسن الحظّ يوجد علاج لتدارك هذا التحوّل بسهولة. ما عليك إلّا أن تمضغ شبيئا من الورد لتخرج من صورة الحمار وتستردّ فورا صورتك الإنسانيّة. فتعود لوقبوس حبيبي. ليتني أحضرت هذا المساء كعادتنا بعض أشرطة من الورد! ما كنت إذن لتنتظر ليلة واحدة! لكن. لا عليك. فأولّ مطلع

(1) التحوّل إلى حمار: اختيار الحمار الذي اقتبسه أبوليوس. يعود إلى قدرته على التّنقل وملاصقته للإنسان ممّا يسهّل كتابة رواية فيها عدّة مغامرات في أماكن شتّى أبطالها بشر. لكن قد تكون له دلالة فلسفيّة فالحمار في الدبّانة المصريّة القديمة رمز للحمق والشّر. بينما البومة في الميثولوجيا اليونانيّة/الرومانيّة طير أئينة/مينرقة إلهة الحكمة (في مقدّمة مبادئ فيلسفة الحقّ شدّه هيغل الفيلسفة "بطير مينرقة الذي لا ينطلق في الطيران إلّا في الليل". وفي إنجيل متى 3: 16 شدّه الرّوح القدس بحمامة. كذلك في التّراث الإسلاميّ كرسالة الطير لابن سينا وعينيّة ورسالة الطيور لأحمد الغزاليّ - أخ أبي حامد- ومنطق الطير لفريد الدّين العطار يُكنى بالطير عن النّفس وفي القرآن 16: 27 عن الحكمة وتفتن بنفس المعنى في قصّة الحمامة المطوّقة في "كليلا ودمنة". وتؤيّد ذلك قصّة بيسيحية اللاحيّة). وقد يفسّر ذلك أيضا الشّبه بين كلمتي حمار وطير في اللّغة اليونانيّة (أنوس وأرنطوس) واللّغة والميثولوجيا السّومريّة (أنسو وأنزو) إن صحّ أنّ للقصّة جذورا في ثقافات الشرق الأوسط. مسخه إلى حمار عقاب على فضوله سنهفهم سببه في الكتاب 11

النّهار أحضر لك الدّواء."

### 3-26 بداية طبيّة

هكذا مضت في تدمّرها: أمّا أنا فاحتفظت. رغم مسخي حمارا وخوّلي من لوقيوس إلى دابّة بكماء. بالإدراك البشريّ. فكّرت طويلا. متسائلا إن كان أحرى بي (1) أن أنهال على تلك الجريمة رفسا وعضّا حتّى أقتلها. لكنّ رأيا أصوب جعلني أعدل عن هذا المشروع المتهور. هو خشيتي أن أزيل إن عاقبت فوتيس بالموت كلّ ما يسعفني بالخلّاص (2). فدللت وقلقت رأسي وكظمت غيظي من هواني المؤقت راضحا للظرف العصيب: وذهبت إلى جانب راحلتي. جوادي الطيّب الوفيّ. في الإسطبل حيث وجدت كذلك حمارا آخر أوبا هناك (3). لميلون. مضيفي إلى عهد قريب. كنت أحمّن أنّ حصاني. إن كان للدّوابّ البكماء عهد فطريّ مضمّر. سيقدّم لي. بدافع الشّفقة والعرفان. القرى. مأكلا ومنزلا. لكن. وأيوبتر\* المضيف! ويا ربّة الوفاء\* المعتزلة عن عالم البشر! لقد تأمر عليّ الاثنان. زاملتي الوفيّة مع ذلك العير. مقربين رأسيهما. واتّفقا على إيذائي على الفور. ولخوفهما لا شكّ على علفهما. حالما رأياني أدنو من مذودهما. خفّضا أذانهما مغضبين. وأتبعوا ذلك برفسات نحسات. هكذا دُحرت عن الشّعير الذي وضعته مساء بيديّ لذاك الخادم الشّكورا!

(1) تساءلت إن كان أحرى بي: deliberavi an deberem مجانسة صوتيّة.

(2) سأزيل إن عاقبت فوتيس بالموت ما يسعفني بالخلّاص: مقابلة morte/ multata/supprias salutares وكان بإمكان أبوليوس كذلك استخدام جناس incepto inepto أي "مشروع الأخرق" عوض temerario. الإسطبل...أوبا: جناس مطلق stabulum/stabulantem.

3-27 تشيئة الاجتراع

لم يسعني إزاء معاملتي بذلك النحو ونبذي وإفرادي سوى الانزواء في ركن من الإسطبل؛ وبينما أنا أفكر في سفاهة زميلتي. وفي الانتقام من ذلك الحصان الجحود. غداً لما أعود. بفضل نور السورود. لوقيوس من جديد. X رأيت على المنتصف تقريباً من العمود المركزي الذي يحمل سقف الإسطبل تمثالاً للإلهة إيبونة\* منتصبا على منصته، زين بتفتن بأكاليل ورد جنّي بالتحقيق. راودني الأمل وأنا أتميز وسيلة خلاصي. فمددت جاهدًا قدر طاقتي قائمتي الأماميتين. وانتصبت بقوة مطّطا عنقي ومغطّيا مشفريّ إلى أقصى حدّ. واشترأبت بكلّ جهدي لالتفاف الأكاليل. لكن لنكد حظي رأني فجأة وأنا أحاول ذلك خادمي الذي اعتدّ أن أكل له تعهد حصاني؛ فنهض مستنكرا وصاح: X "حتّام نتحمّل هذا البرزون المتحرّش الساعة بعلف الدوابّ والآن بتماثيل الآلهة؟ X لأورثنّ مدّيس الأقداس هذا عرجا وعاهة مستديمة!"; والتفت فورا يبحث عن أداة لضربي. فعثر على حزمة حطب ووضعت بالصدفة هناك. فانتقى أغلظ ما فيها. شطّبة فلعاء كئاء. ولم يكفّ عن ضربي حتّى سمع الباب يُرَجّ في فرقة عنيفة وسط صخب شديد. والجيران يلغظون منبهين إلى اللصوص: ففرّ فزعا.

3-28 ثمّ ثالثة الأثافي

ما هي إلا لحظة حتّى فُتح الباب بقوة، واحتلت زمرة من اللصوص كلّ النواحي؛ فطوّقت مجموعة مسلّحة كلّ أقسام

البيت. وتصدّت بضراوة للممدد الذي هبّ للتجدة من كلّ صوب حركة الأعداء المحمومة. كانوا مجهّزين بسيفوف ومشاغل أضأؤوا بها الدجى فبرق كضوء الشمس سنا الشعل وفرند السيوف. ها هم يهبّون إلى مخزن مقام وسط الدار مغلق وموصد(1) بأمتن الرّجّ. بغصّ بكنوز ميلون. فيميلون عليه فيفلقونه بفؤوسهم الصّوارم. ثمّ. بعدما يهشّمون أقفاله. يخرجون كلّ الثروات. فيحزمونها بعجلة في رزم يتوزعونها. لكنّ كمّية الأحمال ربت على عدد الحاملين؛ فاضطّروا. وهم من وفرة الثروات المفرطة في أشدّ حرج. إلى إخراجنا نحن الحمارين وحصاني من الإسطبل. فحملونا رزما ثقالا إلى أقصى طاقة ممكنة. وأخرجونا متوعّدين بالعصيّ من البيت الذي بات خاليا. تاركين أحدهم ليراقب ويبأفهم عن مجرى التحقيق في الجريمة. وقادونا على شعاب جبليّة منعزلة موجفين علينا من هراواتهم بزخّات متتالية.

3-29 واقيصراه!

فمن ثقل الحمولة ووعورة انحناء الجبل وطول الطّريق أيضا صرت لا أختلف عن الميت في شيء؛ وخطر ببالي. بتأخير لا محالة لكن بجدّ(2). أن ألبأ إلى السّلاطات طالبا جدتها فأخلص نفسي من تلك المتاعب مستغيبا باسم الإمبراطور المبجل(3). حاولت

(1) مغلق وموصد: que "obseptum obseratum جناس ناقص استهلالتي.

(2) بتأخير لكن بجدّ: sero/serio جناس مختلف.

(3) باسم الامبراطور: قد يشير هذا إلى تاريخ كتابة الترواية. ففي الفترتين 161-169 و176-180 أشرك مرقس أورليوس معه امبراطورا ثانيا: "أخاه" وبيروس ثمّ ابنه كومودوس. ممّا يرّجح تأليفه في الفترة 169-176. لكنّ "حمارة" لقبانوس يشير هو أيضا إلى امبراطور واحد مع أنّ لا شيء يثبت أنّه هو ولا الأصل الذي



عند مرورنا بقرية حافلة بالسكان مشهورة بسوقها، وقد طلع النهار، أن أرفع عقيرتي، بين حشود الأهالي اليونان، نادبا بلسان البلاد اسم قيصر المعظم، فلهجت ب"وا" فصيحة وصيحة، لكنني عجزت عن نطق اسم قيصر المتبقي. فانهاهال اللصوص مستهجنين صوتي التكر التاشز على جلدي المنكود من كل صوب فتركوه لا يصلح بعد حتى غربالاً؛ لكن يوبتر\* هيأ لي أخيراً خلاصاً لم أكن أحلم به. فقد لحث، أثناء مرورنا بعدد من الضياع والمنازل الفخمة، حديقه غناء راققة، أبنعت فيها، بين أعشاب غضيرة نضيرة أخرى، ورود أبكار، تتلألأ بندى الصباح. اقتربت منها مرتعشا من الشهوة ومنتعشا بأمل الخلاص، يستخفني الفرح. وبدأت أمد شفتي المرتعشتين لتناولها حين عن لي رأي أسلم عقبي. فلو ظهرت بعد سلخ صورة الحمار لوقيوس مجدداً، لوجدت على أيدي اللصوص هلاكاً مؤكداً، سواء لارتياهم بممارستي السحر، أو لاشتباهم في نيتي الوشاية بهم. أمسكت عن الورود إذك عن اضطرار، متحملاً محنتي الحاضرة باصطبار، ورحت ألوك الكلاً كدأب كل حمار.

نفل منه ألف في نفس الفترة، ثم إن هذه الإشارة في عمل روائي لا تعكس بالضرورة واقعاً تاريخياً. من ناحية أخرى لا يشير أبوليوس ولا خصومه في "الرافعة" إلى الرواية (مع أهميتها كدليل لكلا الطرفين في مسألة اهتمامه بالسحر). ولا يذكرها بشكل صريح في "المنتخبات"، مما يؤيد أنها ألفت بعد 169. كذلك قد يشير حديثه عن "قاضي الناحية" في 6:1 إلى تأليفها في عهد مرقس أورليوس.

## الكتاب الرابع

### 4-1 في المرعى

قراصة الزوال ووهج الشمس على أشده، نزلنا ببلدة عند عجوزين من أصحاب اللصوص وخلصائهم. تشهد بذلك فعلاً وقدر ما يتاح لحمار إدراكه حفاوة الاستقبال والمحادثة الطويلة والقابل المتبادلة، فقد أنزلوا من على ظهري بعض الأمتعة وقدموها لهما وبوشوشات خفية بدوا كأنهم يبتنون لهما أنها نصيبهما من غنائم سطوهم، ثم حملونا، بعدما رفعوا عنا أحمالنا، إلى مرعى قريب لنعري طلقاء أينما بدا لنا؛ فلم تستطع صحبتي كمؤاكل للحمار ولحصاني شدي إلى الحشائش التي لم أعتدها حتى ذلك اليوم في حميتي، لكنني بصرت قرب الإسطبل بحديقة دخلتها، وقد أهلكني الجوع، بخطوة واثقة؛ فأقبلت على الخضر رغم نيوتها أكل منها بشاهية، وأجبل بصري في كل ناحية، مبتهلاً إلى جميع الآلهة علي أحد في الجنائن المجاورة مؤردة تسطع متألفة. كان خلوا المكان ذاته بمنحني ثقة، إن تناولت بمنأى عن الطريق ومخفى بالجنبات دوائي، فانتصبت مجدداً بلا راء، قائماً من وضع الدابة المحني إلى وضع

#### 4-2 يا وردة سطعت... وطاب أريجها

بينما أنا أتأرجح في بحر تلك الفكر، بصرت عن جنب بواد صغير تظلل غابة غلباء، تتألق بين أعشابه المتنوعة وخضرتة الضاحكة ورود متألئة حمراء، فأوحى إليّ فؤادي الذي لم يتلبّد كفؤاد البهيمه أو يتبلّد بأنه غاب مقدّس لفينوس\* وربّات التّواء\* تشعّ بين جوانبه المنعزلة الكمءاء وردة جذلي بسناها الملكيّ اللّلاء، فاستخرت إونتوس\* الرّضّي وليّ التّوفيق واندفعت في ركض محموم حتّى أحسستني بالتحقيق، لا حمارا وحقّ الآلهة بل فرس سباق أطلق بأقصى السّرعة، لكنّ روعة ذلك المجهود لم تغلب رعونة حظّي المنكود، إذ لم أر عند اقترابي من المكان ورودا طريّة، رائحة نديّة بقطرات الطّل ورحيق الآلهة، انبثقت بين الأشواك الجذلة الحاملة، × ولا أيّ واد بل فقط ضفّة نهر محفوفة بكثير من الأشجار × حاكي بكثافة أوراقها شجيرات الغار، تتورد أكامها المدينة زهورا بلا شذا، × يسمّيها العامّة بلغة الرّيف ورود الدّفلى، وهي سمّ لكلّ دابّة وردى.

#### 4-3 مزايا الحمية النباتية

في غمار البلايا المتتالية بتّ أرفض حتّى حفظ سلامتي وأرغب عمدا في تناول تلك الزّهرة السّامّة، بينما أنا أدنو مترددا لقطفها إذا بفتى هو كما يبدو صاحب الجنينة الذي أتلفت له كلّ الخضار × يهرع بعدما علم بذلك الدّمار، مغضبا وحاملا هراوة غليظة، فيستلمني وينهال بها على كلّ بدني حتّى كاد

يودي بحياتي، لولا أنّي بحكمة قدّمت العون لذاتي، رفعتُ فطنتيّ عاليا وأطلقت عليه بقائمتيّ الخلفيتين (1) وإبلا من الرّمحات، ولّا رأيته بثوي مهيبضا على منحنى أكمة بجواري، خلّصت نفسي لائذا بالفرار، لكنّ امرأة، هي زوجته بلا جدل، رأته مجنّدا وشبهه ميّت من علّ، فهبّت إليه مولولة بأسى في الحال، لتجعل رحمتها به وبالا عليّ حسبما بدا لي، إذ أثار نواحها كلّ الفلاحين، فأطلقوا فورا كلابهم مغضبين، وراحوا يحمّشونها من كلّ ناحية لتمزّقني بوحشيّة، أشفيت على الموت حقّا وأنا أرى تلك الكلاب الضّخمة جنّثا والكثيرة عددا والأنسب لعمرى لقتال الدّبة والأسد تؤلّب وتهيّج ضديّ، فحزمت أمري للخطب وأقلعت عن الهرب وعدت أدراجي إلى المأوى حيث كنّا قد نزلنا، فمنعوا كلابهم عنّي بصعوبة ثمّ أمسكوني، وربطوني إلى حلقة بسير متين وأخذوا من جديد يضربونني حتّى كادوا يقتلونني، لولا أنّ معدتي المتشنّجة من ألم ضرباتهم المبرّحة، والممتلئة بتلك الخضر النّيئة، والمصابة بمُشَاء وإسهال من فجاجتها، قذفت عبر المعى بمجاجتها، ففرقتهم عن ظهري المحتدم، بعضهم برشاش ذلك السّرجين الوخم، والآخرين بنتنه المغني الرّخم.

#### 4-4 فرصة ذهبية

لما زالت الشّمس مع العصر، أخرجنا اللّصوص من الإسطبل، مثقلين ظهري أنا خصوصا بأرزن حمل، كنّا قد قطعنا شوطا معتبرا من الطّريق وقد هدّني طول المسافة وانقصم ظهري (1) رمحات بقائمتيّ الخلفيتين: pedum posterioribus calcibus نوع من الجاز المرسل hypallage إذ يجعل أبوليوس نعت "الخلفيتين" في إعرابه تابعا للرّمحات ( لضرورة السّجع على الأرجح).

بنقل وزري وأوهنتني لطعات العصي وتأكلت حوافري فصرت أطلع وأتعثّر في سيرى. وفيما كنت أمشي حذو جدول تتثنى مياهه رقاقة رقيقة، لقيت لحسن الحظ فرصة دقيقة: فكّرت أن أبرك ثانياً بجملة قوائمى ملقيا على الأرض بكلّ جسمى. × مصمّما بإصرار على ألاّ أنهض مهما أشبعونى ضربا لمواصلة السير. مستعدّا للموت من الضرب لا بالعصا فقط بل حتّى بالسيف. ففي تلك الحال من العجز والإرهاق. كنت واثقا من استحقاقى إجازة مرضيّة وأنّ اللصوص لا شكّ سوّية، لنفاد صبرهم من التّأخير. وحرصهم على الإسراع فى الفرار سيفرّقون على الدّابّتين الأخرين ما على ظهري من الأوزار. ويتركونى شماتةً بي جزر الذّئاب والنّسور.

#### 4-5 وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم

لكنّ القدر الخدول عرقل مشروعى الجميل؛ فقد حدس الحمارُ الآخر فكرتى وسبقنى إلى تنفيذها. فهوى بكلّ ما عليه من الأحمال. متظاهرا بشدّة الإنهاك، وثوى كالميت بلا حراك. ورغم ضربات العصي والنخسات، وجذب ذيله وأذنيه وقوائمه إلى كلّ الجهات، رفض أن ينهض. حتّى أعيوا وقطعوا منه أخيرا رجاءهم، فتشاورا وكبلا يؤخّروا فرارهم برهن أنفسهم على حمار مات بل تحجّر من زمان. × ورّعوا أحماله على الحصان. واستلّوا سيفا قطعوا به كلّ عراقيبه، ثمّ جرّوه قليلا عن الطّريق ودفعوه فى الوادي القريب على جرفه السّحيق. فاتّعلت بمصير ريفي التّعيس، وقرّرت أن أنخلّى عن الغشّ والتّديس. وأظهر نفسى لأسيادي حمارا على طريق الرّشاد. فقد فهمت من أحاديثهم أنّا

سنحطّ الرّحال بعد قليل. ونستريح بعدما بلغنا نهاية السّبيل. وأنّهم يتّخذون ذلك المكان لهم مقرّا ومقاما. وما لبثنا فعلا. بعد عبور مرتفع خفيف الصّعود. أن وصلنا إلى المكان المقصود؛ هناك وضعوا عنّا كلّ الأحمال. وأخفوها بالدّاخل. فرّحت حرّا من الأثقال أزيل تعبى بالتّمرغ فى الرّغام. بمنابة الاغتسال فى الحّمّام.

#### 4-6 كهف اللّصوص

هنا بمقتضى الموضوع والظّرف أرى لزاما عرض وصف للموقع وللكهف الذي يقطنه أولئك اللّصوص. فبذلك سأضع قريحتي على محكّ الاختبار. وأمكّنكم فى الآن نفسه أن تقدّروا بالوجه الصّحيح إن كنت إذّاك حمارا أيضا بالذهن والأفكار. كان جبلا كالخا تلقى عليه أغصان الغابات الملتفة ظلّالا داكنة ويرتفع شاهقا بين أعلى الجبال؛ وعلى منحدره الوعر الذي تكتنفه صخور نائنة يتعدّر بلوغها. تتناثر أودية مخدّدة ومجوّفة. مرّقشة بغياض كثيرة. خيط به من كلّ جوانبه. مشكّلة حصينا طبيعيا. ومن قمّته يتدفّق سيل عارم مدردرا متوتّبا على المنحدرات. متقيّنا لوجه الفضّة. ثمّ يتفرّق إلى عدّة جداول. ناشرا حشدا من الأضى بين تلك الوهاد. ويحتصرها بما يشبه بحرا طاميا أو خنادق مياه راكدة. هناك، على شفا الجبل، ينتصب حصن الكهف المنيع؛ ويحمي القلعة العتيقة المناسبة كحظيرة للأغنام. سباح من حواجز متينة منّدة على كلّ الجوانب أمام مدخل مشى ضيق يشبه سورا منبّيا. أراهن بكلّ ثقة أنّك لو رأيتّه لقلت ذاك مخبأ لصوص. ولا شيء إلى جانبه سوى كوخ صغير مغطّى كيفما اتّفق بخصّ متشابك، يراقب منه فى كلّ اللّيالى. كما

اكتشفت لاحقا، عسس يعيّنون بالقرعة من بين اللصوص.

### 4-7 اللصوص في المغارة

هناك نزلوا لوإذا زاحفين حازقين أطرافهم بعدما ربطونا بحبل متين أمام المدخل رأسا، ثم نادوا بغلظة عجوزا فانية حناها عبء السنين وكلت إليها وحدها كما يبدو سلامة وخدمة كل ذلك العدد من الفتیان. "تبّا لك يا غنّاء القبر وثفالة الحياة، يا حثالة يعافها أركوس\* دون العالمين، هكذا تعيشين في البيت عاطلة كسلى ولا تقدّمين لنا ما يؤسّينا عن أعمالنا الخطيرة الجلى إذ نأخذ أخيرا قسطا من الرّاحة. وأنت لا همّ لك ليل نهار سوى قذف الخمر في أتون جوفك الرّهب،" ردّت العجوز مرّجفة وبصوت فيه تهيب وصغار: "رويدكم يا فتيتي أبسل الأبطال، وأولياء نعمتي دائمي الأفضال، ها قد أعددت لكم أطباقا شهية حافلة بشتى أصناف الطّبخ، وخبزا وفيرا، وملأت الأكواب خمرًا بعدما غسلتها وفركتها بفائق العناية، وحضرت ماء ساخنا لحمّامكم السّريع المعتاد." ما إن أنهت كلامها حتّى نزعوا ثيابهم، فأنعشوا أبدانهم التّعبى بالبخار المتصاعد من على نار ذات لهب، واغتسلوا بالماء الساخن، وادّهنوا بالزّيت ثمّ اتكؤوا أمام موائد عجّت بما لذّ وطاب.

### 4-8 فروع اللّصويّة

ما إن اتكؤوا حتّى قدم شبّان آخرون أكثر عددا، يمكن الحكم بدون تردّد بأنّهم لصوص مثلهم، إذ كانوا يحملون مثلهم غنائم متنوّعة: نقودا وأواني ذهبية وفضية وكساء من حرير موشى

بخيوط الذهب، فأنعشوا أجسامهم كالأوائل بحمّام ساخن، ثمّ جلسوا بين أرائك رفاقهم؛ واختير بالقرعة بعضهم للخدمة، فأكلوا وشربوا بلا لياقة ولا اعتدال مزرددين الطّبيخ أكداسا والخبز أكواما وأكواب الخمر صفّا صفّا، وتفكّحوا في لغط، وغمّوا في صخب، وتعالّت فكاهااتهم الفجّة وعربداتهم الفاحشة القريبة من مجون اللّابثيين\* أشباه الوحوش أو القناطير\* أشباه البشر؛ ثمّ انبرى أحدهم، يبدو الأقوى بينهم، "داهمنا الليلة بيت ميلون الهيباري؛ وفضلا عمّا غنمنا بفضل شجاعتنا من ثروات طائلة، عدنا إلى قلعنا بكامل عدونا، بل، إن كان يجدر ذكر ذلك، بزيادة ثماني أرجل. أمّا أنتم الذين قصدتم مدن بيوتية\*، فعدتم بعدد منقوص بفقدان قائدكم المقدم لاماخوس\* الذي أفدي حياته، كما هو أهل له، بكلّ هذه الغنائم التي جلبتم، لكنّ فرط شجاعته هو الذي أوردته الرّدى؛ ولتخلدّ الأيام ذكرى ذلكم البطل بين مشاهير الملوك وقادة الحروب. أمّا أنتم، فلستم سوى سرقة شطّار تتسلّلون متخفّين ومتخوّفين إلى الحمّامات وغرف العجائز، فتنهبون ما تقع عليه أيديكم في عمليّات اختلاس صغيرة تليق بالخدم والعبيد."

### 4-9 غنيمة سهلة

ردّ واحد من الفريق الأخير: "أتراك دون الجميع جهل أنّ أكبر البيوت أسهلها اقتحاماً؟ فلئن كان عديد من الخدم يقطنون البيت الكبير، إلّا أنّ همّ كلّ منهم التّجاة بجلده قبل ثروات سيّده، بينما يذود الأشخاص الحريصون الذين يعيشون بمفردهم ببسالة عن ثروتهم الصّغيرة، بل وربّما الكبيرة، والتي أتقنوا

إخفاءها(1) وبيذلون دماءهم فداءها؛ مصداق قولي ما حدث لنا نحن أنفسنا. حالما وصلنا طيبة\* ذات الأبواب السبعة، شرعنا في الاستخبار بدقة عن ثروات المواطنين. فذلك أول متطلّبات مهنتنا. فعلمنا بصيرفيّ صاحب أموال طائلة يدعى خريصوص\*، يخفي بأفانين من الدّهاء ثروته الواسعة تهرباً من الأعباء والفروض العامّة. فكان يعيش منفرداً ومنطويا(2) في بيت صغير لكن حسن التّحصين. راضياً بعيشه ذاك، مرتدياً أسمالاً رثة، مقتراً بنحو مزر، حاضناً أكياس الدّهب. فرأينا أن يكون أول من نغشى. مستصغرين مقاومة يد واحدة، ومستسهلين الاستحواذ على أمواله.

#### 4-10 القوّة والحيلة

بادرنا منذ بداية اللّيل بالتّرتّب أمام بابه الذي لم نستصوب شيله أو خلعه أو فتحه عنوة. مخافة أن تؤلّب علينا قرقرة مصراعيه الجيران. ما كان إذّاك من زعيمنا العظيم لماخوس إلّا أن عمد بثقة في شجاعته المشهودة إلى إيلاج يده بالتّدرّج إلى ثقب القفل المفسح لإيلاج المفتاح وراح يحاول سحب المزلاج. لكنّ خريصوص، شرّ من دبّ على قدمين حقّاً، كان يرقب يقظاً كلّ حركاتنا منذ فترة فتسلّل الهوينى ملازماً صمتاً تامّاً. ومسمار غليظ تّبّت فجأة وبكلّ قواه يد قائدنا على فردة الباب. وتركه مشدوداً بقبده المردي وصعد إلى سطح الدّار فأخذ يصيح

(1) تفتّنوا في إخفائها: dissimulanter obditos الكلمتان مترادفتان تقريباً.  
(2) منفرداً ومنطويا: solus ac solitarius كلمتان مترادفتان تقريباً، وجناس مطلق مع سجع.

بأعلى صوته مستنفراً جيرانه، داعياً كلّاً باسمه. منذراً بالخطر على سلامة الجميع، مدّعيّاً أنّ حريقاً شبّ فجأة في بيته؛ فهبّ الجميع لنجدته، مذعورين من الخطر الدّاهم.

#### 4-11 أشدّ من السّقم الذي أذهب السّقم

وجدنا أنفسنا أمام خيارين أحلاهما مرّ: إمّا أن يداهمونا وإمّا أن نتخلّى عن رفيقنا؛ فارتأينا برضاه مخرجاً ناجعاً من مأزقنا الطّارئ، سدّدنا بدقّة لعضو زعيمنا الواصل بين اليد والعضد ضربة على مستوى المفصل الأوسط<sup>^</sup> فصلت ذراعه؛ فتركناها هناك وضمّدنا الجرح بقطع من القماش كيلا تكشف أثرنا قطرات الدّم. وانسحبنا سراعاً، حاملين ما بقي من لماخوس. وبينما كان الضّجيج المتعالي يستحثّنا في قلقنا على صاحبنا، والخوف من الخطر المقترب يدفعنا إلى الفرار في هلع. × لم يستطع ذلك الرّجل ذو الهمة العالية والشّجاعة الفدّة مسابرتنا ولا التّخلّف عنّا بأمان، فمضى يطلب متّاً بعدد الخطب وعديد التّوسّلات، ويناشدنا بيمين مارس\* وبحرمة ميثاقنا، أن نخلّص من العذاب والأسر معاً رفيقاً مخلصاً، إذ ما جدوى إبقاء لّصّ باسل بعد فقدان يده التي هي وحدها القادرة على السّلب والقتل؟ وإنّه لسعيد بالموت برضاه على أيدي رفاقه. لّا عجز عن إقناع أيّ متّاً بالإجهاز عليه بإرادته، أخذ باليد التّبقيّة سيفه وعانقه طويلاً. ثمّ شكّ بطعنة صمّاء صدره في الوسط. فحيينا بإجلال شهامة زعيمنا الهمام ولففنا بعناية بقيّة جسمه في لحاف من الكتّان، وألقينا به إلى البحر حيث يثوي الآن. متّخذاً عنصراً بأكمله لحدا.

4-12 الرأى قبل شجاعة الشجعان

هكذا وضع حدًا لحياته يليق فعلا بمناقبه، أمّا رفيقنا ألكيموس\*، فلم يستطع بخططه الذكيّة أن يجلب لصقّه مشيئة الحظّ الغشوم، اقتحم دويبة عجوز أثناء نومها وصعد إلى الغرفة العليا، وكان الأوّل به أن يعصر عنقها فيكتم أنفاسها، لكنّه فضّل البدء بإنزال الأمتعة واحدا تلو آخر من شباك واسع إلينا في الخارج لنحملها طبعًا، ولما انتهى تماما من ترحيل الأثاث، أبى أن يعفّ حتى عن مفرش العجوز الغارقة في التّوم؛ فخرجها من فوقه وسحب الحشبيّة بنّيّة إنزالها بنفس الطريقة، فجثت الماكرة على ركبتيها مستعطفة: "قل يا بنيّ، لِمَ تعطي أسمال وأسقاط عجوز بائسة لجيرانها الأثرياء الذين تطلّ هذه النّافذة على بيتهم؟" × خدعه كلامها الممتلئ مكرًا ودهاء وبات واثقا من خطئه، فخشي طبعًا إلقاء ما بعث سابقا وما ينوي بعثه لاحقا لا إلى شركائه، بل إلى بيت الجيران، فاعتلى النّافذة وتعلّق بها، ملقيا نظرة متفحّصة حواليه، سيما على البيت الحاذي ليطلّع على الثّروات التي زعمت، ففيما هو يحاول ذلك، بعزم لا شكّ لكن بدون احتراس، ألقت به العجوز الماكرة، بدفعة ضعيفة لا محالة لكن مباغتة وغير منتظرة، وهو يحملق غير مستقرّ شاردا للّب، وفضلا عن سقوطه من مثل ذلك العلوّ الشّاهق، وقع على صخرة مذبّية ملقاة قريبا؛ فاندقّ صدره وتهشّمت ضلوعه وروى لنا ما حدث وهو ينفث من فمه أسرية من الدّم؛ وفارق الحياة دون أن يطول عذابه، إذّاك حملناه لدفنه بالطّريقة السّالفة وأعطيناه لماخوس خير رديف.

4-13 انسحاب المنتصرين

بعدهما أصابتنا هذه الخسارة المثنّاة بضربة قاصمة، تخلّينا عن محاولتنا في طيبة\* وقصدنا بلاتية\* القريبة. هناك تناهت إلى أسمعنا شهرة رجل يدعى ديموخريص\* على وشك تقديم عرض مجالدين؛ وقد دأب هذا الرّجل كريم الحُمد والمتميّز بسعة ثرائه وسخائه على إخاف الشّعب بفخامة عروضه اللّائقة بثروته، من يستطيع فعلا، مهما بلغ من التّباهة والفصاحة أن يصف بكلمات مناسبة شتى أوجه إعداداته المعقّدة؟ هؤلاء مجالدون مشهورون بقوّتهم، وهؤلاء مصارعو وحوش مشهود ببراعتهم، وأولئك مجرمون يوفّرون بوجباتهم، في أمانة الهلاك المحقّق(1)، غذاء لتسمين السّباع، وتلك محالة برج مركّب من ألواح مجمّعة ومترابطة على شاكلة بيت متنقّل، مزدان برسوم زاهية الألوان، محلّ مشهد الصّيد الموعود، أمّا عن تشكيلة السّباع، عددها وأنواعها، فحدّث ولا حرج؛ فقد جلب بفائق الحرص من الخارج قوافل من تلك المئاوي الكريمة للمحكوم عليهم بالإعدام، لكنّه بجانب بقيّة التّجهيزات لعرضه الرّائع، سخّر كلّ ثروته خاصّة لاقتناء مجموعة كبيرة من الدّببة الضّخمة، بعضها صاده عبيده، وبعضا اشترى بالجملة، وحصل على أخرى من أصدقائه المتبارين في إخافه بمثل هذه الهدايا؛ وكان يعتني بتغذيتها وينفق عليها دون حساب.

(1) أمانة الهلاك المحقّق: perdita securitate عبارة موجزة فيها مجاز مرسل فالهلاك نعت للأمانة، في العربيّة أيضا قد يقوم المفعول مقام المصدر: بأيّكم المفتون أي الفتنة أو العكس صنّع الله أي مصنوعه.

4-14 حطة ذكية

لكنه لم ينجح لشهرته والتّحضيرات الباذخة لعرضه الجماهيريّ الشّيق. من عيون الحسد المرّبة. فقد ملّت تلك الوحوش أسرها الطّويل. وصهرها في نفس الوقت قيظ الصّيف. وأضرب بجسمها طول الجمام. فأصببت بوباء مفاجئ قلّص عددها إلى لا شيء تقريباً. فكنت ترى جثث تلك السّباع المتضرّة متناثرة هنا وهناك على السّاحات العامّة؛ وما لبث الرّعاع الذين اضطّرتهم شظف العيش إلى البحث بغير انتقاء عن أغذية إضافيّة ولو غير صحّيّة وأطعمة مجانيّة أن هرعوا إلى تلك المأكّل الملقاة في كلّ الأماكن. فاستوحينا. أنا وإيبولوس\* هذا. من ذلك الوضع الطّاريء؛ فكرة ذكيّة. حملنا إلى مخبئنا واحداً من تلك الدّببة. هو أضخمها قواماً. كما لو كنّا نريد إعداده لنا طعاماً. فسلخنا جلده عن لحمه بإتقان. محافظين بمهارة على مخالبه. وعلى رأسه إلى حدّ العنق. وكشّطنا الجلد جيّداً وذررنا عليه رماداً ناعماً لدبغه ثمّ نشرناه للشمس لتجفيفه. وفي انتظار تبيّسه بوهج الشّمس أقبلنا بهمة على اللحم خضفاً وقصفاً. ثمّ وضعنا هذه الخطة للحملة القادمة. أن يتطوّع أحدنا. لا الأقوى جسماً بل الأمضى عزماً. لتقمّص جلد الدّبّ والتّنكّر في تلك الهيئة. فنُدخله تحت جناح الظّلام إلى بيت ديموخريص ليؤمّن لنا الدّخول بسهولة.

4-15 البطل

أثار مثال البطل الكيّس تنافساً بين عدّة رفاق من الفريق لأداء

المهمّة. فانتقى من بينهم باختيار كلّ الفريق ثراسليون\*. فتقدّم مجازفاً بإجاز ذلك التّمويه الخطير. واختفى طلق الحيّا داخل الجلد الذي اكتسب مرونة ولدانة. إذكّ طابقنا بخياطة دقيقة طرفيه. وغطّينا شقّ ملتقاهما الدّقيق بالوبر الكتّ المتلبّد حواليه. وبشيء من العسف حشرنا رأس ثراسليون بأعلى التّحر حيث حُزّ عنق الوحش. وأحدثنا حول أنفه وعينه ثقباً صغيراً للتّنفس والتّنظر وحشرنا برفيقنا الصّنديد. وقد حوّله التّنكّر إلى دبّ بالتّأكيد. وسط قفص اشتريناه بسعر زهيد؛ فانسَلّ داخله بعزم وخفّة. بعد إجاز الإعدادات بذلك الشّكل. واصلنا بقيّة عمليّات التّزييف كما يلي.

4-16 هديّة معتبرة

استخبرنا عن رجل من تراقية\* يدعى نيقانور\*. تربطه بديموخريص صداقة حميمة. فاختلقنا رسالة تنبئه افتراءً أنّ صديقه الودود يهديه بواكير صيده لتجهيز عرضه. ولما تقدّم المساء. اغتمننا ستر الظّلام لنقدّم لديموخريص قفص ثراسليون والرّسالة المدلّسة. فمن إعجابه بضخامة الوحش وفرحه بعطيّة صديقه التي أتت في الوقت المناسب أمر بأن تُصرف لنا فوراً من خزائنه عشرة مئاقيل ذهبيّة كانت إذكّ بحوزته. كحلوان لحاملي التّحفة سبب فرحته. وكما يدفع حبّ الجدّة النّاس إلى كلّ مستحدث. توافق على الوحش عديد المعجبين؛ وكان ثراسليون يذبّ الفضوليين منهم بهجماتنه المتوعّدة المتكرّرة. أشاد المواطنون بديموخريص مجمعين على أنّه سعيد ومحظوظ. فبعد كارثة نفوق وحوشه صمد بنحو ما

بهذا الرّفد الجديد أمام الحظّ (1): وأمر بنقل الدّب فوراً وبعباية إلى أراضٍ مخصّصة لثروته الحيوانيّة: فرددت:

#### 4-17 إنقاذ الموقف

"حذار يا مولاي أن تضمّ هذا الدّب المنهك من حرّ الشّمس وطول الطّريق إلى مجمع وحوشك العديدة والعليلة على ما يقال. لم لا توفّر له بالأحرى مكاناً واسعاً ومهوّءاً ببيتك، بجوار الماء والكلاّ وفي جوّ منعش؟ ألا تعلم أنّ هذا النّوع من الحيوانات يسكن دوماً الحراج المغلوبة والمغاوير الرّطبة والجداول العذبة؟" أثارَت هذه التّحذيرات مخاوف ديموخريص. واستعرض في نفسه ما مُني به من خسائر. فوافق بدون مانعة، وأذن لنا بوضع القفص أينما أعجبنا. قلت: "إنّا مستعدّان لقضاء اللّيلي واقفين أمام القفص. لنقدّم لهذا الحيوان المتعب من الحرّ والمضايقات والحركة طعامه وشرابه في الميعاد بدقّة وانتظام." فأجاب: "لا نحتاج البتّة إلى جشيمكما هذه المشقّة. فكلّ الخدم تقريباً مدرّبون بحكم طول الممارسة على تغذية الدّبة."

#### 4-18 عمليّة سطو مرتّبة

ودّعنا وغادرنا فرأينا، عند خروجنا من باب المدينة، مقبرة تقع في مكان منعزل ناء عن الطّريق. فتحنا هناك عشوائياً بعض التّوابيت النّخرة التي لا تكاد من القدم والبلى، تغطّي ما بداخلها، يسكنها موتى استحالوا غباراً ورماداً، لنجعل منها مخابئ لغنائمنا مستقبلاً. حثّرنا من اللّيل، وفق أصول الحرفة، فترة أفول صمد بنحو ما بهذا الرّفد الجديد أمام الحظّ: novo proventu quoquo modo fortunae resisteret معنى ثانٍ ممكن: نهض شبتنا ما برفد جديد من الحظّ.

القمر، لما يتغشّي النّوم من أوّل كرتة قلوب البشر: فامتشقت كتبتنا السّيوف وأتخذت أمام باب ديموخريص موافعها حسب خطة السّطو الموضوعه لها. ولم يشدّ عنّا ثراسيليون: هو أيضاً أنس من اللّيل اللّحظة المواتية للسّرقة واندفع خارج القفص، فأعمل سيفه في كلّ العسس المضطّجين في سبات بقره ثمّ في البوّاب نفسه. واستلّ منه المفتاح وفتح لنا الباب على مصراعيه: فاندفعنا إلى داخل البيت حيث استقبلنا ودلّنا على مخزن رأى المساء، بفضة اللّصّ الأريب، كثيراً من الورق يودّع فيه، في الحال شدّدنا على الباب شدّة رجل واحد فاقتحمناه: فأوعزت لرفاقسي أن يحمل كلّ من الذهب والفضّة على قدر طاقتهم، فيخفيه بعجل في بيت الموتى الأمان، ثمّ يعود بسرعة لتهديب شحنة أخرى: بينما أبقى وحدي واقفاً على عتبة البيت أرقب بانتباه كلّ ما يطرأ إلى حين إياهم: وكان يبدو لي أنّ مشهد دّب يذرع صحن الدّار كفيل باللقاء الرّعب في أيّ من الخدم يستيقظ صدفة، ومن بالفعل، وبالأخصّ في اللّيل، مهما بلغ من الإقدام والعزم، لا يندفع لرأى وحش بذلك الحجم، إلى الفرار على الفور وإيصاد غرفته لينزوي فيها مرجّفاً من الدّعر؟

#### 4-19 إذا تمّ شيء بدأ ناقصه

لكن، رغم اتّخاذنا كلّ هذه التّرتيب السّديدة، حدث ما أفسد خطّتنا: بينما أنا أنتظر قلقاً عودة رفاقي، أيقظ الصّحيج، بمشيئة الآلهة على الأرجح، أحد الخدم فتسلّل الهويني، ولما رأى الوحش يذرع فناء الدّار جيئةً وذهاباً، عاد أدراجه ملازماً الصّمت، وأخبر بما رأى كلّ من في الدّار كيفما استطاع، في الحال امتلاً الفناء



بعديد الخدم، وأنارت الظلمة المشاعل والشّموع والقناديل وشتى وسائل الإضاءة، لم يأتوا عزّلاً، بل تقدّموا شاهرين كلهم عصياً وفسبياً ومنتشقين سيوفا لحراسة المنافذ. وأطلقوا كلاب الصيد للتحكّم في الدبّ فتألّبت وقد انتصبت آذانها وقف شعرها.

#### 4-20 بين شدقي كروبوس

أخذت إذّاك، وسط الضجيج المتزايد، في التراجع رويدا رويدا وبارحت البيت؛ لكنني شاهدت جيّدا من مخبئي خلف الباب، ثراسيليون يقاوم الكلاب ببسالة عجيبة. فرغم أنه كان على حافة الحياة القصوى، لم ينس بسالته وبسالتنا السالفة، وتصدى مستمينا لأشداق كروبوس\* المكشّرة لنهشه. تمسك بدوره الاختياريّ وبصمته؛ وظلّ يراوغ متقهقرا كرهة ومقاوما كرهة بحركات وتكشيرات شتى، حتى انسَل أخيرا خارج البيت؛ لكن، رغم فوزه بحرية الطريق العام، لم يستطع أن ينشد النجاة بالفرار. فقد انضمت كل كلاب الرّفاق المجاور الرّهبة ضراوة وعددا جحافل تلو أخرى إلى كلاب الصيد التي كانت في ذلك الوقت خديدا قد خرجت تتعقّبه مثلها، شاهدت إذّاك منظرا مؤثرا وفظيعا، منظر أخينا ثراسيليون مطوّقا ومحاصرا بجيوش من الكلاب الضّارية ومزقا بنهشاتها المتتالية. لم أحمّل ذلك المشهد المؤلم فاختلفت بالجماهير المتجمّعين حول مسرح الأحداث، ولم أجد وسيلة لإنقاذ رفيقي دون افتضاح أمرنا، x سوى الإهابة بسوّاس الكلاب: "يا للفضيحة العظيمة! أن نضيع حيوانا هائلا بمثل تلك القيمة!"

#### 4-21 مصرع البطل

غير أنّ حيلي الخطابية لم تجد المنكود نفعاً؛ إذ هبّ من البيت فتى فارح الطّول متين البنية، وبدون تردّد، غرس رمحاً في صدر الدبّ، وتبعه آخر ثمّ سرعان ما اجتمع عليه حشد، وقد ذهب الخوف عنهم، متنافسين على إئخانه من قريب بطعنات سيوفهم المتلاحمة، هكذا ظلّ ثراسيليون زين فريقنا السّاطع متجلّدا بنحو لا مثيل له، حتى أزهقت أخيرا روحه الجديرة بالخلود دون أن يخون بصرخة أو توجّع عهدنا المقدّس (1) متحمّلا حتى وقد خرّفته التّهشّات ومزّفته السيوف بلاعه الحاضر دون أن يصدر عنه سوى دمدمة وتململ كما تفعل الوحوش، فسلم حياته لمصيرها المحتوم محتفظا لنفسه بمجد سرمدّي (2). وقد قذف في قلوب المحتشدين الرّعب، إلى درجة أنّ أحدا لم يجروا على مسّ الوحش، حتى وهو ملقى على الأرض، ولو بإصبعه إلى مطلع الفجر بل حتى وضح الضّحى. أخيرا تقدّم جزّار أشجع من الباقين شيئا ما بوجل وتردّد، فبقر بطن الوحش وسلخ من الدبّ اللّصّ العظيم، هكذا مات رفيقنا ثراسيليون هو الآخر، لكن ما مات غير مجيد؛ فجمعنا في الحال أكياسنا التي حفظها لنا الموتى الأمناء، وارتحلنا عن بلاتية\* حائثين خطواتنا، متفكّرين طويلا في قرارة ذاتنا أنّا لسبب وجيه لا نجد للأمانة أثرا في حياتنا، فقد هجرتنا كارهة غدرنا إلى الموتى وأرواحهم، هكذا عدنا منهكين من ثقل الأحمال ووعثاء الطريق بنقص ثلاثة من رفاقنا وجلبنا

(1) مصرع ثراسيليون: يذكر باغتبال قبصر أو مصرع الذئب في قصيدة فينبي: 49-50، كما نرى يشبه لصوص أبوليوس أبطال الملاحم لكنهم يموتون ميتة فظيعة وغير كريمة وهذا جانبه الواقعيّ والسّاخر.

الغنائم التي ترون هنا."

#### 4-22 حملة جديدة

بعد انتهاء التقرير، شربوا على نخب رفاقهم الفقيدون خمرا أصيلة في أكواب من الذهب، وغنوا بعض الأناشيد للإله مارس\*. ثم غفوا في نشوة خفيفة، أما نحن، فأعطنا العجوز من شعير الحول الطري بسخاء وبلا كيل، حتى ظن حصاني أمام كل تلك الخيرات التي هي له وحده لا شريك له فيها، أنه يحضر مادة للساليين\*. أما أنا الذي ما اعتدت الشعير إلا دقيقا منخلا وطباخة خائفة من طول الغليان، × فعثرت في إحدى الزوايا على بقايا خبز مكسوة، أعملت فيها بعزم بلعومي الموهن من طول الصيام، بل المفروش بخيوط العنكبوت. فجأة أفاق اللصوص وقد تقدم الليل، واستعدوا للرحيل، مجهزين أنفسهم بشتى العُد والعتاد، فحمل البعض سيوفا، وتنكر آخرون في أزياء الأرواح الهائمة، وانصرفوا يحثون الخطى. من جهتي انصرفت إلى القضم والجرش بعزم لم يفلح حتى النعاس الذي بدأ يداهمني. فرغم أنني اعتدتُ زمان كنتُ لوقيوس أن أرفع يدي عن الطعام بعد الكسرة والكسرتين، مضيتُ، وقد دُهيتُ بهذا الكرش السحيق أخدمه، في جرش السلة الثالثة؛ وباغتني وأنا منهمك في هذا العمل مطلع النهار.

#### 4-23 الرهينة

فانصرفت عنه على مضض يحدوني تعقف الحمير وأطفأت عطشي في جدول قريب، وما لبث اللصوص أن عادوا متكدرين

ومنشغلين؛ لم يجلبوا معهم كيسا واحدا ولا حتى أبخس لباس، بل فقط بسبوفهم وبكل قواهم وكل أفراد طاقمهم، × فتاة كريمة الأصل تنتمي بالتحقيق، كما تنم عنه هيئتها، إلى علية القوم في تلك المنطقة، فتاة يشتهيها لعمري حتى حمار مثلي، وهي تنتحب وتمزق شعرها وثوبها. قالوا لها لما أدخلوها المغارة مهوتين عليها: "أنت هنا بأمان على عرضك وحياتك، فامنحينا قليلا من أُناتك لنتدبر رزقنا، فإما اضطرنا إلى هذه الحرفة فقرنا، ولا شك أن أبويك مهما بلغا من الشح سيحضران قريبا من بحر ثروتهما فدية دمهما."

#### 4-24 شكوى السبية

لم تسكن هذه التخاريف وما شابها روع الفتاة؛ ولا غرو فقد وضعتُ رأسها بين ركبتيها وانخرطت في البكاء دون اعتدال. فدعوا العجوز من داخل الكهف وطلبوا منها الجلوس بجانبها ومؤاساتها قدر الإمكان بعذب الأحاديث؛ ثم عادوا إلى أعمال جماعتهم المعتادة(1). لكن لم تستطع أقوال العجوز ثني الفتاة عن مواصلة البكاء بل علا نحيبها وزاد شهيقها وانهرت منه ضلوعها فهما دمعي تأثرا لها، مضت تقول باكية: "يا لشقائي، أفردتُ من بيت عزٍّ ومن بين طاقم الخدم والحشم الأحيّة ومن بين أبوي وأهلي الأجلّة، وها أنا ضحية اختطاف مشؤوم سبية ومعقلة في هذا السجن الصخري، محرومة من كل النعم التي ولدت وترعرعتُ فيها × مهددة في حياتي وجزرا (1) عادوا إلى أعمال جماعتهم المعتادة: seque ad sectae sueta conferent جناس صوتي بالسنين.

لهؤلاء اللصوص وهذه العصابة الرهيبة من السقّاحين، فكيف لي بالكفّ عن البكاء بل حتّى بمواصلة العيش؟" استمرت هكذا في شكواها حتّى أعيأها أسى روحها والتهاب حلقها وإرهاق جسمها فأسلمت للتوم عينيها الذّاويتين.

#### 4-25 العجوز تزجر الأسيرة

لكنّها لم نتم مدّة إذ صحت فجأة من غفوتها كأنّ بها جنّة، فبدأت تتفجّع بقوة مضاعفة، قارعة صدرها بشدّة ولاطمّة وجهها الوضّاء بلوعة، ولما سألتها العجوز بالجّاح عن أسباب أساها الجديد والمُعاد، تنهّدت من الأعماق وقالت: "أواه، الآن أيقنت من هلكتي وقنطت من النّجاة؛ ولم يعد أمامي حقّاً سوى الجبل أو السّيف أو الإلقاء نفسى من شفا الجبل". غضبت العجوز وسألتها بحدّة لماذا تبتّ عادت إلى البكاء والشكوى بمثل هذه الغلواء بعد نومتها الهادئة، وقالت: "لعلّك تنوين حرمان فتيتي من فديتك الباهظة؟ × لئن واصلت لأتدبّرنّ لتُحرقى حيّة فضلا عن عذاب تلك الدّموع التي يستخفّ بها خاطفوك(1)".

#### 4-26 قصّة الأسيرة

أنار هذا الوعيد فزع الفتاة، فأخذت تقبّل يديها قائلة: "عفوا يا أميتمتي، انظري بقليل من الحلم والرّحمة إلى محنتي العصبية، فما إخالك بسبب كبر سنّك الذي أنضجك فقدت في مشيبيك الموقر كلّ أثر للرّأفة؛ انظري لتعذري إلى مشهد نكبتى، اعلمي أنّ شابّاً وسيماً تميّز بين لدائه واعتبرته المدينة ابنها بإجماع المواطنين.

(1) خاطفوك: في النّصّ "اللصوص".

وهو فضلا عن ذلك ابن عمّي ويكبرني بثلاث سنين، × تربّى وترعرع معي في علاقة ودّ حميمة منذ الصّبا الغرير، في نفس البيت، بل نفس الغرفة، وعلى نفس السرير؛ ثمّ جمعنا رباط الحبّ المقدّس في شبابنا؛ × خطبني وقرّر مؤخّرا عقد قراننا برضا أهلنا، وأعلن زواجنا بعقد رسميّ؛ فسار يوم العرس بتوسّط موكب الأقارب والأصهار وراح يقدم الذّبايح في الهياكل والمعابد العموميّة؛ وعلت في البيت المزدان بأغصان الغار والمتلألئ بأضواء المشاعل أهازيج الرّقة، ضمّنتني أمّي بتأثير إلى صدرها وأخذت تسوّي لي زينة زفافي، وبعدما غمرتني بقبلها العذاب مضت تعزّز بدعواتها الحارّة أمل الدّريّة الذي بات قريب المنال، وإذا بجماعة مسلّحين يقتحمون علينا البيت فجأة، ووجوههم تتلهب بوحشيّة البطش وسيوفهم المجرّدة تومض منذرة بالويل؛ فلم يمدّوا أيديهم لقتل أو سرقة، بل في الحال انقضّوا صقّا متراصّا على مخدعنا، وبدون أيّ دفاع ولا أدنى مقاومة من الأهل والخدم أخذوني من حضن أمّي وأنا أرخف بائسة من الفرع، هكذا تشوّش حفل زفافنا وتفرّق كما حدث لآتيس\* أو برتيسلاس\*.

#### 4-27 كابوس مفزع

وقد أعاد إليّ السّاعة ذكرى مصابي بل ضاعف بؤسى حلم مريع، رأيتني أنتزع عنوة من بيتي، بل من غرفتي ومخدعي وأستغيث منادية في الفلوات التّائبة زوجي المنكود، ورأيتُه قد هبّ حالما حُرم عناقى وهو لا يزال مضمّخا بالطّيب ومزدانا بأكاليل الرّهور يقتفي أثري حيثما تخمّلتني أقدام خاطفّي، وأخذ يشكو للشّعب خطف زوجته الجميلة ويستنصره، فانزعج من ملاحقته

أحد اللصوص والتقط من أمام قدميه حجرا كبيرا ضرب به زوجي الشاب التعيس فأرداه؛ روعني المشهد فأفقت فزعة من نومى المشؤوم. "إذاك قالت العجوز وقد تأثرت لبكائها: "هوني عليك يا سيدي ولا ترتاعي من أضغاث أحلام. فرؤى النهار حسب كل العارفين كاذبة بل حتى أحلام الليل قد تنبئ بعكس الواقع. فالبكاء والتعرض للضرب أو القتل أحيانا بشائر خير وغنم. بينما الضحك وملء البطن بشهيّ الحلويات والاستمتاع بلذّة الجماع ندر ترح للروح وسقم للجسد وغير ذلك من البلايا، لكن أرجو أن أطيّب خاطرك حالا ببعض القصص الشيقّة وحكايات العجائز؛ وأنشأت تقول:

#### 4-28 حكاية العجوز: جمال رثاني

"كان في قديم الزمان بإحدى المدن ملك ومملكة رزقا ثلاث بنات رائعات الجمال. لكنّ الكبيرين وإن كانتا لا محالة على جمال بديع يُعتقد أنّ بوسع كلام البشر الإشادة بحسنهما بنحو مناسب. أمّا بهاء الصغرى الباهر الفائق فتقصر لغة البشر حقّا عن وصفه والإشادة به بنحو كاف. فكان كثير من المواطنين والأغراب الذين حشدتهم بأعداد هائلة شهرة ذلك المشهد الفائق البديع يقفون مشدوهين إكبارا لحسنها الفائق كلّ حسن ويضعون أيمانهم أمام أفواههم جامعين الخنصر بإبهامهم المرفوع كما يفعلون إجلالا للإلهة فينوس\* نفسها. وقد شاع في المدن القريبة والمناطق المتاخمة أنّ الإلهة التي تمخّضت بها لجة البحر الفيروزية. وأخرجها ندى أمواجه المزبدة، تخلّت عن عظمة الألوهة بغير خطّة واختلطت بعامة الشعب؛ بل إنّ فينوس\* أخرى تزينها

زهرة البكاره، وُلدت. لا في خضمّ البحار، بل على الأرض من بذرة جديدة من ممّ السماء.

#### 4-29 خلط شنيع

هكذا انتشر في أيام معدودات هذا الاعتقاد على أوسع نطاق. واكتسح الجزائر القريبة وكثيرا من الأراضي والأقاليم. وتوافد الناس متجنّمين الأسفار الطويلة في أرجاء البرّ وأعماق البحر ليشتهدوا آية العصر الفريدة. ولم يعد أحد يبحر إلى بافوس\* ولا كنيديون\* ولا كوثره\* لرؤية الإلهة فينوس\*؛ هكذا أغفلت طقوسها وهُجرت معابدها وديست وثارها وأهملت أعيادها، فلا أكاليل لتمثيلها، وفي هياكلها الخالية برد الرماد مدتسا حرمتها. لتلك الفتاة بانّت توجّه الصلوات وفي زيّ بشر تُستدّر بركات تلك الإلهة العظيمة؛ ولما تخرج الفتاة صباحا، تقدّم الذبائح والأطعمة تيمّنا باسم فينوس\* الغائبة؛ ولها يتقرب الناس في ازدحام لما تتمشّى في الساحات العامّة، فيغمرونها بالزهر منظوما ومنثورا في تعبد وإجلال. أثار حويل التقديس الواجبة للإلهة إلى عبادة فتاة فانية وبمثل هذا الغلوّ، حفيظة فينوس\* الحقيقية؛ فهزّت رأسها باحتداد وانفجرت، قائلة لنفسها وهي تتميّز من الغيظ:

#### 4-3. غضب الإلهة

"تبّا! أنا منشأ الطبيعة العتيق، أصل العناصر الأول. ومغذّية الأكوان. أنا فينوس\* أهان إلى حدّ أن تُشرك في ألوهتي فتاة من الفناء، ويدنّس في أدران الأرض اسمي المسبّح في السماوات،

حَتَّام أَحْمَلْ هذا الخلط وأن تشرك في التقدیس الواجب لاسمي  
معبودة ثانية، وتحمل صورتي حيثما راحت فتاة فانية؟<sup>٨</sup> لقد ضاع  
سدى حكم ذلك الراعي\* الذي أيد عدلته يوبتر\* العظيم نفسه  
ونزاهته، لما قدمني لجمالي الفائق على أعظم الإلهات: كلاً، لن  
تغضب شرفي ناعمة البال تلك الفتاة أياً تكن بين الإنسيات:  
لأجعلتها تكفر عن حسننها غير المشروع هي بالذات!" وفي الحال  
دعت ابنها الجتح، ذاك الولد النرق الوقح، الذي يمضي كامل الليل  
يجوس خلال ديار الغير، مسلحاً بالأقباس والسهم، مستخفاً  
بسلكه الشائن بالنظام العام، مدمراً كل الأسر، يأتي بلا عقاب  
كل شر وتكرر ولا يعمل قط أي خير، فحرضته بأقوالها فضلاً  
عن طباعه الماجنة أصلاً، واقناده إلى تلك المدينة وأرته عياناً  
بسيشية\* - كذلك فعلاً كانت تدعى تلك الفتاة.

#### 4-31 فينوس تستنصر ابنها

روت له القصة بالتمام والكمال عن تلك المنافسة على  
عرش الجمال، وقالت وهي تتقدم من الغضب وتئن وترتعد:  
"أناشدك برابطة الأمومة المقدسة، بجراح سهامك العذبة  
وحرائق أقباسك الحلوة أن تأخذ لأمتك ثأرها بالكامل: × وتنتقم  
لحرمتها من هذا الجمال المتطاوّل، أن تفعل لي شيئاً واحداً لقاء  
كل جمائلي: × أن يتعلّق قلب هذه الفتاة شخصاً في منتهى  
الحطة، فسأ عليه الحظ في الجاه والمال والصحة، ونزل إلى  
الخصيخ خساسنة حتى لا يجد في الأرض كلها من يضاويه  
تعاسة،" قالت ذلك وشددت على ابنها طويلاً شفيتين متقدتين،  
ثم قصدت مكاناً قريباً على الشاطئ حيث ترتدّ اللجة؛ فاعتلت

بقدميها الموردين زيد الموج الهههاف وها هي تنهادى عائمة على  
سطح اللجة الصافي، وبجرّد ما بدأت، وما كادت، تريد، وكما لو  
تدبرت الأمر منذ أمد بعيد، التفّ بها في الحال موكب أتباعها  
من سگان البحار، حضرت بنات نيربوس\* هازجات، وبزتونوس\*  
ذو اللحية الكثة اللازوردية، وصلافية\* المثقلة بصدارها المليء  
بالأسماك والحدوي الصغير بلايمون\* على صهوة الدلفين  
وجماعات التريتون\* متوثبين من هنا وهناك على صفحة البحر  
مرحين، هذا ينفخ أعذب الأغان في صدفة، وذلك بقي الإلهة  
وهج الشمس بغلالة حريرية، والأخر يحمل مرآة أمام عيني  
سيّده، وآخرون يتماقلون مثنى تحت مركبتها مرحين: سار  
الموكب يرافق فينوس\* في طريقها للقاء أفيانوس\*.

#### 4-32 الأم بسيشية

في الأثناء لم جن بسيشية رغم جمالها الوضاء أي نفع من  
بهائها؛ فالكل يتأملونها ويمدحونها، لكن لا أحد، ملكا كان أو  
أميراً أو حتى من سواد الشعب، تقدّم بطلب يدها وقلبه يخفق  
بالحب، الناس يعجبون بحسنها الرّباني، لكن كما يعجب الجميع  
بتمثال منحوت بفنّ بديع، منذ أمد خطبت أختها اللتان لم  
تلهج بحسنهما العادي أفواه الناس للمكين، وفازتا بزيجتين  
موققتين، بينما تركت هي بكرا في دار أبويها، تبكي عنوستها  
الموحشة، سقيمة الجسم عليلة الفؤاد، وباتت تكره في نفسها  
ذلك الحسن، وإن كانت محلّ إعجاب الأئم، فتألّم لتعاستها  
أبوها، وساوره شك في ضغائن من السماء، وخشي غضبا علويّ  
المصدر؛ فذهب يستفسر عراف إله ميلتوس\* العتيق، أخذ يدعو

الإله العظيم متوسّلاً بالصّلوات والقرابين طالبا لابنته زيجة وبعلا؛ لكنّ أبولون\*، مع كونه إغريقيًا وإيونيًا\*، ردّ، اعتبارا لصاحب هذه القصّة الميليتيّة، بهذه التّبوءة باللّغة اللّاتينيّة:

### 4-33 زفاف مشؤوم

"على صخرة الجبل العالية، تخلّ عن ابنتك الغالية، مزينة لزيجتها الفاضية، لا تنتظر صهرا من نسل الفناء إنسانا، بل ارتقب وحشا ضاربا شرسا أفعوانا، ينشر، محلّقا فوق الأثير، أسوأ الدّمار، ويعذب كلّ الكائنات بالحديد والنّار؛ يخشاه يوبتر\* ذاته الذي يرهبه الأرياب، وتخافه سُدف إستكس\* ويعتري مياهه الاضطراب." لما سمع الملك تلك التّبوءة، انقلبت سعادته شقاء وارتدّ على آثاره حزينا كسير الخاطر وأفضى إلى زوجته بأوامر القضاء الجائر؛ فعَمّ المدينة الحزن والبكاء والتّفجّع أيّاما؛ لكن لا بدّ أن ينفذ القضاء المرّ، مهما بلغت فظاعة تنفيذه، فأعدّ جهاز للاحتفال بزفاف الفتاة التّعيسة، وأيّ احتفال! بهتت نار مشعل الرّفعة وسودها السّخام، وتحوّل نغم الجوز إلى ما يشبه شكوى المهرج، وانتهت أهازيج هذا الزّواج إلى ولولة كالجنائن، وراحت الفتاة، وهي على وشك أن تُزفّ، تمسح عبراتها بطرحتها. شاطرت كلّ المدينة الأسرة المنكوبة الألم من قدرها المأساويّ، وأعلن وفقا لذلك عن الحداد الرّسميّ.

### 4-34 الرّضا بالقضاء

لكنّ ضرورة الانصياع لأوامر السّماء كانت تفتضي بسيشية المسكينة التّوجه إلى العقاب المعدّ لها؛ لذا لم يسعها، بعد

إجراء احتفالات زفافها المأمّي، إلّا أن تتقدّم للقاء عريسها جنازةً حيّةً، في موكب شعبيّ حاشد؛ لم تمس بسيشية الباكية في زفّة عروس بل في موكب ناووس. وفيما وقف أبواها في انكسار يعصرهما الأسى متردّين في إجاز ذلك الأمر الإمر، تقدّمت مهيبة بهما: <sup>8</sup> "لم تُغرفان شيخوختكما البائسة في الدّموع المسترسلة؟ لم تعدّبان روحكما التي هي روعي بالشّكاوى المتواصلة؟ لم تشوّهان وجهيكما اللّذين أجلّ بدموع لا تجديكما؟ لم جّرحان عينيّ في عيونكما؟ لم تقطّعان شيبتكما المهيبة؟ لم تلطمان أحضانكما المقدّسة الحبيبة؟ هذه هي الثّمار الرّائعة التي جّنيان من حسني الفتان؛ وبعد فوات الأوان ها أنتما أدركتما أنّ غيرة وحشيّة بطّشت بكما، لما كانت الأمّ والشّعوب تعظّمني بأمجاد الألوهة، لما كانوا جميعا يدعونني بفينوس\* الجديدة، كان عليكما إذّاك أن تألما، إذّاك أن تبكيا، إذّاك أن تأسيا، كما لو كنتما مدّاك ثكلتما، الآن أدرك، الآن أرى أنّ اسم فينوس\* أوردني الرّدى، خذاني وعلى الصّخرة التي حدّدتها الأقدار ذراني؛ إنّي أتعبّل لعقد هذا القران السّعيد، وأخرّق شوقا لرؤية زوجي الحميد؛ لم أوّجل، لم أحاول أن أدفع لقاء من وُلد لدمار العالم أجمع؟"

### 4-35 إلى المصير المحتوم

هكذا تكلمت الفتاة، ثمّ صمتت ودخلت بخطوة واثقة في موكب المشيعين، ذهبوا إلى الصّخرة المحدّدة من ذلك الجبل الكالح، فتركوا كلّهم الفتاة واقفة بأعلى قمّتها، مبقيين عندها مشاعل زفّتها التي استضاءوا بها عند قدومهم وقد أطفأتها دموعهم، وعادوا إلى البيوت ناكسين رؤوسهم، أغلق الأبوان البائسان،

## الحمار الذهبير

المسحوقان تحت تلك الرّزّة بيتهما وانطويا في ظلمته، ناذرين  
ما تبقي من العمر لليل سرمدّي. أمّا بسيشية فبقيت على  
صخرتها خائفة، مرتعشة. باكية، وبعد حين أحست ثوبها بهتّز  
برفق بنفحات زفيروس\* الرّقيقة، ونفخت أنفاسه شيئا فشيئا  
أثناء ثوبها فأخذت ترتفع. وحملتها نسّماته اللّطيفة بلين عبر  
رواهص ووهاد واد عميق، وتضجّعها برقة كحفيف الخمائل على  
بساط ناعم من عشب مزهر نضير.

# الكتاب الخامس

## 5-1 القصر العجيب

سكن كدر بسيشية في ضجعتها العذبة على ذلك المفرش  
من الكلا الغضّ النديّ وغفتُ بفتور؛ وبعدما جدّد قواها قسط  
كاف من النّوم قامت صافية الدّهن. فرأت حولها غابة نبتت  
فيها أشجار فارعة فينانة، ورأت نبعاً يتلأأ فيه ماء زلال؛ ووسط  
ذاك الغاب قرب رأس النّبع شيد قصر ملكيّ بني لا بأيد بشريّة  
بل بصنعة إلهيّة. من المدخل تعلم أنّك أمام منزل لأحد الآلهة  
يزهو فخامة وبهاء؛ وحتّ تسقيفته المزخرفة بفنّ بالعاج وخشب  
السّرو. تنتصب أعمدة من الدّهب؛ وتغطّي جدرانها نقوش من  
الفصّة تمثّل حيوانات وحشيّة وأليفة شتّى تبرز لأنظار الدّاخلين.  
فأيّ فتان مبدع فدّ، بل أيّ نصف إله، بل أيّ إله أضفى على تلك  
الفصّة حياة وحقّفا. بل حتّى البلاط زركش بفسيفساء من الحجر  
الكرّم، شكّلت بها شتّى الرّسوم (1)؛ فطوبى وألف نعمى لمن  
تطأ أقدامهم تلك الجواهر والحلى. وكلّ أقسام القصر التي تمتدّ  
على الطّول والعرض تحفا نفيسة لا تقدّر بثمن. وكلّ الجدران

(1) وصف الرّسوم: برينا اهتمام أبوليوس بالفنّ التشكيليّ (2: 4 و"المرافعة"  
14 و"المنتخبات" 5: 16).



الملتبسة بالذهب المصمت الخالص تتلألأ بضياء ذاتي، حتى لايشرقُ القصر لو أبت الشمس إرسال نورها بضياه؛ والغرف والأروقة وحتى الأحواض تشعّ نورا يذهب بالأبصار سناه. وتتجاوب بقيّة التجهيزات مع فخامة المنزل، حتى لتظنّه حقًا، وما ظنّك بغير المبرّر قصرا إلهيّا شاده يوبتر\* العظيم للاتّصال بالبشر.

### 5-2 مفاجأة

اقتربت بسيشية، تدعوها بهجة تلك الجنّة، وبمزيد من الثقة، جرؤت على تخطّي العتبة؛ ثمّ أخذت جيل بصرها في كلّ ما حولها، مبهورة بذاك المنظر الرّائع البهاء، وتنظر على جانبي البيت في الحجرات البديعة الإنشاء وكلّها ملاءى بكنوز لا تحصى؛ فليس في الدّنا ما لا يوجد هنا. لكنّ أعجب ما في تلك الكنوز أنّ لا وثاقا يحميها ولا قفلا ولا حارسا إطلاقا. فيما هي تتأمّل تلك التّحف بمتعة قصوى، سمعت صوتا مجردا من الجسم يقول لها: "لم تنظرين يا مولاتي مشدوهة إلى هذه الثّروات؟ كلّ ما هنا لك أنت؛ فتفضّلي إلى غرفتك واستريحيني من عنائك على التّخت، ثمّ استحمي متى شئت، نحن الذين نسمعين أصواتنا طاقم خادمتك المسارعات لتنفيذ طلباتك. وبعد العناية ببدنك، ستُحضر مأدبة ملوكيّة في الحين لك."

### 5-3 خدمات عالم سحريّ

أحسّست بسيشية نعيم اللّطف الإلهيّي، وأصغت إلى توجيهات الهاتف اللّامرئيّي؛ فنامت ثمّ استحمّت مزيلة كلّ عناء عنها. x فرأت في الحال مائدة نصف دائريّة وُظّبت قريبا منها.

أدركت أنّها أعدت لها فجلست بطيب خاطر حبالها. في طرفة قدّمت لها أطباق حافلة بخمر رحيق وأطعمة مختلفة، بدون نادل بل مدفوعة إليها بنفحة متلطفة. كانت لا تستطيع رؤية أحد، وإنّما فقط تلتقط الكلمات، التي تصدر حولها، ولا خدم لها سوى الأصوات. بعد المأدبة الفاخرة، دخل شخص لم تره وغنّى، ونقر آخر أوتار قيثارة لامرئيّة هي الأخرى، ثمّ بلغ سمعها إنشاد قطعة جماعيّة من البيّن، وإن لم يظهر (1) أيّ بشر، أنّه لفرقة غنائيّة.

### 5-4 العادة والسعادة

بعد تلك الملاءة، أوت بسيشية، مستجيبة لدعوة المساء، إلى فراشها؛ وصلت أذنيها، وقد تقدّم اللّيل، هفهفه خفيفة رقيقة. فخافت وارتعشت من وحشة الوحدة خشية على عذرتها فهي توجل، أكثر من أيّ مكروه، بما تجهل. ها قد أتى عريسها المجهول فاعتلى التّخت قريبا وأتمّ زواجه بسيشية وقبل طلوع النهار أسرع بالارتحال. فهبت في الغرفة الأصوات المنتظرة لخدمة العروس المفترعة في الحال؛ وتكرّرت الأمور مدّة على ذلك المنوال. وكما هي سنّة الطّبيعة أخذت بتكرّر العادة الرّتيبة تتعلّق بوضعيتها الغريبة، وكان الصّوت اللّامرئيّي عزاء وحدتها الرّهيبة (2). في الأثناء كان أبواها يُفنيان شيخوختهما البائسة في الحداد والأسى؛ وطوى الخبر الأفاق فبلغ أختيها الكبيرين (1) بيّن وإن لم يظهر...: pareret/pateret جناس مضارع مع سجع مع ترادف. (2) الصّوت اللّامرئيّي عزاء وحدتها الرّهيبة: sonus vocis incertae solitudinis erat solacium يمكن أن تكون incertae نعنا للوحدة (غير مأمونة، لا تبعث على الاطمئنان) أو للصّوت (خفيّ، مجهول)

فتركنا حالا بيتيهما حزينتين باكيتين وأسرعنا لتريا أبويهما وتحدثنا إليهما.

### 5-5 بين العرسين

ليلتها خاطب بسيشية زوجها الذي لم تكن تدرك حضوره أمام عينيها إلا بأذنيها أو يديها: ("أي بسيشية زوجتي الحلوة الحبيبة: قدر غشوم بهدك بخطر جسيم، أرى أن خترسي منه بحذر عظيم، فأختاك المفجوعتان لظنهما أنك مت على وشك القدوم إلى الصخرة اقتفاء لأثرك، فإن سمعت شكاتهما لا تردّي بل لا تنظري قطّ ناحيتهما؛ وإلا سببت لي ألما مريرا ولنفسك وبلا وثبورا." فأبدت موافقتها واعدة بالتصّرف حسب رأي زوجها؛ لكن بعد انصرافه مع انصرام الليل أمضت المسكينة في الدموع والشكاوى كامل النهار<sup>8</sup> مرددة أنها الآن أكثر من أي وقت مضى انتهت تماما، إذ هي حبيسة سجنها الهنيء، محرومة من محادثة ومخالطة البشر. لا تستطيع مدّ يد المساعدة لأختيها المتفجعتين عليها بل حتى رؤيتهما، وبدون إنعاش جسمها بحمام أو طعام، أو أي شيء يجدد قواه، أوتّ ذارفة دموعا هتنا لتنام.

### 5-6 لكل حديث عندهنّ بشاشة

ما لبث زوجها أن أتى مبكرا قليلا عن مواعده المعتاد فاضطجع على الفراش بجانبها واحتضنها بحنو، ودموعها لا تزال تبلل وجهها، وأهاب بها مترجيا: (1) "أهدا ما وعدتني يا حبيبتي؟ ماذا أنتظر أنا زوجك منك وماذا أرجي؟ ها أنت لا تكفّين طول (1) الحازم/ بعد فوات الأوان: نفس التلاعب بالألفاظ الذي رأينا في 3: 29 serie/sero.

النهار والليل وحتى في أحضان زوجك عن تعذيب نفسك. افعلني إذن ما تشائين واستجيبى لفؤادك الذي يطلب الويل لنفسه! ستذكرين نصحي الحازم فقط لما تبدئين في التدم بعد فوات الأوان<sup>8</sup>". عند ذلك أخذت تتوسّل إليه مهددة بأنّها ستموت حتى نالت موافقته على رغباتها في رؤية أختيها وتخفيف أساهما والتحدّث معهما. فاستجاب لتوسّلات عروسه بل وافق فوق ذلك على أن تهديهما ما شاءت من الذهب والحلي. لكنّه حذرهما بالبحر وحذرهما مرارا من مغبّة السّعي، تأثرا برأي أختيها الصّار إلى معرفة صورة زوجها، وإلا هوت جرّاء ذلك الفضول الأثيم من علياء ذيّك التّعيم لتقع في الحضيض ولن تحظى بعد بعناقه اللذيذ. فشكرت زوجها وقالت منشرحة: "بل الموت مائة مرّة أحبّ لي من حرمانى لذّة حياتنا المشتركة؛ فبكلّ كياني وكحبي مهجتي، أحبّك أيّا تكون ولا أعدل بك حتى كوبيدون\*. لكن أرجو أن تمّ عليّ منّة أخرى: مر خادمك زفيروس\* بإحضار أختي على بساط كالذي أقلني عليه." وطبعت عليه قبلا ملؤها التّحريض مرددة كلمات معسولة وطوّفته بذراعيها مضيضة إلى تلك الملاحظات هذه الكلمات المتحبيبة: "يا أغلى وأحلى الأزواج، يا روح بسيشية الحبيب." فأذعن الزوج مكرها لقوّة وسلطان الهوى ووعد بتنفيذ كلّ طلباتها؛ ثمّ مع اقتراب الفجر اختفى من بين أحضان زوجته مرّة أخرى.

### 5-7 لقاء الأخوات

أمّا الأختان فاستخبرتا وذهبتا فورا إلى الصّخرة والمكان حيث تركت بسيشية؛ هناك أخذتا تنوحان وتقرعان صدريهما، فردّت

الصخور صدى بكائهما. وأخذتا تناديان أختهما المنكودة باسمها. ودوى عبر الوهاد نحبيهما وسقط في أذني بسيشية فخرجت من البيت مضطربة وقد طار صوابها وهتفت: "لم تهلكان نفسكما بالتَّحِب بلا داع؟ ها أنا التي تبكيان. كفاً عن العويل وامسحاً خدودكما المبللة بدموعكما المسترسلة: فيوسعكما عناق من تبكيان." ثم دعت زفيروس\* وذكرته بأمر زوجها؛ فاستجاب فوراً لأمرها. حاملاً إليها حالاً أختها بأنفاسه الرقيقة على بساطه النَّاعم. فتعانقن طويلاً وطابت بعيد القبل أنفسهن. وعادت دموعهن بعدما هجعت جراحهن. خدوها أفراحهن. قالت: "هيا إلى بيتنا. وأعيدا البهجة إلى مهجتكما الكسيرة مع بسيشية حبيبتكما."

#### 5-8 الأختان في بيت بسيشية

قالت ذلك وأرتهما ثروات قصرها الذهبية الطائلة. وأسمنت أذنيهما أصوات طاقم الخدم المسخرين لها. ثم جدت قواهما بحمام مفتخر. شففته بمأدبة حوت ما لا يخطر على قلب بشر. فلمّا شبعنا من تلك الخيرات الربانية الفياضة، دبّ في سويداء قلبهما الحسد. أخذت إحداها تسألها بإلحاح وتدقيق عن صاحب تلك النعم الإلهية، عمّن يكون زوجها. وما صفته. لكنّ بسيشية لم تخالف بأيّ وجه وصية زوجها. ولا أخرجت ما في خفايا صدرها؛ ولققت أرحمًا أنّه فتى وسيم بدأ زغب الشباب يوشح عذاره مشغولاً بالصيد في الجبال والحقول. وكيلاً نفضح شفاتها بالاسترسال في ذلك الحديث سرّها المكنون. حملتها قناطير من الذهب المشغول والجواهر والحليّ.

ثم دعت زفيروس\* وعهدت بهما إليه لإرجاعهما.

#### 5-9 الغيرة

فنفذ الأمر فوراً؛ ولما عادت الأختان الودودتان إلى البيت أخذت نار الغيرة (1) اللادعة تكويهما وعلا لغطهما وهما تتبادلان أحاديث تنضح حسداً؛ قالت إحداها: "أيها الحظّ المتعثر الجائر الغشوم. أيطيب لك أن تتباين منابنا إلى هذا الحدّ وقد ولدنا من نفس الأبوين؟ نحن الكبريان نعطى خادمين لزوجين أجنبيّين وننتزع من بيتنا وأرض آبائنا لنقضي العمر بعيداً عن أبونا في منفى الغربة. بينما تحظى أختنا الصغرى. آخر حبات العنقود. ونتاج الرّحم المكدود. بكلّ تلك الخيرات وتزوّج إليها وهي لا تعرف حتّى كيف تستفيد على الوجه الأسلم من ذلك الفيض من الأنعم. أرايت يا أختاه كم ينتشر في بيتها من الحليّ. وأيّ حليّ. أرايت الملابس المتألّفة والجواهر المتألّثة. وكلّ الذهب المنتشر على أرضه موطئاً للأقدام؟ × وإن يكن لها حقاً زوج بالسّامة التي تقول. فلا امرأة اليوم على الأرض أسعد منها؛ بل قد يصل بزوجها تطوّر العشرة واستحكام الألفة بينهما إلى جعلها إلهة هي نفسها؛ وإنّ الأمر وعزّة هرقل\* كذلك. وبتلك الصورة كان سلوكها وتصرفها (2). ها قد غدت تتطلّع إلى أعلى. متخذة الأصوات خوادم لها وملقية إلى الرّياح أوامرها. بينما كان نصيبي. يا لنكد حظي. زوجاً هو ابتداءً أكبر من أبي. وفوق ذلك

(1) الغيرة بين الإخوة: يرى فيه القدّيس أغسطين ( اعترافات 1: 7) دليلاً على تأصل الشرّ. وقد تناولت آداب وأديان شتى الشعوب هذا الموضوع: قصّة قابيل وهابيل. قصّة الأختين الحاسدتين في "ألف ليلة وليلة"

(2) سلوكها وتصرفها: (que gerebat ferebat) إتباع.

أفرع كاليقطينة. وأقصر من أي من الأطفال. وضع البيت كله تحت حراسة مشددة خلف الأعلال والأقفال.

### 5-10 المؤامرة

ردت الأخرى: "أما أنا فبليت بزواج عرجه النقرس وحناه. لا يكاد يلتفت إلى زهر شبابي جزاه. فأنا أفني العمر في تمسيد أصابعه المحقوفة المتكلسة. وأثفن يدي الناعمتين بالضماند النتنه والكمادات القذرة واللصائق العفنة: لا أقوم لديه بدور الزوجة الودود العروب بل الممرضة الكدود الدؤوب. يبدو أنك يا أختاه ماضية في أداء وظيفة شبيهة بجلد أو بالأحرى بخناعة، إن قلت ما أحس بصراحة: أما أنا، فلا أستطيع أن أحمّل مرأى تلك البحبوحة ألت إلى غير أهلها أطول. تذكري بأي زهو وأي كبر كانت تعاملنا، وبأي تباه وأي تبجح نقاج كانت تنفش نفسها أمامنا. وكيف رمّت لنا غصب نفسها بغيض من فيض خيراتها. وسرعان ما ملّت وجودنا معها فأوعزت بترحيلنا بالصفير بل بالثفيخ! قسماً ما أنا امرأة ولا جديرة بالحياة إن لم أنزلها من تلك الأبهة إلى الدرك الأسفل: وإن كنت أنت أيضاً خستين. كما يُفترض. حرقه حقرتينا. فلنبحث عن خطة ناجعة فيما بيننا. يجب بدءاً ألا نبدي ما نحمل لأبويننا أو لأي سواهما. ولا حتى علمنا شيئاً عن حالها. يكفي أننا رأيناها نحن اللتان نموت أسفاً على مرأها: فلا نردّ نفسنا كمدنا بنشر الخبر السعيد بين أبويننا وكلّ الناس: فما بالسّعداء من لا يعلم ثرواتهم أي راء. ولتعلم أننا أختاها الكبريان لا خادمتها: والآن لنرجع إلى زوجينا وبيتينا الفقيرين لكن الخالين قطعاً من القصوف: ولنعدّ مستعدّتين

بعد التفكير الملبّي المتأني وأصلب عزمنا لمعاينة غرورها.

### 5-11 تحذير جديد

راق للشّيرتين سوء مكرهما فأخفتا كلّ الهدايا النفيسة وعادتنا إلى البكاء الملبّي بالترياء، قاطعتين شعرهما وخادشتين خدودهما كما تستحقّان فعلاً. مؤجّجتين بذلك أوجاع أبويهما التي سكنت قليلاً قبلاً. وتركتاهما بعجل قاصدتين بيتيهما تميّزان من نار غيظهما. لتدبرا لأختهما البريئة مكيدة ماكرة بل جريمة منكرة. في الأثناء حذر بسيشية مجدداً زوجها الذي لم ترفي أسماهما الليلية أبداً: "أترين أي خطر يهددك؟ ها أن الحظّ يناوشك من بعيد، وعمّا قريب يصارعك وجها لوجه إن لم تحتاطي لنفسك جيّداً. ذئبتان مداجيتان جتهدان لإعداد مكيدة فظيعة لك، ملخصها إقناعك باستطلاع صوتي التي. إن تربها فلن تربها بعد مطلقاً. كما قلت لك وكترت سابقاً، لذا لما تأتيك مستقبلاً تانك السّعلتان\* الماكرتان. مضمرتين لك شرّاً. وإني لوانق أنّهما ستأتيان. فلا تخوضي في حديث معهما، وإن تعذّر عليك حمّل ذلك لسلامة طويتك، فعلى الأقلّ لا تسمعي منهما أي سؤال عن زوجك أو تردّي عليه. واعلمي أنّ أسرتنا ستزداد فإنّ رحمك هذا الذي ما زال في طور الطفولة يحمل لنا طفلاً آخر. إلها خالداً إن حفظت أسرارنا طي الكتمان. وإن هتكته فبهينة الإنسان."

### 5-12 وآخر أخير

تهلّلت بسيشية انشراحاً بالبشرى. وصفقت ارتياحاً لأمل

السِّلِيل الإلهيَّ، واهتَزَّت فرحا بمجد الحبيب الأتي. وابتهجت بشرف اسم الأمومة، وها هي في شوقها تعدُّ (1) ما مضى من الأيام والشُّهور، وترقب معجبة تطوّر حملها من بُدْءات غير مميزة إلى انتفاخ ضخّم لرحمها في مدّة وجيزة، لكنّ جنّيتي النّعمة\* الحاقدين التّافثتي سمّهما التّافع أبحرنا إليها متعجّلتين تنفيذ خطّتهما. فعاد الرّوَج إلى حَذير بسيشية: "ها قد أُرِف اليوم الفصل والامتحان الأخير. هذا عدوك الذي هو من جنسك ودمك امتشق سلاحه واتّخذ مواقعه وسوّى صفوفه واستنفر للانقضاء عليك: أجل لقد جرّدت أختاك الغادرتان السّيف لنحرك، أية كوارث كبرى توشك أن حُلّ بنا يا بسيشية العذبة: فرحمةً بنفسك وبنا، ولتقي بصيانة سرّنا المقدّس عشّنا ونفسك وصغيرنا شرّ دمار داهم. لا تري ولا تسمعي تينك المجرمتين اللّتين لا يجدر بك إزاء حقدهما الدّمويّ ودوسهما روابط الدّم أن تسمّيهما أختيك، لما تطلقان من أعلى الصّخرة، كعرائس البحر\* نداءاتهما المشؤومة فتدوي بها جلاميد الوادي."

### 5-13 سلاح المرأة

ردّت بسيشية مختنقة بغصصها وعبراتها: "لقد أتيح لك منذ مدّة، على ما أعلم، تقدير مدى أمانتي وتكّمي، وستتّبت لك هذه المرّة أيضا صلابة نفسي. مُر فقط خادمنا زفيروس\* بأداء خدماته مرّة أخرى، وعوّضني عن رؤية طلعتك الإلهية الحُرمة عليّ على الأقلّ بروية أختي. أناشدك بحُصل شعرك الفوّاحة

(1) وها هي تعدّ: ينتقل أبوليوس من ماضي الوصف (=الطمأنينة) إلى مضارع السرد (=الشوق والقلق).

بذكيّ الطّيب المتدلّية على جبينك، وبخديك الغصّين الأسيلين الشّيبهين بوجنتي. وبهذا الحزن التّابض بحرارة غريبة لأتعرّف محيّاك على الأقلّ في صغيرنا. استجب لتوسّلات امرأة حائرة وتضرّعاتها الحارة بمنحي نعمة تقبيل أختي، وأحي روح بسيشية الخالصة لك المتفانية. لن أطلب بعد المزيد عن صورتك، فحتّى ظلمات اللّيل لا تزعجني، ما دمت أنت معي يا نور عيني." فُتن الرّوَج بهذه الكلمات وبغنج عناقها فكفّف بشعره دموعها ووعد أن يفعل وراح قبل أن يدركه الصّباح.

### 5-14 نفاق

من السّفينة توجّهت الأختان المتلازمتان، ثنائيا وخذته المؤامرة الآن، دون رؤية أبويهما رأسا إلى الصّخرة للاندفاع بسرعة؛ ودون أن تنتظرا حضور الرّيح لحملهما قفزتا بجساره جنونيّة إلى الأعماق. لكنّ زفيروس\* الذي لم ينس أمر مولاه تلقّاهما، وإن كرها، في حزن نسمنه اللّطيفة وهبط بهما على الأرض. وعلى الفور وبدون تردّد دخلتا البيت بخطى حثيثة، وعانقتا فريستهما بصفتها أختيها زورا، وتملّقتها مخفيتين في أعماقهما كنوزا من الغدر خلف وجهين يفيضان سرورا. "بسيشية، لم تعود صبيّة كأمس؛ ها قد صرت أمّا؛ أيّ بشرى حَمَلين لنا في استدارة بطنك الحلو الصّغير! وأيّ أفراح ستبعثين في بيتنا كلّ! × هنيئا لنا ونعمّا تنشئة طفلك الحبيب! إن شابيه، كما يحرى به، بهاء أبويه، فكوييدونا\* سيولد بقينا!"

5-15 الكذب فنّ أو لا يكون

بهذا التّودّد المليء رياء خلبتنا شيئا فشيئا لبّ أختهما؛ ثمّ إنهما جلسنا فاستراحنا من وعناء الطّريق وانتعشنا بحمّام ساخن. وردّت لهما الرّوح بمائدة فاخرة صُقفت عليها الأظعمة الشّهية واللّحوم المقلّية. ثمّ أمرت القيثارة أن تنكلم فعزفت. والمزامير أن تشتغل فشدت. وفرقة الغناء أن تنشد فأنشدت: فكانت أنغام حلوة خفيّة المصدر تبعث السّكينة في نفوس السّامعين. لكن حتّى رقة تلك الأنغام العذاب لم تلطف غلّ القهرمانتين الشّرسيتين. بل حوّلتا الحديث إلى الشّرك الذي حدّدنا بخطّتهما الماكرة وأخذتا تسألانها عن زوجها صفته وبلدته مخفيتين غابتهما. ولسذاجتها نسيّت سابق روايتها(1) وأتت بكلام جديد. زاعمة أنّه تاجر ذو مال مدود. ومن بلد قريب. وكهل في أواسط العمر وخطت شعره بدايات مشيب. واختصرت حديثها. ثمّ أعادتهما على بساط الرّيح محمّلتين بأنفس الهبات.

5-16 ارتياب الأختين بكذبة بسيشية

أثناء عودتهما. محلّقتين على نسمة زفيروس\* رُخاء. راحتنا تتحاوران بمرارة: "ما نقول يا أختاه في أكاذيب هذه الحمقاء الفاحشة؟ مرّة فتى يزهّر زغب غصّ بلحينه، والمرّة التّالية كهل في أواسط العمر ضحك المشيب بهامته؛ فمن يكون تُرى هذا الذي غيّره في مدّة قصيرة شيب مفاجئ؛ إلى هذا المدى؟ نسيت كذبتها السابقة؛ يذكر الكاتب في المرافعة مثلا يقول: يحسن بالكاذب أن يكون ذا ذاكرة جيّدة.

لا تفسير لذلك يا أختاه سوى أنّ هذه المرأة السّوءى تفتري كذبا أو تجهل صورة زوجها؛ وفي كلتا الحالتين يجب أن نخرجها من عيشها الرّخيّ بأسرع ما يمكن. وإن صحّ أنّها تجهل وجه زوجها. فلا بدّ أنّها تزوّجت إلها وتحمل في بطنها إلها؛ وإمّا تمسينّ. لا شأنا الأقدار. أمّا لطفل إلهي(1) لأشنعنّ في الحال نفسي بخرته حبل. في الأثناء. هيّا نعد إلى أبوبنا ولنختلق لهما أكاذيب من قبيل ما قالت(2).

5-17 افتراء ماكر

في حرقتهما. بعد كلمات عجلى مع أبوبهما وليلة مؤرّقة مكدّرة. طارتا في الصّباح الباكر وقد طاش صوابهما إلى الصّخرة. ومنها هبطتا بعون الرّيح المعتاد في لمح البصر؛ وبدموع اغتصبتها من العيون من فرط حكّ الجفون توّجّهتا إلى الفتاة الغرّة بهذا الكلام التّاضح مكرًا: ٨ "أنت جليسين هانئة سعيدة لجهلك بالشّتر العظيم. غير أبهة بالخطر المترّص بك. بينما نحن اللّتان نسهر حرصا على حوائجك نذوق سوء العذاب من مصائبك. لقد علمنا يقينا. ولشاطرنا إيّاك طبعًا محتك وأساك لا نستطيع أن نخفيك أنّ ثعبانا ضخما يزحف جازًا أثناءه المتعدّدة المتّوّجة. وينفث من أوداجه سمّا ذعافا. ويفغر فاه عن جوف سحيقة، هو الذي يضطجع معك متخفّيا كلّ ليلة. تذكري

(1) أمّ لطفل إلهي: هناك في الميثولوجيا اليونانيّة والرّومانيّة عديد الأمثلة على زواج بين الآلهة والبشر.

(2) لنختلق أكاذيب من قبيل ما قالت: exordio sermonis huius quam concolores fallacies adtexamus أو: لنختلق تتمة لحديثنا أكاذيب (أو حيلًا) توافقه؛ أو ربّما: لإعداد ما سنقول لبسيشية.

نبوءة العزّاف (1) التي ذكرت أنّك معدّة للزّواج بوحش شرس؛ ولقد رآه فلاحون عديدون ومن الجوار يصطادون وسكان كثيرون يعود من مرعاه مع الغروب ويسبح في مياه النّهر القريب.

### 5-18 فضح نوايا الوحش

الكلّ يؤكّدون أنّه لن يستمرّ في تسمينك بلذيذ الأطفعمة ولطيف الدّلح مليّاً. فما إن ينضج حملك حتّى يلتهم فريسته كثمرة أحسن رثيا ورثيا. والرّأي لك والخيار بين موافقة أختيك الحريصتين على حياتك الغالية والعيش معنا في أمان بمنأى من الأخطار. أو دفنك في جوف وحش ضار. وإن أعجبتك وحشة هذا الخلاء المأهول بالأصوات. وهذه الخلوة المستخفية المقرفة والمليئة بالمهلكات. وعناق ثعبان سامّ أفعوان. فسنكون على أيّة حال قد أدبنا ما علينا كأختين بائتين. "أرجّح على بسيشية المسكينة من هول أقوالهما المربعة لسذاجة قلبها التقيّ. وطار صوابها ونسيت خذيرات زوجها وعودها. وألقت بنفسها في الهاوية؛ ردّت عليهما مرتعشة. غائرة اللّون شاحبة. مهمهمة كلمات متقطّعة بصوت متلعثم لا يكاد يبين.

### 5-19 الوقوع في المصيدة

"لقد دأبتما يا أختيّ الغاليتين على أداء ما يملئ عليكما برّكما كما كان يحرى بكما؛ وبالفعل لا يبدو لي أنّ من يؤكّدون تلك الأمور يكذبون. أنا فعلا لم أر أبدا وجه زوجي. ولا أدري من أيّ بلاد هو. إنّما أسمع فقط هسهسته ليلا. متقبّلة زوجا غامض (1) نبوءة العزّاف: sortis Pythicae يستخدم أبوليوس اسم بيثية. عزّافة معبد دلفي. في معنى عامّ.

الهيّبة يفّر من الصّيباء. ومرتضية بحقّ وحشا كما تقولان بصدق(1). وهو لا ينفكّ يخوّفني من مغبّة رؤيته. وينذرني شرّاً عظيما من حبّ مشاهدة طلّعته. والآن إن تستطيعا تقديم عون لإنقاذ أختكما المعرّضة للأخطار. فبادرا إلى مساعدتي دون انتظار. فالإحجام عن المساعدة بعد الإنذار من الخطر يفسد هذا الجميل. "هكذا لقيت المجرمتان نفس أختيهما عارية مفتّحة لهما أبوابها. فتخلّتا عن تخفي آلة الحرب المدسوسة وجردتا سيف الغدر وانقضّتا على فكر الفتاة الساذجة المليء بالخاوف.

### 5-20 الدّين النّصيحة

قالت إحداهما: "تقتضينا وشائج القربى ألاّ نضع نصب أعيننا أيّ خطر في سبيل سلامتك. لذا سنطلعك على طريق فكّرنا بها طويلا طويلا. هي وحدها الكفيلة بإيصالك إلى برّ الأمان. خذي مطواة ذرية واشحذيهما على لوحة مسنّ ثمّ أخفيها جيّدا في الفراش. في الجهة التي اعتدت النّوم فيها. ودسّي سراجا صغيرا مليئا بالزّيت ذا ضوء وضّاح في قعر مكبال. خبّي العدّة جيّدا. ولما يأتي زاحفا ساحبا أذياله. فيرتقي إلى مضجعه المعتاد ويتمدّد. ثمّ يستولي عليه خدر النّعاس. ولا يلبث أن يغطّ في نوم عميق. × تسلّلي حينذاك من الفراش وامشي الهوينى حافية القدمين. مخفّفة وقع خطاك؛ ثمّ بعد ما خترين من سجن الظّلام البهيم نفسك بالسّراج(2) خبّي على هدي (1) أرثضي بحقّ وحشا كما تقولان بصدق: bestiam(que) aliquam recte وحش كما تقولان صدقا. (2) بعدما خترين نفسك بالسّراج: liberata lucerna أو: بعدما خترين السّراج.

ضوئه فرصة لتنفيذ فعلتك (1) البطوليّة. خذي الخنجر بعزم وارفعي يدك عاليا فاقطعي بضربة شديدة مجمع الهامة والعنق من الثعبان المرید. ولن تعدمي العون منّا؛ فحالما حَقَّقين بموته الخلاص لنفسك ستجديننا بانتظارك على أحرّ من الجمر. وبعد أخذ كلّ هذه الكنوز بسرعة معك (2)، سنزوّجك وفق مناك إنسانا مثلك."

### 5-21 تردد بسيشية

بعدهما أجبنا بهذه الأقوال حريفا في أعماق أختهما التي غدت متحمّسة للخطة تماما تركتاها بعجل لخشيتها على نفسيهما القرب من موقع المأساة الرهيبة. حملتا فورا على جناح الريح وبالدفع المألوف إلى الصخرة وما إن حطتا فوقها حتى لاذتا بالفرار من الخطر فاستقلتا فورا سفينتهما وارتختا. أمّا بسيشية التي تركتاها وحيدة، وما كانت حقا كذلك إذ أتت جنّيات النّمة\* يكدّرن نفسها، فكانت تضطرب في كربها كالبحر المتلاطم، ورغم صمود عزمها وصلابة تصميمها، بل حتى وقد بدأت تُعدّ بيدها للجريمة. ظلّت تتأرجح حيرى تتنازعها في مأساتها مشاعر شتى، متعجّلة متمهّلة، مُقدمة مُحجّمة، قانطة حانقة (3)، بل، وهو أدهى، في نفس الجسم مبغضة وحشا

(1) فعلتك: tui facinoris يستخدم أبوليوس كلمة تختصّ عادة بالفعال الذميمة، تقريبا كأفعولة في العربية.

(2) أخذ الكنوز معك: تأويلان ممكنان: تأخذين الكنوز معك، أو نأخذك ومعك الكنوز.

(3) متعجّلة/متمهّلة...: أنت هذه الثنائيات المتضادة في صيغة أفعال مع فصل asyndeton يعطيها قوة يصعب نقلها إلى العربية (حيث يستخدم

ومحبّة زوجا؛ ثم ضمّتها المساء، حاملا في أعقابها الدّجى، فأعدت للجرم عدّتها بعجلة متهورّة. حلّ الليل وأتى زوجها فما لبث بعد مناوشات الهوى الأولى أن غرق في نوم عميق.

### 5-22 الوحش

إذّاك، ومشيئة القدر الغاشمة، استجمعت بسيشية الضّعيفة في غير تلك اللّحظة جسما وعزما قواها وحملت المسرحة واستلّت المدية وسرت فيها شجاعة الذّكران. لكن ما إن اتّضحت على ضوء المسرحة أسرار تخنها حتى رأّت أعذب وأرقّ الوحوش كلّها، رأّت الإله البهّي كوبيدون\* ذاته ينام بهاء؛ فتنامى لمشهده ضوء المسرحة وقد مسّته سزّاء، وخجل الخنجر بذبابه المتطاوّل على جلال الألوهة. أمّا بسيشية فقد وقعت في روعها من جلال المشهد رهبة، وخذلتها قواها، وغشيتها شحوب وذهول، وخرتت جاثية على ركبتيها؛ وهمت بإخفاء السلاح. لكن في صدرها، كانت ستفعل حتما لو لم تنطّ المدية، لهول الجريمة، مفلتة من يدها الأثيمة: ظلّت طويلا تتأمّل خائفة مبهورة بهاء وجه الإله، ثمّ ما لبثت أن استفاقت من غشيتها. نظرت إلى شعر الرّأس الذهبّي المضمّخ برحيق الآلهة والجيد البضّ والحديّين المتورّدين المزدانين بأفواس الدّوائب، تدلّى بعضها إلى الأمام وارتدّت بعضها إلى الوراء، وأشعّت بسنا اهتزّ له ضوء السراج نفسه، وعلى كتفي الإله المّجّح تألّق ريش كالزّهرة المبلّلة

الفصل أكثر مع أفعال الأمر كقول المتنبي: أفل أنل أقطع أحمل علّ سئل أعدّ/ زد هسّ بشّ تفضّل أدنّ سّرّ صلّ؛ أو: عيش أبقّ أسمّ جدّ مرّ أنه اسرّفه تسّل/ غيظ أزم صبّ أحمّ اغرّ أسبّ رّع دلّ أننّ نلّ أو مع النّعت والحال: مكّر مفرّ مقبل مدبر معا).



بالتدى (1). وعلى حافة الجناحين الساكنين. كان زغب غصّ ناعم يهتز مرتدًا في رعشة لطيفة. وباقي الجسم نير أملود لا نخجل بإجابه على تلك الصورة حتى فينوس\*: وأمام قوائم التخت ألقيت القوس والسهم والكنانة، أسلحة الإله المباركة.

### 5-23 الجريمة...

لبثت بسيشية تتأمل وتمعن في قسماته بفضول لا يشبع. وتعجب (2) من أسلحة زوجها. ثم استلّت من الكنانة سهمًا. أرادت اختبار حدّته على أملة إبهامها. فغرزته فيها عميقًا بضغطة قويّة من سلامها المرخفة حتى تلك اللحظة. جعلت قطرات دقيقة من دمها المشرب بلون الورود تنبجس على أديم بشرتها. هكذا وقعت بسيشية من تلقاء نفسها وبدون أن تدري في حبّ إله الحبّ؛ فأخذت تتقد بهوى كوبيدون\* أكثر وأكثر وانحنى عليه تغمره بجحيم من القبل العريضة المتلظية (3) بنهم وتعجّل. خائفة من ابتسار نومه. لكن فيما هي تضطرب سقيمة الفؤاد حيرى في تلك السعادة السكرى. أسالت المسرحة من أعلى ذبالتها، غدرا ودناءة أو حسدا وإساءة أو تحرقا للمس جسم الإله ولثمه بنحو ما بدورها. قطرة من زيتها المحرق على كتف الإله اليمنى. فيا لك. أيتها المسرحة الجسورة الأثيمة من خادم كلّ للهوى. ها قد أحرقت بنارك من بناره يكتوي الجميع.

(1) ريش بزاق كالزهرة التديّة: pinnae roscidae micanti flore في النّص مبادلة بين النّعتين.

(2) تمعن/تعجب: rimatur/miratur جناس معكوس.

(3) القبل العريضة المتلظية: patulis ac petulantibus saviis جناس ناقص استهلالي.

أنت التي ابتدعك يقينا في البدء عاشق ليقهر بك ظلام الليل أطول وقت يمكن! هبّ الإله منتفضا من الحرقه واكتشف كيف نُكث عهده وهُنك سرّه فطار في الحال بعيدا عن شفتي ويدي زوجته البائسة دون أن ينبس بكلمة.

### 5-24... والعقاب

لكنّ بسيشية أمسكت فورا. لحظة نهوضه. رجله اليمنى بكلتا يديها وتعلّقت به بمسكنة مثيرة للرّثاء بينما راح يصعد في السّماء. وتبعته متشبّثة إلى طبقات السّحاب العلى. حتى خارت قواها فهوت على الثرى. لم يرض الإله العاشق بتركها طريحة الأرض. فهبط على سرورة قريبة. خاطبها من أعلاها بتأثر: "أي بسيشية الغريبة. أنا من أجلك عصيت تعليمات أمي فينوس\* التي أمرتني أن أعلّقك حبّ أخسّ وأنعس إنسان. وأوقعك في أحطّ قران؛ بدلا من ذلك طرت إليك صبا بك ولهان. لكنّي فعلت ذلك طيشا. كما أدرك الآن. ونفسي رميتُ أنا أبرع الرّماة بسهمي. فاتخذتكَ زوجة لتري فيّ وحشا وتطعني بخنجرك رأسي الذي يحمل عينين تدوبان في عينيك حبّا. مرارا أنذرتك وحدّرتك وجميلّ التّصح محضتك؛ لكن ستتلقي مستشارتاك الفذتان متي حالا جزاء تغريهما بك. أمّا أنت فبهجري سأعاقبك!؛ ولم ينه قوله حتى انطلق في أعالي الجوّ.

### 5-25 نصيحة إله الرّعاة

ظلتّ بسيشية جاثية على الأرض تشاهد على امتداد البصر طيران إلهها وتذهب نفسها حسرات؛ ولما غاب عنها. لطول

المدى. زوجها المحمول على مجاذيف من ريش. جرت لترتمي من حافة نهر قريب. لكنّ النَّهر سارع مترفقا. مهابة ومخافة الإله الذي طالما ألهب حتى المياه. فوضعها برقة من على موجته المتلطفة على ضفته المزهرة عشبا وأبا. بالصدفة كان الإله الرّيفي بان\* جالسا قريبا من هناك على ضفة النَّهر. معانقا حورية الجبال إيخو\* عازفا على مزماره أعذب الأنغام ليعلمها. وعلى كذب كانت عنزاته ترتع وتمرح في المرعى الرَّحب. قاطفة هنا وهناك من كلال الوادي النَّضير. دعا الإله النَّيس بسيشية العليلة الكسيرة إليه برفق. وما كان في الواقع يجهل قصتها. ولاطفها بهذه الكلمات: × "يا صغيرتي الحلوة. لست إلا راعيا ريفيا. لكنني بلغت من العمر عتيا وأكسبنتي السنون جارب عديدة: وإن صدق ظني. وهذا بالذات ما يدعوه الحكماء عرافة. فإني أحس من خطوتك المترنحة. وشحوب جسمك. وتنهّدك المستمر. وعينيك الذابلتين. أنك تعاني من هوى جبار. فأصغي إلي نصحي. ولا تهلكي نفسك بالارتداء في النَّهر من جديد أو بأية مية أخرى: كفي عن البكاء ودعي الأشجان واستعظفي بالأحرى كوبيدون\* أعظم الآلهة بالتوسّل والضراعة. واسترضيه بالملاطفات والطاعة. فهو غلام مفرط في الدلال والخلاعة."

### 5-26 بسيشية عند أختها الأولى

هكذا تكلم الإله الرَّاعي: فلم تردّ بسيشية واكتفت بالسّجود حمدا لألطافه: ثمّ هامت. حتى أعيها المسير. بين الدّروب. ووصلت عرضا بها الطّريق مع الغروب إلى المدينة التي عليها زوج إحدى أختيها. لما علمت بذلك طلبت إخبار أختها

بمقدمها: فأدخلت. وبعد السّلام سئلت عن سبب مجيئها فأنشأت تقول: "تذكرين نصيحتكما لي بشأن الوحش الذي ينام معي منتحلا صفة الرَّوج. إذ أشرتما عليّ بقتله بمدية ذات شفرتين قبل أن يلتهمني. يا ويلتي. في بلعومه الشّره الرّهيب. لكن لما كشف لي قسماته ضوء المصباح. الذي كنت أحمله كما أشرتما أيضا. رأيت منظرا عجبا بل مشهدا إلهيا يسطع مهابة وجلالا. ابن الإلهة فينوس\*. أجل كوبيدون\* نفسه ينام في دعة وهناء. فبينما أنا مخطوفة أمام مشهد ذيك النّعيم. مضطربة النَّفس من فرط اللّذة. أتعدّب لقلّة (1) صبري على الاستمتاع بحسنه الفتان. لسوء الحظّ وقعت من السّراج قطرة زيت حارقة على كتفه. فنهض فورا من نومه ولما رأني أحمل خنجرا ونارا صاح فيّ: "جزاء فعلتك السّوءى. اذهبي فورا من فراشي لحالك وخذي من هنا كلّ متاعك. فإني عازم على الرَّواج على شرع يوبتر\* من أختك". وذكر اسمك. وأمر فورا زفيروس\* أن ينقلني بنفخه خارج قصره."

### 5-27 الانتقام

قبل أن تنهي بسيشية كلامها. استولت على أختها حوافز الشّهوة المسعورة والحسد الحقود: فخدعت زوجها بكذبة لفتتها للظّرف. متذرعة بتلقّيها نعي أبويها. وأبحرت حالا. وفور وصولها توجّهت إلى الصّخرة. ومع أنّ ريحا أخرى كانت تهبّ إذاك. أعماها الأمل الكاذب. ومن لهفتها ارتمت بقفزة هائلة في الفضاء قائلة:

(1) فرط/قلّة: copia/inopia جناس مع مقابلة زيدها قوّة صيغتا المبالغة السّابقتان tanti,nimia.

"خذني إليك يا كوبيدون\* زوجة تليق بك، وأنت يا زفيروس\* تعال احمل سيّدتك." لكنّها لم تستطع الوصول إلى ذلك المكان حتّى ميّته؛ فقد تقطّعت أوصالها وتبعثرت على كنل الصّخور حيث بقيت أشلاؤها جزر السّباع والطّيور؛ وهكذا هلكت كما تستحقّ شرّ الهلاك والثّبور. ولم يتأخّر عقاب الثّانية؛ إذ عادت بسيشية تضرب في الأرض حتّى وصلت مدينة أخرى تقيم فيها بنحو مماثل أختها الكبرى. فأسرعت إلى الصّخرة بدورها. مدفوعة بنفس الكذبة من أختها. ويرغبة ماثلة في زيجة نكراء، ومنها هوت كالأولى إلى ميتة شنعاء.

#### 5-28 غضب فينوس على ابنها

ثمّ مضت بسيشية تذرع الأرض بحثا عن كوبيدون\*؛ أمّا هو فكان مضطجعا على فراش أمّه يئنّ متوجّعا من حرقة المسرّجة. فأسرع الطائر الأبيض السّابح بجناحيه فوق اللّجة. النّورس الملامس للموجة، إلى أعماق ملكة أقيانوس\*. هناك وجد فينوس\* تغتسل وتسبح فمكث غير بعيد وأخبرها أنّ ابنها حرق وهو طريح الفراش يئنّ من وجع الجرح المبرّح. ضعيف الأمل في الشّفاء. وأنّه سمع، عبر الشّائعات وشتّى الأقاويل التي يتناقلها النّاس في كلّ مكان أسوأ القدح في أسيرة فينوس\*: هو على جبله منغمس في الخلاعة، وأنت في البحرفي اللّهو والسّباحة. لذا اختفت الشّهوة والأنافة واللّطافة، وعمّت اللّامبالاة والخشونة والجلافة؛ واختفت روابط التّروحيّة وعلاقات الصّداقة وحبّ الدّريّة، وسادت قذارة مفرطة وقرف مغث لعلاقات مستوحشة بين البشريّة(1). راح الطّير الفضوليّ المهذار ينقنق

في أذنها مرّقا عرض ابنها؛ فهتفت غضبي لحينها: × "أتخذ إذن ولدي الفاضل خليّة؟ هيّا أنبئي. أنت الذي تخدمني بحبّ دون سواك. باسم التي غوت ولدي الغرّ الأجرد الفؤاد. أهي واحدة من شعب عرائس المروج والأنهار\* أم من حوريّات الفصول\* أم من فرقة ربّات الفنّون\* أم من طاقم تابعاتي إلهات الرّواء\*؟" لم يكتفم الطّير الثّرثار السّرّ. وأجاب: "لا أدري يقينا يا سيّديتي. لكنّ أظنّ فتاة تدعى بسيشية إن صدقتني ذاكرتي هي التي يهوى بكلّ كيانه حسبما يروى." هتفت فينوس\* وقد استشاطت غضبا: "أبسيشية حقّا مختلّسة حسني ومنتحلّة اسمي يهوى ابني؟ لا إخال هذا الولد إلّا اعتبرني إحدى القوّادات تعرّف بدلالاتها على تلك الفتاة."

#### 5-29 فينوس توبّخ ابنها

جمجمت بتلك الكلمات مغضبة وخرجت من البحر مسرعة؛ فقصدت لتوها تختها الذهبية. لتجد هناك ابنها سقيما كما قيل لها؛ زعقت من العتبه بأعلى صوتها: × "أهذا تصرّف شريف يليق بنسبنا وبطيب أرومتك؟ بدءا تتجاهل تعليمات أمك وسيّدتك، فلا تعذّب عدوّتي بهوى شائن وفق رغبتني. فوق ذلك تربط معها وأنت عيّل في مثل هذه السنّ علافة مبتسرة ماجنة لتفرض عليّ كما أرى عدوّتي كتنّة. أتظنّ أيّها السّفيفه (1) نتائج غياب الحبّ: هذه الفقرة رغم طابعها الهزلّي ذات مضمون فلسفيّ؛ فهي تقدّم الحبّ كحافز قويّ للنّفس البشريّة وأساس للمدنيّة، ولا تبعد عن بعض خاليل مدرسة فرويد. كذلك قد تعيد إلى الأذهان فلسفة إبنادفليس التي تجعل منه قوّة كونيّة أو بعض أفكار أفلاطون في "المأدبة" التي يذكرها أبوليوس في "المرافعة" 12؛ وخجذ في قصيدة "فكرة الفنّان" لأبي القاسم الشّابّي ما يشبهها إلى حدّ ما. في قالب شعريّ رومنسيّ.

التكد المفسد. أتك خلف السلالة الأوحد. وأتي مقلات لم أعد بسبب السنين قادرة على إجاب البنين؟ × اعلم إذن أتي أنوي إجاب ولد آخر خير منك. بل سأتي نكايه بك أحد خدمي عوضا عنك. وأمنحه هذين الجناحين وهذه الأقباس والقوس والسهم وكلّ العدة التي لم أعطك لهذه الغاية؛ فلا شيء منها قُدم لك من ممتلكات والدك لتجهيزك.

### 5-30. وتقرّر معاقبته

الواقع أنك كنت منذ نعومة أظفارك سيء التربية. لا تكفّ يداك عن الخمش والحدش. ولطالما أذيت بوقاحة من هم أكبر منك. حتى أمك. نعم حتى أنا أيضا. تلاحقني يوميًا بمضايقاتك يا أعقّ البنين. ومرارا لم تنوّر عن ضربي. بل واضح أنك تزدبرني كأرملة ولا تخشى زوجي السيد البطل القرم. وبلك كم قدّمت له السّراري لإغاطتي! لكن لأجعلتك تندم على عبثك وتجرّع من زواجك العذاب غصصا(1). لكن ماذا أفعل الآن وقد بت أضحوكة الجميع؟ وإلى أين أتوجّه؟ وكيف أسيطر على هذا الأفعوان؟ أطلب العون من عدوتي الرّزانه (سوبريتاس) التي طالما أغظتّها بسبب فسقه هو نفسه؟ أيجب أن ألقى تلك السّمجة؟ يا للكرف! لكن لا يجب الإعراض عن أسوة الثّار أيا كان مأتاها. لا بدّ لي أن ألبأ إليها هي دون سواها؛ فهي وحدها تستطيع إنزال أقسى العقاب بهذا السّفية وإفراغ جعبته ونزع نصال سهامه وإرخاء قوسه وإطفاء مشعله وحتى إرغام جسمه على

(1) زوجي: ليس المقصود إذن فلكانوس بل عشيقها مارس. في بقية حديثها تنتقل إلى مخاطبة نفسها.

أمر الأدوية. وسأعتبر أنه كفر عن إساءته لي لما تزيل شعره الذي طالما لامسته بيدي. ملقيه عليه ذلك السنّا الذهبّي. وجرّ ريشه الذي صبغته من كوثر ثديي العسلي(1).

### 5-31 عتاب

قالت ذلك واندفعت خارج البيت ناقمة غضبي. في واحدة من السّورات الفينوسيّة(2) فلقيتها كيريس\* ويونون\* وإذ رأنا احتقان وجهها سألتها لماذا تشدّوه بتقطيب حاجبيها بمنزل ذلك الاحتداد فتنة وسحر عينيها. ردّت: "أنتما في الوقت المناسب لتعينايني على شفاء غلّ صدري: فابذلا أرجوكما قصارى جهدكما في البحث عن بسيشية الفارة بل الطّائرة منّي؛ لا إخالكما جهلان فضيحة أسرتي التي غدت على كلّ الألسن. ولا فعال ابني الذي لا يستحقّ هذا الاسم منّي." كانتا على علم بما حدث. فحاولتا تهدئة غضبها الأهوج قائلتين: "أبي سوء فعل ابنك أيتها الإلهة حتى تصدّي بصرامه لرغبته. بل وتسعي بإصرار إلى إهلاك محبوبته؟ أأجرم إن راقت لعينيه غادة حسناء؟ أجهلين أنه بات شابًا بالغا. أم نسيت عمره ترى؟ أم يبدو لك دوما طفلا لأنّ السنين لم تفقده طراءة الصّبا؟ × أنت أم وامرأة عاقلة. فهل ستظللين دوما تتجسّسين على لهو ابنك وخاسبينه على نرق الشّباب. وتؤاخذينه على أفانين اللّهو واللّذات التي ابتدعتها أنت بالذّات؟ × ومن من الآلهة أو البشر يرضى أن تنشري في الكون غواياتك

(1) من كوثر ثديي العسلي: gremio nectarei fontis مجاز مرسل. أو: من ثديي ذي الكوثر العسلي.

(2) في سورة فينوسيّة: استخدام التّصّب accusativus بدل جرّ الطّرفيّة ablativus كما في الشّعور.

بينما تضيّقين بنحو ممّض على حبّ (1) أهل بيتك، وتغلقين المعهد العام لتعليم خطايا حبّ الغواني؟" بهذا الدّفاع راحت الإلهتان تتملّقان كوبيدون\* الفتان في غيابه خشية سهامه؛ لكنّ فينوس\* أدارت لهما قفاها، مستنكرة أخذ الإلهتين الأدنى منها مأخذ الهزل شكواها، وحائثة إلى البحر خطاها.

## الكتاب السادس

### 6-1 في المعبد

في الأثناء ظلّت بسيشية تهيم قلقه بين الدّروب، أيّاما وليالي في بحثها الدّؤوب، راغبة بكلّ قلبها في استرضاء بعلاها بتضرّعات الأمة المستعطفة إن لم يخفّف غضبه توّدّد الزّوجة المتلطفة. حتّى رأّت معبدا على قمّة جبل وعر فقالت: "ما يدريني لعلّ مولاي يقيم هناك"، وقصدته فورا بخطو حثيث غدت تحدوه بعد ضنى الجهود الطّويلة أمالها وأمانيتها، فارتقت بعزم إلى قمّته الشّاهقة، واقتربت من الهيكل؛ رأّت سنابل من القمح مكّدسة وأخرى غصّة صُفرت إكليلا ورأت سنابل من الشّعير. كانت هناك أيضا مناجل، وأدوات حصاد شتّى مبعثرة، وكما ترميها عادة أيدي الحصادين عند قبض الهجير. فخلّصتها بسيشية بعناية وربّتها على أحسن نسق، مفكرة أنّ عليها بالتأكيد ألاّ تهمل معبد ولا طقوس أيّ من الآلهة بل أن تستجدي رحمتهم وودّهم كلّهم.

### 6-2 دعاء

فاجأتها وهي جائة في التّرتيب بتفان كيريس\* المغذية، وهتفت فورا: "واها! بسيشية المسكينة، فينوس\* تجوب الأرض

(1) ممّض/حبّ: amores/amare جناس مختلف.

غضبي لتقصي أترك، لا يهنا لها بال وترغب في إنزال أشد العقاب بك، مسخرة طاقات قوتها الإلهية للانتقام وأنت منشغلة بترتيب أثار معبدي وتفكرين في شيء غير جاتك." خرت بسيشية ساجدة أمام رجليها مبللة بدمعها قدميها وكاسحة الأرض بشعرها وبأدعية عديدة أخذت تستعطفها: × "أوسل إليك بيمينك السخية، وبأعياد الحصاد البهيجة، بالأسرار المكتومة في سلة طرفك القدسية، وبمركبتك المنيحة التي يجرها تيناك الدلوان: ٨ بالأتلام في ثرى صقلية، بالمركبة التي خطفت بروسربينة\* والأرض التي أخفتها ونزلها إلى عالم الظلمات لرفها لحاطفها، وعودتها بعد اكتشافها إلى عالم الضياء، وبقية الأسرار التي يلقيها صمت معبدك في إيوسية\* الأتيكية\*، ساعدي بسيشية التي تتضرع إليك نفسها البائسة، اسمحي لي بالاختفاء هنا بين ركام السنابل ولو لبضعة أيام، ريثما تهدأ سورة غضب تلك الإلهة الجبارة، أو لأستعيد على الأقل بقسط من الراحة قواي المنهكة من عنائي الطويل."

### 6-3 مساعدة إلهية حاسمة

ردت كيريس: "لقد تأثرت لتضرعاتك ودموعك، وبودي مساعدتك؛ لكني لا أستطيع تعريض نفسي لموجدة قريبة تربطني بها منذ القدم صداقة أجلها وأصونها، فضلا عن طبيبتها، فاذهبي فوراً من هذا المعبد واشكري لي ألم أمسكك عندي." لم يسع بسيشية بعد صدها وتخيب رجائها سوى الرجوع أدرجها وغمتان في قلبها؛ فلمحت في غبش الوادي

المتد ختها معبدا على طراز بارع من البناء، وفي حرصها على ألا تهمل أدنى بصيص من الأمل ولو ضعيف الاحتمال وأن تلمس عون أي إله، دنت من مدخل الحرم، فرأت عطايا نفيسة وأقمشة خُطت عليها كتابات بالذهب معلقة على أفنان الأشجار وكتف الباب، تشهد باسم الإلهة التي أهديت لها لشكر فضلها؛ فحثت على ركبتها وطوّقت المذبح الدافئ بذراعها؛ وبعدما كفكت دموعها شرعت تدعوها:

### 6-4 عون يونون

"يا أخت وزوجة يوبتر\* العظيم، سواء كنت تقطنين ذلك البيت العتيق بساموس\* التي تفاخر بأنك فيها وُلدت وكررت وترعرت، أو ترادين منتجعات قرطاج الشامخة التي تعظّمك في صورة غادة جوب أقطار السماء متطية أسدا، أو تحفظين أسوار أرغوس\* قرب ضفاف الإناخوس\* الذي يشيد بك كزوجة ربّ الرعد(1) ومملكة الآلهة، أنت التي يعظّمك الشّرق كله تحت اسم زوجية\* ويدعوك الغرب كله لوقينة\*! كوني إلى جانبي في محنتي العظمى يونون\* المسعفة(2)، ها أنا أمامك مكدودة من جهودي المنهكة، فخلصيني من خوف الخطر الوشيك، فعادتك، فيما أعلم، المبادرة من تلقاء نفسك إلى غوث الحوامل المعرضات للخطر." إزاء تضرعاتها، جلت لها يونون\* فوراً في كلّ أبهة الوهتها، وقالت: "لكم أودّ بعزّتي إجابة دعائك. لكنّ تقديري

(1) ربّ الرعد: يوبتر/زيوس، نُور عند شعوب الشمال، من هنا أنت تسمية يوم الخميس في لغات أوروبية.

(2) ابتهالات بسيشية ليونون: نرينا النزعة التأليفية في إطار الإمبراطورية الرومانية وفي أدب أبوليوس.

لكتتي فينوس\* التي أحببتها دوما بمثابة ابنة لا يسمح لي بالوقوف في وجهها؛ كذلك تمنعني من استقبالك في معبدي القوانين التي تحظر إيواء العبيد الأعراب الأبقين بدون رضا عن أسيادهم."

### 6-5 قرار الاستسلام

من جزعها بعد كبوة حظها مرة أخرى. وعجزها عن إدراك زوجها الخلق في السماء. وفقدانها كل أمل في الخلاص. قالت بسيشية لنفسها: × "أية مساعدات أخرى يمكن أن تطلب أو تلتمس لمن لم يجد تأييد إلهتين رغم رغبتهما في تقديم العون؟ × أين أرسل خطوي مرة أخرى وقد تلجلجت في كل هذه الشراك؟ وفي أي مخبيء بل في أية ظلمات أختفي هربا من أنظار فينوس\* الجارة التي لا ملاذ منها ولا فكاك؟ هلا استجمعت شجاعتك إذن وتخليت عن بصيص الأمل الخلب واستسلمت طوعا لمولاتك مهدئة سورة غضبها بإذعانك وإن تأخر. بل من يدري. لعلك تجدين من تنشدين منذ أمد طويل هناك. في بيت أمه!": هكذا مضت تهتئ نفسها لغفرة غير مؤكدة. بل إلى هلكة محققة. وهي تفكر في استهلال لدعاء التوبة المعتزلة.

### 6-6 فينوس ترقى إلى السماء

أمّا فينوس\* فتخلت عن وسائل البحث على الأرض واجّتهت إلى السماء؛ فأمرت بإعداد مركبتها التي أحكمت صنعها يدا فلكانوس\* الصائغ بفن فريد وقدمها لها قبل البدء في حفل الزفاف هدية زواج هذبها المبرد وبراهها فزادها شأنا وقيمة بما

أفقدتها من خالص التضار. فبرزت من بين الحمام المقيم حول بيت الإلهة أربع حمائم بيض وتقدمن بخطى جدلى. حانبات أطواقهنّ الرقشة. فأولجنها في النير المرصع بالجواهر. وبعدما استقبلن مولاتهنّ. طرن فرحات. حقت بمركبة الإلهة. في جلبة مرحة. شحارير وطيور آخر طراب يشدين مؤذات بألحانهنّ العذاب عن مقدم الإلهة. فانحسرت الغيوم وانشقت السماء لاستقبال ابنتها. وتلقى الأثير في عليائه الإلهة بغبطة؛ ومضى الموكب الصّاح مرافقا فينوس\* العظيمة لا يخشى اعتراض النّسور والكواسر.

### 6-7 وتطلب خدمة مركوريوس

على الفور اجّتهت نحو عرش يوبتر\* وطلبت بشموخ أن يضع في خدمتها مركوريوس\* الإله ذا الصوت الجهوري لحاجة تقتضيه. فما أشار بالرّفص حاجبا كبير الآلهة الليلكيان؛ ونزلت فينوس\* لتوها من السماء برفقة مركوريوس\* منتصرة وألقت إليه هذه الكلمات مترجّبة: × "تعلم جيّدا يا أبا الأركاد\* أنّ أختك فينوس\* لم تفعل أبدا شيئا بدون عونك؛ ولا يخفى عليك أنّي لم أستطع منذ مدّة اكتشاف أمة لي مختفية. ولم يبق سوى أن تعلن في العموم عن مكافأة لمن يجدها. فافعل بسرعة ما أمرتك. وبينّ السمات التي يمكن بها التعرّف بوضوح على شخصها. وأنذر الجميع أنّ من يتستّر عليها موقعا بذلك في المحظور بنفسه لن يستطيع التدرّع بجهله." ومدّت له وهي تقول ذلك بطاقة كتب عليها اسم بسيشية وبيانات أخرى ثمّ غادرته إلى بيتها فورا.

6-8 استقبال حار

لم يتوان مركوريوس\* عن الامتثال ومضى، من خلال أفواه كل الشعوب، يجوب كل مكان منقذا مهمة النداء الموكولة إليه: "من استطاع أن يعيد بنت الملك الهاربة، أمة فينوس المدعوة بسيشية، أو أن يدل على مخبئها، فليلق الحاشر مركوريوس\* خلف صوت مرتبة\*. وسينال من فينوس\* شخصيًا، جزاء تليفه، سبع قبل عذاب، وواحدة أخرى عسليّة مزغزة من لسانها حلو الرضاب." ما كاد مركوريوس\* ينهي نداءه حتى هب كل الوري متنافسين طمعا في المكافأة المعتبرة، فأزال ذلك تماما كل تردد في نفس بسيشية القانطة، ها قد أشفت على باب قصر مولاتها وإذا بخادمة لفينوس\* تدعى كنسويتودة ( العادة) تهرع هاتفة بأعلى صوتها: × "أخيرا يا أخس الإماء بدأت تدركين أنّ لك مولاة؟ أوتراك تتجاهلين ما تكبّدنا، بسبب سفاهتك وسوء سلوكك، من مشاق في البحث عنك؟ لكن سعديك، ها أنت وقعت في قبضتي أنا شخصيًا؛ فاعتبري أنّك بت بين كلاليب أركوس\*، ومنه ستنالين، كما ستريين حالا، عقاب تمرّدك."

6-9 الحماية والكنة

واندفعت جرها سفعاً بالنّاصية وهي لا تبدي أقل مقاومة؛ فما إن رأتها فينوس\* تساق وتقدّم إليها حتى انفجرت ضاحكة كما يفعل من أعماهم الغضب، وقالت مرججة رأسها فارقة أذنها: × "أخيرا تفضلت بالسّلام على حماتك، أم أتيت بالأخرى لتعودي زوجك السّقيم من جرحك؟ اطمنئي فسأعاملك

كما يحقّ بكنة صالحة مثلك،" وأردفت ملتفتة: "أين خادمناي ملوكيتودة وترستية ( اللهم والأسى)؟" × حضرتنا، وسلّمتهماها لتعدّباها؛ وبعدما نعدّتا أمرها، جالدين بسيشية المسكينة بالسّيّاط ومسلاطين عليها شتى الأنكال ردتاها لمولاتهما لتراها، ضحكت فينوس\* من جديد وقالت: "ها هي تستثير بإغراء بطنها المثقل رأفتنا؛ فمن ضنوه العظيم ستجعلني، على ما أرى، جدّة سعيدة، فيا بختي ويا سعدي! قريبا أدعى جدّة وأنا في شرح الشّباب ويدعى ابن جارية حقيرة حفيد فينوس\*. وإن كنت غيبة حقًا إن أدعه ابنا بدون وجه حقّ؛ فهذا الزّواج غير المتكافئ والذي تمّ في ضيعة بلا شهود وبدون موافقة الأب لا يمكن بحال أن يعدّ زواجا شرعيًا؛ ومن ثمّ سيولد لقيطا، هذا إن سمحت لها أصلا بإتمام حملها إلى غاية الوضع."

6-10 الاختبار الأوّل

قالت ذلك وانقضت عليها فمزّقت ثوبها وقطّعت شعرها ورجرت رأسها وبطحتها بعنف؛ ثمّ طلبت إحضار مكاييل من القمح والشّعير والزّوان والسّمسم والحمص والعدس والبول، فخلطتها وكدّستها ثمّ جمعتها في حثرة وقالت لها: × "تبدين لي أمة دميمة حقًا، فما بغير الخدمة المتفانية تصيرين أهلا بعشّاقك؛ لذا سأختبر شطارتك بنفسي، أمرك بفرز هذا الخليط من الحبوب وجمع كلّ فئة على حدة قبل الغروب، ثمّ إحالة عمك عليّ لأنظر فيه." بعدما عهدت إليها بكومة تلك الحبوب التي لا تُعدّ ولا تخصي، ذهبت إلى حفلة زفاف؛ فلم تمدّ بسيشية يدها إلى ذلك الكدس الممتنع عن الفرز وفي ذهولها من الطلب



المشطّ لاذت بالصّمت. أشفقت الثّملة، ساكنة الحقل الدّقيقة العجفاء لعلمها بمدى صعوبة المهمة الكأداء، على زوجة الإله العظيم من ذلك العمل الشّاق، وأثارها شراسة حماتها. فأسرعت تدعو جحافل الثّمل، سگان تلك الرّبوع، جميعاً: × "رحمةً يا بنات الأرض- أمّ الجميع- الخفاف التّشطات: رحمة بزوجة إله الهوى هذه الفتاة الرّقيقة وهلمّنا فوراً لمساعدتها فهي في خطر عظيم." فتدفّقت أمواج تتلو أمواجاً من معشر سداسيّات الأرجل، وبعناية تفوق الوصف فرّقن كلّ الكومة حبة حبة ووَزَعنها كلّ صنّف على حدة، ثمّ توارين عن الأنظار في لمح البصر.

### 6-11 الاختبار الثّاني

أمّا فينوس\* فعادت مع بداية اللّيل من حفل الزّواج ثملة تفوح بالعطور وتغطّي جسمها عقود من الألاء الورد؛ فلما رأته بأيّ إتقان أجز ذلك العمل العجائب، قالت: × "ما هذا عملاً ولا فعل يدك، يا لئيمة، إن هو إلاّ عمل من أغويت جارة له ولك الشّقاء!" وألقت إليها بكسرة من الخبز الأحرش وأوت إلى فراشها. في الأثناء أرغم كوبيدون\* بصرامة على البقاء بالبيت حبس الفراش بلا أنيس، شيئاً مخافة أن ينغل الجرح من شغبه، وشيئاً كيلا يجتمع بمحبوبته؛ هكذا قضى الحبيبان، مفصولين تحت سقف واحد، ليلة ليلاء. ثمّ أتت أورورة\* على جياها، فدعت فينوس\* بسيشية وقالت لها: "أترين تلك الغابة أين يعدو ذلك النّهر دافقا فيروبيها على طول ضفافه وتحدّى جذول أشجارها لجّته القريبة؟ × هناك ترتع بلا رقيب غنم تزدهي بسنا صوفها

الذهبيّ. أمرك أن تلتمسي بأيّة طريقة وجلبني لي من هناك فوراً ندفة من جزة صوفها التّفيس."

### 6-12 القصة الملهمة

هرعت بسيشية، لا لتنفيذ الأمر، بل لتستريح من متاعبها بالارتقاء من شفا النّهر؛ فانبرت لها من النّهر قصبة مخضوضرة شادية الألحان أنطقها إلهام ربّانيّ مع هفيف النّسيم الرّقيق هذا الوحي: × "أي بسيشية المبتلاة بألوان الرّزايا، إيتك أن تدنّسي بالموتة الشّنيعة التي تنوين مائي الطّهور، أو أن تقتربي في هذه السّاعة من تلك الأغنام البرّية الرّهيبة، فكلّ يوم يتملّكها، حين يشندّ وهج الهجير، هياج أهوج، ويقرونها الحادة وجباهها الصّلدة، وبعضّاتها الموبوءة أحياناً تثخن كلّ من اقترب منها بجراح مرديّة، لكن بعدما يلطّف الأصيل أوار الشّمس وتهدّئ نسمة النّهر العليلة تلك الأغنام، يمكنك الاختفاء تحت هذه الدّلبة السّحوق التي يسقي نفس الماء عروقها وعروقي. فلما تهدأ ثائرتها وتلين عريكته، هزي إليك بفروع الغابة تساقط عليك وبراً ذهبياً، ممّا علق من مصالنتها هنا وهناك على الأغصان الملتفة بها.

### 6-13 الامتحان الثّالث

هكذا هدت البوصة البسيطة الرّحيمة بسيشية البائسة إلى سبيل النّجاة، فلم تُعرض عن النّصح المسدى إليها باستخفاف يورث الحسرات، بل امتثلت لتعليماتها، وما لبثت أن عادت جالبة لفينوس\* فيلجة جمعتها خلسة من عهن منفوش كالذهب شقّرة، فلم يلق لدى فينوس\* حتّى هذا الإجاز الثّاني

قبولا حسنا(1) ، بل قطبت حاجبيها، وببسة كالحة قالت: "لا يخفى عليّ أنّ غيرك أجز عنك غشا هذه المهمة أيضا؛ لكنني هذه المرة سأختبر تحت مراقبة شديدة إن كنت حقا ذات فطنة فائقة وشجاعة فريدة. أترين الفؤار المنيجس من تلك الصخرة الشامخة على ذلك الطود الأشمّ، تنحدر منه سيول سحماء من الماء العكر الأحمّ، فتتجمّع في جوف ذاك الوادي القريب، لتصبّ في إستكس \* نهر عالم الموتى الرّهب، وتغذي لجح كوكيتوس\* المجمععة في اعتسافها الصّخوب؟ × هات لي من هناك فورا، في هذه الرّجاجة، غرفة من ذاك الماء المتدفّق تغترفينها من أعماق نبعه النّجاج؛" قالت ذلك ومدّت لها من عل، بوجه بادي الوعيد والاهتياج، قارورة صقيلة من الرّجاج.

#### 6-14 مهمة مستحيلة

فانطلقت بحماس، حاثّة خطاها إلى قمة الجبل الشامخة، رغبة في وضع حدّ لحياتها البائسة هناك بأقصى سرعة؛ فلما دنت من تخومها أدركت هول مهمتها الكأداء. كانت صخرة ملساء، يتعدّر تسلق جرفها المدبّ، تقذف من جوف الحجر سيولا رهيبية، فتبتلعها لتوها أخاديد جرف شديد الانحدار، فتزب منه على منحدر ثمّ تندلق في قناة ضيقة حفرتها، تنساب عبرها لتصبّ في قيعه قريبة، وعلى اليمين والشمال حُفرت الصّخور وأطلّ تيّنان مخيفان، مادّين عنقيهما الطويلين. استرسلت عيونهما في حراسة بقطة لا تكلّ، وجحظت حدقاتهما تتلقّيان

(1) الثّاني/حسنا ( أو مواتيا): تلاعب لفظي آخر لأنّ كلمة واحدة secundus تعني المعنيين.

التّور الأبديّ. أخذت تلك المياه الفادرة على التّطق تهيب بها، لتقي نفسها شرّما أضمرت: "ابتعدي! ماذا تفعلين؟ انتبهي، بم تهمين؟ احذري، فري، وإلاّ ستهلكين." أمّا بسيشية فاستحالت من استحالة مهمتها حجرا، ولبثت غائبة اللّب وإن كان جسمها حاضرا، منسحقة تحت وطأة خطر لا مخرج منه ولا مجير لا جد حتّى عزاء الدّموع، ملاذها الأخير.

#### 6-15 جلاله نسر النّسور

لم يخف عن عين العناية الإلهية الحفيّة بؤس تلك النّفس الزكيّة: فجأة أتاها باسطا جناحيه رسول يوبتر\* الكبير، ملك الطّيور، جلاله نسر النّسور، تذكر خدمة قديمة، يوم اختطف بإرشاد كوييدون\* ساقى مولاة الفريجيّ\*، ولرغبته في ردّ جميل الإله بتفريح كربة زوجته، نزل من علياء مخدومه الشّماء مرفرفا أمام وجه الفتاة، وقال لها هذه الكلمات: <sup>8</sup> "أحقاّ ترجين أيتها الصّبيّة الغرّة الغشيمة اختلاس حتّى قطرة واحدة من هذا الماء الطّهور النّاضخ تحت قدميك، بل حتّى لمسه بكفّيك؟ × أما علمت أنّ الآلهة، حتّى يوبتر\* نفسه، يرهبون مياه إستكس\*، ويقسمون عادة بجلال هذا النّهر كما تقسمون بعرّة الآلهة أنتم معشر البشر؟ × لكن هات لي تلك القارورة؛" وفي الحال أمسكها وكمشها وحلّق ناشرا جناحيه، مرفرفا ذات اليمين وذات الشّمال، بين صفّي أنياب التّنينين الفتّاكة، والألسن الثلاثة المتلظية من فم كليهما، فامتاح من المياه، وهي تتمتع وتندّر وتأمّره بالانصراف دون أن يمسه بسوء، متذرّعا بأنّه أتى يلتمس غرفة منها بأمر من فينوس\* وليس إلاّ عبدا مأمورا، ممّا يسرّ الإذن له بالافتراق شيئا

### 6-16 الامتحان الرابع

تلقت بيسيشية القنينة الملائى فرحة وعادت تسلّمها لفينوس\* مسرعة؛ لكنّها لم تزد الإلهة الشرسة إلاّ عنتا. خاطبتها متوعّدة، وقد ارتسمت على شفيتها بسمة تطفح شرًا وموجدة: "تبدن لي الآن حقًا ساحرة شرييرة ضليعة إذ أحببت مطالبى إجابة سريعة. لكنني أطلب منك المزيد يا نور عيني! خذي هذه اللعبة مني." - ومدتها لها- "وامضي حالا إلى العالم السفلي\*. رأسا إلى بيت أركوس\* السوداوي. فقدّمها لبروسرينة\* وقولي لها: "تودّ فينوس\* أن ترسلي لها قليلا من حسنك ولو قدر يوم واحد. فقد استهلكت ما بحوزتها مذ عكفت على علاج ابنها المريض وأفنت كلّ ذخيرتها"; لكن إيتاك والعودة قبل إجاز المهمة، إذ لا بدّ أن أذهن منه للظهور في حفل للآلهة."

### 6-17 برج أوتي العرافة

أحسّت بيسيشية أنّ تلك هي القاضية، وأدركت تماما أنّ المراد بجلاء ودون قناع، دفعها فورا إلى موت محقق؛ كيف لا ومولاتها ترغمها على السعي بظلفها إلى حتفها، إلى نهر الترتار\* ولقاء أشباح الموتى؟ × ودون تلكؤ توجّهت نحو برج عال لتلقي بنفسها من فوقه، إذ خطر ببالها أنّ تلك هي الطريقة المثلى للنزول إلى عالم الموتى. لكنّ البرج انفجر ناطقا وناداه من تحتها: "لم تريدن، يا شقيّة، أن تلقي حتفك بالارتقاء من هنا؟

لم تستسلمين بلا مبرر أمام هذا الخطر والعمل الأخير؟ × بمجرد انفصال روحك عن بدنك، ستذهبين لا شك إلى نهر الترتار\* في غياهب العالم السفلي\*. لكنك لن تستطيعي إذّاك العودة منه أبدا؛ فأصغي إليّ جيّدا.

### 6-18 تعليمات البرج...

تقع قريبا لخدمونة\* مدينة أخاية\* الشهيرة؛ ابحثي على تخومها الحفّية في أماكن منعزلة عن التّينار\*. هناك يوجد منفس ديس\*. ومن خلال المدخل المنفرج يبدو لك سرداب عسر؛ فإذا اجتزت العتبة التفتك قناة تفضي بك مباشرة إلى قصر أركوس\* بالتّحديد. فلا تتوغلي في تلك السّد فارغة اليدين؛ بل خذي في كليهما لقمة من عصيدة الشّعير منقوعة في البتع. واحملي في فيك أيضا دانقين. بعدما تقطعين شوطا من سراط الموت، سيعترضك حمار أظلع يحمل حزمة حطب. مع حمّاره الأعرج مثله والذي سيطلب منك أن تمدّي له عيدانا وقعت من حملة على الأرض فمرّي ولا تنبسي بكلمة. ثمّ لن تلبثي أن تصلي إلى نهر الموتى حيث يطلب الرّبان خارون\* فورا أجر العبور وبأخذ المسافرين إلى الضّفة الأخرى البعيدة على قاربه المجمع من قسيّ الأسل. فحتّى بين الموتى يبقى الشّح حيّا؛ ولا يفعل خارون\* ذلك الإله العظيم جابي ديس\* شيئا مجّانا؛ ولا بدّ إذن للفقير إن حضرته الموت أن يتزوّد وإن اتّفق أن لم يكن بيده دانق فلا أحد يسمح له بالموت. أعطي ذلك العجوز المقرّف أحد الدّانقين اللّذين تخمّلين بشرط أن يأخذه بنفسه من فيك بيده. ومهما ترجّاك عند عبور اللّجة الكسلى عجوز ميّت نخر يعوم على السّطح.

ماذا إليك يده، أن تنتشليه إلى القارب، إياك أن تأخذك به رحمة، فهي محرمة.

### 6-19... لزيارة العالم السفلي

بعدهما جتازين النهر وتتقدمين قليلا. سترجّاك حوائك عجائز ينسجن كساء أن تمدّي يدك قليلا لمساعدتهنّ. ذاك أيضا ممنوع عليك؛ كل هذه الأشياء وكثير غيرها شراك نصبتها لك فينوس\* لتضيّعي من يدك واحدة على الأقلّ من اللّقيمتين. لا تظنّي فقدان إحدى اللّقيمتين أمرا يسيرا فلو أضعنت واحدة حُرمت إلى الأبد العودة إلى النور. فإنّ كلبا وحشّيا مخيفا بثلاث هامات ضخمة ينبح ملء حنجرتّه على الموتى الذين لا يستطيع إيذاءهم وإنّما يرهبهم سدى يحرس بيت ديس\* الخالي. مترصدا باستمرار على العتبة أمام بهو بروسربينة\* تماما. قدّمي له إحدى اللّقيمتين تتألّف فيه وممّري بسلام، فتدخلي رأسا إلى بروسربينة\* التي ستستقبلك ببشاشة وتدعوك بلطف إلى الجلوس على أريكة وثيرة وتناول غداء فاخر. فلا تفعلي بل اجلسي على الأرض وكلّي جلفة من خبز جيشيب ثمّ اعرضي غاية زيارتك وخذي ما تعطيك. وفي طريق العودة، تفاذي باللّقمة المتبقّية شراسة الكلب. وأعطي التوتّي الشّحيح الدّانق المتبقّي. وبعد عبور النهر افتضي خطاك السّابقة وسترين من جديد كواكب السّماء في محفلها البديع. لكن، من بين كلّ التّعليمات، أطلب منك التّفيد بهذا خاصّة: ألاّ تحاولي فتح العلبة التي تحملين أو إلقاء نظرة داخلها. ولو جرّد الاطلاع على كنز الحسن الإلهيّ الجبوء بها."

### 6-20 إجاز باهر...

هكذا أبان ذلك البرج المنيف البصير موهبة العرافة المكنونة فيه؛ وفي الحال توجّهت بسيشية إلى التّينار\* فأخذت وفق الطّقوس الدّانقين واللّقيمتين، ثمّ أسرعرت بالنّزول إلى نفق العالم السفليّ\*. فمرّت بصمت بالحمار الأعرج وأعطت دانقا لربّان النّهر. وتغاضت عن ترجّي الميّت الطّافي، وجأهلت توسّلات الحوائك المخادعة، وهذأت هيجان الكلب العقور، ثمّ دخلت بيت بروسربينة\*. فلم تعر الأريكة الوثيرة ولا الأطعمة الفاخرة التي قدّمتها لها مضيّفتها اهتماما، بل جلست على الأرض أمام قدميها وقنعت بكسرة خبز وأبلغتها رسالة فينوس\*. ثمّ بلا تراخ أخذت العلبة التي ملئت وأغلقت في الخفاء، واحتالت لتخرس باللّقمة التّالية نباح الكلب، وسلّمت التوتّي الدّانق المتبقّي ثمّ بارحت العالم السفليّ\* وقد زاد نشاطها(1). وعادت إلى نور هذا العالم فخرّت له ساجدة؛ ورغم تعجّلها لإنهاء المهمّة، استولى على ذهنها فضول أثمّ جسور: قالت لنفسها: "ما أحقّ أن أحمل الحسن الإلهيّ ولا آخذ منه شيئا لنفسي فقد أعجب إذك حبيبي البهيّ."

### 6-21... لولا الفضول

فتحت العلبة وهي تقول ذلك، فما كان بها حسن ولا شيء (1) زيارة عالم الأموات: موضوع تناوله الأدب اللّاتينيّ واليونانيّ القديم (الأوديسة، الإنياذة، أسطورتا هرقل وأرفيوس) وميثولوجيات شتّى الشّعوب، وتناوله كذلك الأدب العربيّ طبق العقائد الإسلاميّة (رسالة الرّوايع والتّوايع لابن شهيد، رسالة الغفران للمعريّ وقد تكون "المقامة الإبلسيّة" للهمذانيّ أصل العملين). واشتهرت في العصور الحديثة "الكوميديا الإلهيّة" لدانتي التي قد حمل تأثيرات عربيّة.

سوى كرى العالم السفلي\*، نوم إستكس\* الأبدى الذي انفلت في الحين من الفتحة واستحوذ عليها. وتملكتها غيمة متلبدة من السبات سرت في كل أعضاءها. فقُبضت مكانها متداعية وسط الطريق قبل إنهاء خطوتها. وثوت هناك جثة هامة بلا حراك: أما كوبيدون\* ففي الأثناء التأم جرحه وتمائل للشفاء: فلم يطق على غياب بسيشيته الطويل صبرا. فأفلت عبر نافذة سامقة من حبس غرفته. وطار مسرعا وقد أعاد الاستجمام الطويل لجناحيه قواههما، إلى بسيشية الحبيبة فنفض عنها الكرى برفق وأعادته إلى موضعه الأصلي بالعبلة: ثم لامس بطرف سهمه بسيشية بلطف. قائلا: × "أي بسيشية المسكينة، ها أنت تهلكين ثانية. بسبب فضول كالأول (1). أتمى المهمة التي كلفتك بها أمي. وسأتولّى ما تبقى". طار العاشق خفيف الجناح وأسرعت بسيشية حمل هبة بروسربينة\* لفينوس\*.

### 6-22 شكوى كوبيدون

أما كوبيدون\* المدنف بتباريح وجده الجارف والخائف لمرأى وجه أمه الباسر من فتور (2) مفاجئ ففي الأثناء عاد إلى عاداته السابقة (3) ونفذ خفيف الجناح إلى مناط السماء: فشكا

(1) تأنيب الفضول: مرّة أخرى (5: 6 ثم 5: 23) وهو أصل بلايا لوقيوس وسقراط قبله وأرسطومانس وتليفرون. قد نستغربه من فيلسوف كأبوليوس فالفلسفة تبدأ خديدا بالدهشة، قد جُد الخُل في الكتاب 11

(2) الخائف من فتور: sobrietas يستخدم أبوليوس نفس الكلمة التي ترجمناها في 3: 5. بالترانة.

(3) عاد إلى عاداته السابقة: ad armillum redit حرفيًا عاد إلى قارورته. أو قدحه.

ليوبتر\* العظيم وقدم ملفّ الادّعاء. إذّاك أمسك يوبتر\* وجنة كوبيدون\* وقربها بيده إلى فمه فلتّمها وقال: × "مع أنك يا بني لم ترع أبدا حرمة الشرف المسلّم لي به من الآلهة بل أثخنت برشقاتك المتلاحقة قلبي مقرّ قوانين العناصر وقوى العالم العلويّ وأخزيتني بمغامرات غرامية متكرّرة مع إنسيّات: × وأذيت سمعتي ومقامي بفضائح زنا شائنة مخالفة للقوانين بما فيها قانون يوليوس\* وللنظام العامّ، ماسخا طلعتي المهيبة إلى كائنات رذلة، من ثعابين ولهب وسباع وطيور وبهائم مبتذلة (1): × سأذكر حلمي وأتّك بين ذراعتي هاتين نشأت. فأجز كل ما طلبت. شرط أن تعرف كيف تتقي شرّ خصومك، وإن تكن على الأرض غادة ذات جمال باهر أن تكافئني بها على جميلي الحاضر."

### 6-23 يحيا العدل!

وأمر مركوريوس\* باستدعاء كل الآلهة حالا إلى مؤتمر، منذرا من يتخلف عن الاجتماع بغرامة قدرها عشرة آلاف درهم: فامتلا. للخوف من الغرامة، مسرح السماء، وأعلن يوبتر\* من فوق عرشه الرفيع: (2) "أيها الآلهة المسجّلون (3) في لوح ربّات

(1) مسح يوبتر نفسه إلى كائنات خسيصة: نور مع يوروبة ومع ديميتير: ثعبان مع ابنته منها برسيفونة: حصان مع دية، بجع مع ليدة، نسر مع إيجينة، وقواق مع هيرة، شذرات ذهبية مع دنابة...ومن الإنسيّات اللائي غوي: الكمينة ودنابة والكترة ويوروبة وليدة ونيوبة وإيجينة وسيميلة وكاليسنو ويو وماية...

(2) أيها الآلهة المسجّلون: محاكاة ساخرة لصيغة الخطب في مجلس الشيوخ: في الأصل "والمسجّلون": الأباء من الأشراف والمسجّلون أعضاء من الشعب أضيفوا بإصلاحات دستورية منذ آخر القرن 6 ق م، وُجد عبارات هزلية تشبيهة في حوار "مجلس الآلهة" للكاتب السّوريّ الساخر لقيانوس السّاموساطيّ.

الفنون\*، كلِّكم بلا شكَّ تعرفون هذا الغلام الذي غَدَّيته بيديّ؛ لقد رأيت من اللازم كبح نزوات المراهقة المضطربة في دمائه؛ كفى ما يتردّد عنه يوميًا من الحزبات، من زنا وشتّى المذمّات. لا بدّ من سدّ ذرائع الفحشاء وتكبيّل فجوره التّزق بقيود التّزواج؛ لقد اختار فتاة وافترعها؛ فليستحللها ويحتفظ بها إلى الأبد وينعم بهواه في حضانة بيسيشية. " والتفت إلى فينوس\* قائلاً: "أمّا أنت يا ابنتي، فلا تبتئسي ولا تخشي على مقامك وشرف أسلافك من هذا القران بإنسيّة فسأجعله زواجاً متكافئاً وشريعياً ويطابق القانون المدنيّ. " وأمر فوراً مركوريوس\* بأخذ بيسيشية وإحضارها إلى السّماء؛ فمدّ إليها بكوب من رحيق الآلهة وقال: "خذي يا بيسيشية، والحقي بالخالدين، ولن يهجر كوبيدون\* بعد اليوم مضجعك أو يفلت من رباطك، بل سيبقى زواجكما إلى الأبد."

#### 6-24 حفل زفاف في السّماء

في الحال التأم حفل الزّفاف وعجّ بالآلهة: فبدا العريس مستلقياً على تخت عال محتضناً بيسيشية، وكذلك يوبتر\* مع زوجته يونون\* ثمّ كلّ الآلهة حسب التّرتيب. سكب ليوبتر\* ساقيه الفتى الرّاعي كوباً من الرّحيق الخنوم خمر الآلهة بينما راح باخوس\* يدير على الآخرين كأس المدام وانكبّ فلكانوس\* على طهي الطّعام، وراحت آلهات الفصول\* يخضّين كلّ شيء بدثار أرجوانيّ من الورد وشتّى الرّهور وآلهات الرّواء\* يرشدشن الطّيب وآلهات الفنون\* يغمّين بأعذب الأحنان؛ وعزف أبولون\* على قيثارته، ورقصت على أنغام الموسيقى فينوس\* في ارتخاء وتخويد، بخطو

موقّع كالتّشيد؛ وقد ربّبت العرض بنفسها فكانت ربّات الفنون\* يغمّين في فرقة، وعفريت الغابة\* ينفخ في مزماره، وجنّي الرّعاة\* ينفث في شبّابته أعذب الأنغام، هكذا صارت بيسيشية وفق السّنن في عصمة (1) كوبيدون\*؛ وحملت ووضعت بنتاً ندعوها فولبتاس\* (اللّذة) (2).

#### 6-25 أسلاب جديدة

ذلك ما روت للأسيرة الحسناء تلك العجوز الخرفة الثّملة؛ أمّا أنا، فمكثت غير بعيد، متحسّراً ألاّ أجد لوحاً وإزميلاً فأكتب تلك القصة الرّائعة، في تلك الأونة وصل اللّصوص محمّلين بالغنائم بعدما خاضوا على ما بدا لي معركة ضروساً، وبدأ بعضهم يرغبون في الانطلاق فوراً تاركين الجرحى في الكهف لتضميد (1) العصمة: manus سلطة التّزواج المطلقة كسلطة الأب potestas patria اختفت في عصر أبوليوس.

(2) اجتماعات الآلهة: موضوع تناوله أدب وميثولوجيا اليونان والرّومان وتأثر بأبوليوس في القرن 5 الكاتب الإفريقيّ مرتيانوس كابالا الذي كتب "زواج مركوريوس وفيلولوجية". وقد يصعد بعض البشر إلى السّماء ويلتحقون بمصاف الآلهة بعد موتهم: كرومولوس أو الأباطرة، أمّا في الحياة فقلماً يصعدون- كما في "حلم شيبون الإفريقيّ" من جمهوريّة شيبرون- وإمّا يوحى إليهم الآلهة أو يظهرون لهم، ويخد في الدّيانا السّماوية الثّلاث فكرة صعود بشر إلى السّماء: مثلاً إدريس/ أخنوخ: تكوين 5، إلياس/ إيليا: الملوك 2، موسى وهارون وشيوخ بني إسرائيل: خروج 24، ميخا: ملوك 1، 22، أشعيا: 6، حزقيال: 1؛ يسوع: لوقا 24 وأعمال الرّسل 1 (الأنجيل الأخرى لا تذكر ذلك)، يوحنا: رؤيا 4، بولس: كورنثوس 12؛ وذكر القرآن صعود محمّد صلى الله عليه وسلم: الإسراء 1 وعيسى 4: 158 وإدريس 19: 57-

قصة بيسيشية وكوبيدون: حتوي لا شكّ على كثير من عناصر الميثولوجيا والحكايات الشّعبيّة: البنت المقدّمة لوحش، غيرة الإخوة، انتصار عاشقين بعد امتحانات، الرّوج الملغز، الفضول المهلك... وقد يكون لها مضمون فلسفيّ أفلاطونيّ: صعود بيسيشية رمز لعودة النّفس إلى محلّها الأرفع عبر رياضات، وتشبهها قصة بارتنوبيوس دي بلوا الفرنسيّة (أواخر القرن 12).

جراحهم لجلب الرّزم الباقية الخفاة في مغارة حسب كلامهم. التهموا غداءهم بعجل وساقوني مع حصاني إلى الطّريق لحمل تلك الأمتعة موجفين بالعصّي. قادونا عبر عدّة مرتفعات ومنعرجات ومع المساء وصلنا إلى كهف سرعان ما أعادونا منه محمّلين بأثقال لا تخصّ دون إعطائنا أدنى مهلة لنستريح؛ كانوا في عجلة واضطراب شديد حتّى أنّهم من ضربهم المتواصل ودفّعهم أوقعوني على حجارة تنتصب على قارعة الطّريق. فأرغموني بوابل من الضّربات الموجعة أن أنهض متأقلا وقد أصابني بالسّاق اليمنى والحافر الأيسر أذى شديد.

#### 6-26 لوقيوس يفكر في الفرار

انبرى أحدهم: "حتّام نعلف سدى هذا البرزون الكليل الذي صار يطلع فوق ذلك؟" وقال آخر: "إنّا وحقّ السّماء مذ وطئت قوائمه التّحسنة بيتنا لم نكسب مغنما ذا بال ولم نئل غير الجراح وموت أبطالنا الأّقحاح." فعلق ثالث: "نقوا أنّي. حالما يوصل مرغما هذه الأحمال، سألقني به من علّ طعاما مريئا للعقبان." ومضى أسيادي الرّحماء يتناقشون حول مهلكي؛ وما هي إلّا ساعة حتّى وصلنا إلى الكهف، فقد جعل الخوف حوافري أجنحة خفافا. وضعوا عتّا أوزارنا بعجل. ودون اهتمام بسلامتنا ولا حتّى بمهلكي. طلبوا رفاقهم الجرحى الذين بقوا هناك السّاعة، ثمّ عادوا لحمل بقية الأسلاب بأنفسهم، متأقفين على حدّ قولهم من بطئنا، لكنّ هاجسا غير يسير بات يعدّني لتفكيري بالموت الذي يهدّدي؛ فقلت لنفسني: "لم تقف بلا حراك يا لوقيوس، أيّ جديد تنتظر؟ لقد أعدّ لك هؤلاء اللّصوص شرّ ميتة، ولا

يتطلّب الأمر منك كبير مشقّة: أترى هذه الصّخور قريبا، وهذه التّنوعات المدبّبة التي ستشكّك فتذروك إربا قبل أن تقع على الأرض؟ لقد أعطاك سحرك الرّائع شكل الحمارة ومتاعبه لكن مع بشرة برهافة غشاء العلقه؛ فلم لا تشدّ عزمك وترتني لك في جأتك حيلة، ما دام الأمر ممكنا؟ لديك الآن فرصة رائعة للفرار، ما دام اللّصوص بمنأى: أنخشى حراسة تلك العجوز الفانية، وأنت تستطيع ببطّة واحدة من ساقك العرجاء الإجهاز عليها؟ لكن أين المفترّ. ومن سيقدم لك المأوى؟ أيّ سخف هذا وتفكير حمير! إذ أيّ مسافر لا يأخذ معه مطيّة سائبة؟"

#### 6-27 محاولة فرار

في الحال وبجهد جبّار قطعت الرّمام الذي كان يربطني وهممت بإطلاق الأربع للرّيح؛ لكنني لم أستطع الإفلات من عيني تلك العجوز الدّاهية الأمضى من عيون البزاة؛ لمّا رأني طليقا، استجمعت شجاعته بعزم لا يوجد في جنسها وسنّها، فأمسكت اللّجام حتّاول أن تُركسني إلى مربيطي. لكنني ذكرت الهلاك الذي يعدّ لي اللّصوص، فلم تأخذني بها رافة، وبوابل من الرّمحات من قائمتي الخلفيتين طرحتها أرضا، غير أنّها رغم جثوّها على الأرض تشبّثت بالرّمام بعناد. فتبعنتني في اندفاعي جرّا مسافة ما؛ وشرعت فورا تولول بأعلى صوتها طالبة عون يد أقوى. لكن عبنا مضت بعويلها تثير تلك الصّجّة، إذ لم يكن يوجد أحد قادر على مساعدتها سوى الفتاة الأسيرة،<sup>٨</sup> التي أيقظها الصّياح فهرعت تستطلع جليّة الأمر، لترى مشهدا لعمرى جديرا بالذّكر على مدى الدّهر: درخية\* جحمرشا يجرجرها حمارة

بدل الثور؛ وبعزم الرجال صنعت في المقام خير الفعال: × انتزعت من يديها الزمام، وبهينمات رقيقة ثنتني وامتطتني بسرعة واستحثتني لأعود إلى الركض.

### 6-28 فرار الأسيرة

أما أنا فبرغبة تلقائية في الفرار وخرير الفتاة، وكذلك بتأثير زخات بين فينة وأخرى من النخسات، انطلقت أربع بالأربع خيرا من الخيل، محمحا محاولا أن أرتد على الفتاة بكلمات رقيقات، لكنني كنت أحيانا أدير عنقي متظاهرا بالرغبة في حك ظهري فألثم قدميها الصمعاوين؛ ثم إنها تنهدت من الأعماق وولت شطر السماء وجها مهموما، ودعت: × "يا آلهة السماء أعينوني على نكباتي، وأنت أيها الحظ كفاك وحشيّة، وحسبك ما أعاني من العذابات؛ وأنت يا منقذ حرّتي وحياتي، إن توصلني سائلة إلى بيتي وتعدني إلى أبوي وخطبي وقرّة عيني، فكم سألهج بحمدك، وكم سأعزّك، وكم سأجزل لك المأكّل (1)، سأبادر إلى مشط لبدتك بفنّ وتزيينها بما لديّ من حلّي العذاري، وسأفرق ناصيتك الشعناء بذوق وتأنق، وسأصقل بكلّ عناية هُلب ذنبك الجعد المتلبّد من قلة الغسل، وسأزوّقك بخرز من الذهب لتشعّ كما تشعّ نجوم السماء وتختال وسط بهجة الجماهير وهتافهم، وسأحمل لك يوميا يا منقذي في مخللة من الحرير المفتّحة وأصناف المكسرات هنيئا مريئا!

### 6-29 لكل شيء إذا ما تم نقصان

لكنك وسط المأكّل اللذيذة والرّاحة الهنيئة والتّعيم المقيم،  
(1) فكم سألهج...المأكّل: perhibebo/habebo/exhibebo سجع.

لن نُحرم كذلك من التّقدير والتّكريم، فسأخلّد ذكرى سرّائي الحاضرة وعون عناية الآلهة، وأخصّص لفرارنا هذا صورة مرسومة على لوحة أنصبها في بهو بيتي، فترى وتسمع من رواة الأخبار وتخلّد بأزاميل الأدباء الكبار قصّة "الأميرة الفارّة من الأسر على ظهر الحمار"، وستتبوأ من جهتك مكانا بين عجائب وخوارق الأقدمين، وسنصدّق، قياسا على ماأثرتك، رحلة فركسوس\* على ظهر الكبش، وأريون\* على متن الدّلفين وأوروّبة\* النّائمة على صهوة الثور، وإن اتّخذ يوبتر\* حقّا شكل عجل ذي خوار، فلا يستبعد أن يختبئ وجه إنسان أو صورة إله في حماري،" وبينما الفتاة مستغرقة في هذه الخواطر مخلّلة مناها بالزّفرات، وصلنا إلى مفترق طرق؛ فأمسكت بالخطام محاولة بإصرار توجيهي يمينا، ربّما لأنّ تلك هي الطّريق إلى بيت أبوبها، وأنا لعلمي أنّ اللصوص سلكوها من قبل لجلب ما تبقى من غنائمهم، أمانع بعناد وأحتجّ في نفسي بصمت: "ماذا تفعلين أيّتها الفتاة الشّقيّة؟ وماذا تريدن؟ لِم تتعجّلين الشّخص أمام أركوس\*؟ ماذا تنوين أن تفعلين أيّتها الشّقيّة بأرجلي؟ إنك لا تسعين فقط إلى حتفك، بل إلى هلاكك مثلك،" هكذا لبثنا نزرع كلّ في الجّاه، ونتنازع (1) كما في قضيّة ترسيم حدود ملكيّة أرض، أو بالأحرى بمشى عند تقاسم تركة، وإذا بأصحابنا اللصوص المحمّلين بغنائمهم يبغتوننا، ومن بعيد على ضوء القمر يتعرّفوننا، وبضحكة خبيثة يحيوننا.

(1) نزرع/نتنازع: tendentes/contententes جناس مطلق.



ابتدنا واحد من الفريق: "أين تقصدان بالسرى بكل هذا العجل على هذه الطريق؟ ألا تخافان الأشباح والأرواح الهائمة في وحشة هذا الليل العميق؟ وأنت أيتها الأنسة الفضلى، لعلك تتعجلين لزيارة أبويك؟ لكن لا عليك، سنقدم لك أنيسا لوحدتك، وسندلك على المسلك المختصر إلى أسرتك." وأردف القول بالفعل مسكا زمامي، فوليت الدبر، ولم يخل عليّ بالضربات المألوفة من عصا عجرا كان يحملها، عندها ذكرت وأنا أعود رغم أنفي إلى هلاك وشيك ألم حافري فأخذت أطلع مدلدا رأسي، فانفجر صاحبي الذي أنكصني على عقبي: "تبا لك! ها قد عدت تترج وتتعثر، وأرجلك التخرة القادرة على الفرار لا تعرف المسير؛ قبل لحظات كنت لعمري تبرز سرعة بيغاسوس\* المفتح(1)." واستمر صاحبي اللطيف بمازحني، مسدا بالعصا بدني، حتى وصلنا إلى أطراف سياج بيتهم؛ فلاح لنا تلك العجوز تتدلى بحبل من على فرع سرورة، أنزلوها فورا وألقوا بها على حرف الجرف مشنوقة بحبلها، ثم أسرعوا إلى الفتاة فشددوا وثاقها، مفرقين أطرافها، وانقضوا كالوحوش على الطعام المعد لهم من العجوز الشقية بتفان تجاوز حدود المنية.

### 6-31 بغير وكس ولا اشتطاط

شرعوا وهم يلتهمون الطعام بشراهة يتشاورون حول عقابنا وثأرهم منا، وكما يحدث في اجتماع مائج تنوعت الأحكام، فمن (1) تبرز سرعة بيغاسوس المفتح: pinnatam Pegasi vincebas celeritatem مجاز مرسل.

قاص بإحراق الفتاة، إلى مشير برميها إلى وحوش الفلاة، وثالث دعا إلى صلبها، ورابع حكم بتقطيع أوصالها بدولاب التعذيب، لكنهم، على أية حال، أجمعوا كلهم على إعدامها؛ إذ أنبرى أحدهم، فهدا ضوئهم ثم أنشأ يقول بلهجة زينة: "لا يوافق نظامنا الأساسي جماعيا، ولا نزع الرحمة فينا فرديا، ولا كذلك اعتدالي أنا شخصيا أن تعدوا الحد المناسب للجريمة، فتقصوا على هذه الفتاة بالإعدام رميا للسباع أو صلبا أو خرقا أو تمزيقا أو أية طريقة تعجل بظلمة المنية، الرأي عندي، إن شئتم اتباع نصحي، أن توقروا للفتاة حياتها، شرط أن تكون الحياة التي هي أهل لها؛ ولا يغيب قطعا عن ذاكرتكم ما قررتم قبل قليل بشأن ذلك الحمار الكسول دوما والأكل أكلا لئلا، المتظاهر الآن بالزور بالعجز والخو، وكان لفرار الفتاة قبل حين خير شريك وأفضل معين، لذا يحسن ذبحه غدا وتفريغ أحشائه، ودمق الفتاة التي أترها علينا عارية باطنه والخياطة عليها، بحيث لا يبرز منها سوى رأسها، ويحشر في جوف الدابة باقي جسمها، ثم عرض الحمار محشوا ومخيطا فوق صخرة مسننة وتركه للطنى الشمس المحرقة.

### 6-32 إن غدا لناظره قريب

بهذا التحو يلقيان معا كل العقوبات التي قضيتم بها: الحمار الموت الذي يستحق منذ زمان؛ وهي نهش الوحوش حين تنخر الديدان أعضائها، وحرق التار حين توفد الشمس بأوارها جوفها، وعذاب الصلب حين تنوش الكلاب والعقبان أحشائها، والآن عدوا معي بقية الويلات والمثلثات: ستسكن حية بطن

جيفة، ويزكم منخريها فرثها التّن. وتحلّل من طول الطّوى. ولن تستطيع حتّى قتل نفسها بيديها الطّليقتين. " لدى الاستماع إلى هذه الأقوال وافق اللّصوص بالإجماع. لا بأقدامهم<sup>٨</sup> بل بكلّ أجسامهم. على هذا الحكم الذي التقطته بأذنيّ الكبيرتين. فأخذت أبكي - وهل كان لي سوى الدّمع؟- جئتني إليها أوّول من الغد.

## الكتاب السّابع

### 7-1 تقرير صحفيّ مثير

ما إن طلع النّهار مبددا ظلمة اللّيل وأضاءت مركبة الشّمس السّاطعة كلّ شيء حتّى أتى بغتة واحد من عصابة اللّصوص: ذاك فعلا ما يدلّ عليه تبادل مجاملات السّلام بينهم. جلس القادم في مدخل الكهف لاهنا. وبعدها التقط أنفاسه، أبلغ المجموعة هذا التّقرير. "بخصوص بيت ميلون الهيباتّي\* الذي نهبناه مؤخرا يمكننا الآن الاطمئنان. ولا داعي للخوف بعد. فإثر عودتكم إلى معسكرنا بعد أخذ كلّ ما فيه بفضل بأسكم الشّجاع. اختلطت مجموعات السّكّان المتجمهرين. ورحت أسخبر متظاهرا بالرّياء والاستنكار عن القرار الذي اتّخذ بشأن التّحقيق حول الحادث. وإن كان هناك اتّجاه. وإلى أيّ مدى. نحو تتبّع اللّصوص. وهأنذا جئت أخبركم بكلّ التّفاصيل كما طلبتم. باتّفاق الجميع. لا بناء على قرائن ظنيّة بل على مبرّرات راجحة. يُشتبه في شخص يدعى لوقيوس. كمرتكب الجريمة البين. فقد تمكّن قبل أيّام برسالة توصية مزيفة إلى ميلون وبالظّهور عنده بمظهر الرّجل الفاضل من استمالته وتوثيق صلته به × إلى حدّ

استضافته، واعتباره من الخالص والمقربين؛ فلبث هناك عدّة أيام وبحبّ متصنّع خلب لبّ خادمة ميلون، وتفحص بدقّة أفعال الباب، وتجسّس بعناية على الأماكن التي اعتاد مضيّفه إخفاء أمواله فيها.

### 7-2 قرائن موثّقة

ويظهرون دليلاً قوياً يدينه أنّه فرّ في نفس ليلة وساعة الجريمة خديداً ولم يظهر ممّداً في أيّ مكان، وكان قد يسّر لنفسه وسيلة للفرار والابتعاد سريعاً عن مطارديه بأطراد. إذ جلب معه حصانه الأبيض لامتطائه، وقد وجدوا خادمه الذي كان معه في بيت مضيّفه، وأمر القضاة بحبسه ليعطي معلومات على جرائم وخطط سيّده؛ ومن الغد استُجوب تحت التعذيب وشتمّ الأُنكال حتّى كاد يموت مقطّع الأوصال. لكنّه لم يبح بشيء؛ مع ذلك بعثوا رسالاً إلى بلاد لوقيوس ذاك للبحث عن المتّهم قصد معاقبة الجرم، "كنت وهو يروي ذلك أنّك في داخلي مقارنة التّعيم السابق ولوقيوس الأمس السعيد بالشقاء الزاهن وحمار اليوم التّعيس. ويجول بخاطري أنّ حكماء الماضي ما اعتبطوا لما تمثّلوا وتصوروا رتّة الحظّ عمياء بل بلا عينين تماماً، هي التي توزّع دوماً خيراتها على الأشرار ومن لا يستحقّونها ولا تصطفي بأدنى تبصراً أنّها من التّاس بل تصاحب خديداً من لو أوتيت بصراً لكان عليها أن تفرّ منهم بعيداً، والأدهى من كلّ ذلك أنّها خصّتنا بسمعات غير مطابقة بل مضادّة تماماً للحقيقة، إلى درجة أنّ الشّرير يفخر بسمعة الخيرين بينما يعاقب البريء على فعال الجرمين.

### 7-3 مرافعة رائعة

وأنا الذي جعل منّي خبطها الوحشيّ بهيمة ومن أدنى فئات ذوات الأربع، وتبدو حالي بحق، حتّى لأقسي التّاس جديدة بالرّافة والرّثاء، يُشتبه فيّ بجرمة سرقة ضحيّتها مضيّفي العزيز عليّ. وهي جرمة يدعوها أيّ من البشر لا سرقة فقط بل بتعبير أصحّ إحدى الكبر، ثمّ لم يكن بوسعي الدّفاع عن نفسي ولا حتّى إنكار التّهمة بكلمة واحدة، وكبلاً يبدو سكوتي، وأنا أنّهم حضورياً بتلك الجرمة التّكرار، علامة على الرّضا واعترافاً ضمّنيّاً بالذّنب، عزمت بعدما ضقت ذرعاً بتلك التّخرّصات على أن أقول: "ما فعلت"، وبالفعل جلّجت باللفظة الأولى أكثر من مرّة وبنحو ناب لكن تلجلجت بالتّالية ولم أستطع إلى نطقها سببلاً بل بقيت في المقطع الأوّل وشجبت عدّة ماءات جهار رغم مدّ مشفريّ المتهدّلين وترعيشهما وتدويرهما. لكن لم إطالة شكواي من رعونة الحظّ وهو لم يتورّع عن جعلني لخادمي ومطيّتي، حصاني ذاك، قرينا ورفيقاً في العبوديّة؟

### 7-4 حوّل تكتيكيّ

كان يراودني، وأنا نهب هذه الخواطر، هاجس آخر أقوى، إذ لم أنس عزم اللّصوص على نحري وجعلي لروح الفتاة منوى، فأراني وأنا مرّة تلو أخرى، أرنو إلى بطني بنظراتي الحزينة، بتّ حاملاً بالفتاة المسكينة. لكنّ اللّصّ الذي كان ينقل السّاعة عليّ تلك الإشاعات الكاذبة ما لبث أن أخرج ألف مثقال\* من طيّ رداءه، ذكر أنّه استولى عليها من شتمّ المسافرين وهو لأمانته يحيلها

إلى خزينتهم المشتركة، ثم أخذ يسأل ببالغ الاهتمام عن سلامة رفاقه، بعدما أخبروه بأن بعضهم بل خيارهم لقوا حتفهم بطرق شتى لكن ببسالة الأبطال في كل الأحوال. أشار عليهم بأن يدعوا الأمن يستتب على الطرق لمدة معينة، ويتوقفوا عن كل المعارك ملتزمين بهدنة، يستغلونها للبحث عن أقران ويعيدوا تنظيم صفوف كتيبتهم لتستردّ سالف عددها بمجندين جدد شبان، يمكنهم في سبيل ذلك إجبار الكارهين بالترهيب وحفز المشتهين بالترغيب بمكافأة مغرية، وما بقلة من سيؤثرون التخلي عن حياتهم الوضيعة الذليلة والانضمام إلى فريقهم، مثال السؤدد والبطولة، وهو من جهته لقي مؤخرًا فتى في ريعان الشباب فارغ القوام عريض البنية فاره اليد ظلّ ينصحه حتى أقنعه في النهاية باستخدام قواه التي بلدها طول الجمام في عمل مثمر أفضل والاستفادة من نعمة صحته الجيدة ما دام يسعه أن يفعل، × والامتناع عن مدّ يده الصحيحة لاستجداء الدوانيق، واستعمالها بالأحرى في لمّ الذهب بالصناديق.

#### 7-5 لصّ محنتك

صادق الجميع على أقواله وفرّوا قبول المرشح الذي بدا مرضيا من وصف صاحبهم، والبحث عن آخرين لاستكمال عددهم، فانطلق وعاد برهة يصطحب شابًا قويّ البنية كما وعد، لا أدري بمن من الحضور يمكن مقارنته، إذ يفوقهم كلهم فامة بمقدار رأس، وقد بدأ زغب غضّ يطرّ سارجا على عذاريه، كان نصف مكسوّ ببساطة بخلق متباينة لُفقت بنحو سيّء يلتمع من خلالها صدره وبطنه بارزين من البدانة. دخل في هذه الهيئة

وقال: "حييتهم، موالى الإله الباسل مارس\*، ورفاقي المخلصين منذ هذه اللحظة؛ فاقبلوا بينكم راضين من أناكم راضيا يزخرهمّة وحيويّة، بفضل تقبّل الجراح بجسمه على تلقّي (1) الذهب بيده، ويجعله الموت الذي يرهبه الآخرون أكثر حماسا، لا تحسبوني معوزا أو خسيسا ولا تحكموا على شيمي من هذه الأطماع؛ فلقد قدت فيما مضى كتيبة شديدة البأس ونشرت الدمار في مقدونية بأسرها، أنا اللصّ الشهير هيموس التراكّي\* الذي ترخّف لاسمه الأقاليم من الدّعر، ابن اللصّ المشهور مثله ثيرون\* الذي غدّاني بالدمّ البشريّ في الصّغر، وربّاني بين فصائل سرّيته، نعم أنا جله وريث وقرن شجاعته.

#### 6-7 امرأة كألف

لكنّي فقدت كل ذلك العدد العديد من الرفاق الصناديد، وكلّ ذلك المال الممدود، في زمن جدّ محدود؛ فقد هاجمت وكبلا أميرًا كان يتقاضى مائتي ألف درهم قبل إقالته وفقدان حظوته عندما مرّ، مثيرا على نفسي سخط يوبتر\*؛ لكن سأروي الوقائع بالترتيب لتعلموها. كان ببلاط قيصر رجل معروف بعدد الخدمات يحظى باعتبار خاصّ لدى الامبراطور بالذات، فأخرجه حسد حاقده من نعمته إلى المنفى بوشاية بعض العدا؛ لكنّ زوجته، وهي امرأة تدعى أفلوطينة\* نادرة المثال في العفّة والوفاء شادت لزوجها أسرة قوامها عشرة من الأبناء، صاحبه إلى المنفى لتشاركه في الصّراء، معرضة عن حياة المدينة

(1) تقبّل/تلقّي: suscipientem/excipientem جناس مطلق والفعل الأوّل يتضمّن فكرة الشقّة.

المرفهة وملاذها ومستخفة بها. قصت شعرها وتكرت في زي الرجال ودست في زناها ثرواتها من المسكوكات الذهبية وأنفس مجوهراتها. ودخلت في صفوف الكتبية المرافقة ذاتها. مشاركة بإقدام في كل الأخطار. ساهرة على سلامته باستمرار. مجابهة الويلات المتواصلة بعزم الرجال. بعد مكابدة العديد من مشاق البر وأهوال البحر. بدأت تتوجه نحو جزيرة زاكنتوس\* التي قضى القدر المحتوم بأن تكون مقام زوجها المؤقت.

### 7-7 نهاية عصابة هيموس

رست سفينتهم على ساحل أكتيوم\* حيث كنا نعمل إذناك بعدما بارحنا مقدونية. فنزلوا وقد جن الليل بحانة تقع قريبا من الشاطئ والسفينة للنوم وتجنب اللجة؛ فهجمنا عليهم وسلبنا كل ما لديهم؛ وانصرفنا لكن مواجهين خطرا غير مهين. إذ لم تكد تلك المرأة تسمع قرقعة الباب حتى هرعت إلى وسط الغرفة قالبة بصراخها الدار على ساكنيها. مستغيثة بالجنود وتابعيها كل باسمه بل وبالساكن الجاورين؛ ولولا زعر الجميع الذين لبدوا خائفين. كل على نفسه. لما تم لنا أن ننسحب سالمين. إلا أن تلك المرأة الفضلى. والحق لا بد أن يقال. نادرة المثال في وفائها والمحمودة بكرم فعالها وجهت التماسا إلى قداسة قيصر المجل. وحصلت منه على أن يعود زوجها في القريب العاجل. ويُنأر لها من اعتدائنا بالكامل. هكذا شاء قيصر أن تزول عصابة اللص هيموس. فزال في الحال؛ أجل. على مثل ذلك تقدر إشارة من أمير بذلك الجلال؛ فعلا سحق فيلق من خيرة المحاربين فرقنا وتعقب فولوها وأبادهما وانسلت وحدي بأجهد الجهد ناجيا بهذا النحو

من بلعوم أركوس\* المردي.

### 7-8 حجة بأعجوبة

التفعت برداء نسائي ذي ألوان زاهية وجيوب كثيرة واسعة. وغطيت رأسي بخمار من القماش. وانتعلت حذاء نسائيا أبيض رقيقا. وركبت متخفيا بهذا النحو في زي الجنس الأدنى على حمار يحمل حزمة من سنابل الشعير؛ وعبرت وسط صفوف الجند المنتهزين الذين أفسحوا لي. ظنا أنني امرأة حمار. كل المعابر. فقد كان خدائي الأمردان يومئذ يتألقان بسنا الصبي الناضر. بيد أنني لم أحد عن مجد والدي ولا صيتي الشخصي: سرت متوجسا في خفارة زي التنكري. محاذيا سيوف الجند المصلتة ومع ذلك غشيت بمفردي عددا من الضياع والقرى فتزودت منها بما تيسر؛ وفتح أسماله في الحال. نائرا ألقى مثقال. وقال: "بطيب خاطر أقدم للفرقة هذه الهدية أو المهر بالأحرى عربون حبي. ونفسي. إن لم يكن لديكم اعتراض. فائدا جديرا بثقتكم. وإني لجاعل بيتكم الحجري هذا. في أقصر الأجال. من الذهب.

### 7-9 عقاب أنسب لمحاولة الفرار

أسرع اللصوص بدون تردد يولونه أمرهم بالإجماع: وقدموا له لباسا أليق ارتداه بأبهة بعد خلع أطماره؛ بعد هذا التحول عانق رفاقه فردا فردا، ونصب على أعلى متكى؛ وأقيمت احتفالا بتأميمه مأدبة صحبتها أقداح دهاق. علم من أحاديثهم بخبر فرار الفتاة على ظهري والميتة الفظيعة التي أعتدوها لنا؛ فسأل عن مكانها واقتيد إليه؛ رآها مكبلة بالقيود فانصرف مقبضا

عرونه بامتعاض وقال: "ما أنا بأهوج أو سفيفه لأنقص ما قرّرت، لكنني سأعاني من توبيخ ضميري إن أخفيت ما يبدو لي الصواب عنكم. لكن امنحوني أو لا ثقتكم بحرصي على مصلحتكم. ثم إن باستطاعتكم، إن لم ترق لكم أفكار، أن تعودوا إلى الحمار. أرى شخصياً ألاّ يقدم لصوص عقلاء مثلكم على منفعتهم أيّ اعتبار، حتى الثار الذي طالما عاد على صاحبه بالضّر: إن أهلكم فتاتكم داخل الحمار لن تزيدوا عن التنفيس عن نعمتكم دون فائدة لكم. والرأي عندي أن تأخذوها إلى المدينة وتبيعوها. فبسعر مغر تباع فتاة مثلها في ريق العمر. وأنا شخصياً أعرف منذ فترة بعض جّار الجوّاري يمكن لأحدهم في اعتقادي أن يقني تلك الفتاة بثمن عال لا شكّ وكما تستحقّ فيسوقها بغياً لبني بلده (1)؛ فلن تفرّ ركضا في البراري مرّة أخرى، ثمّ إنها ستتمتهن في المبعي فتدفع لكم ثاركم كاملاً: ها أنا أسديت النصح لكم. وأنتم أولياء أمركم والقرار عائد إلى نظركم."

### 7-10 حكم الحمار على جنس النساء

هكذا رافع عناً وكيل الخزينة العامّة لجمعيّة اللصوص. منقذ الفتاة والحمار الشّهم. لكنّ الآخرين أطالوا التّداول. فكان قلبي في انتظار قرارهم يتقلّى على الجمر. بل بلغت الرّوح التّراقي: أخيراً تبّنوا رأي اللّصّ الجديد، وخلصوا الفتاة حالاً من القيود.

(1) يقنيها بثمن عال لا شكّ وكما تستحقّ فيسوقها بغياً لبني بلده: magnis processuram التّالان عملة أتكيّة = 6000 درهم ثمة تلاعب لفظي إذ يمكن أن نفهم أيضاً: "ذات المواهب الكبرى" باعتبار الجرّ ablativus نعتياً لا أداتياً و"يسوقها كما تستحقّ"، وثمة إحياء بمعنى: "بما يناسب نسبها الرّبيع" لكنّ ضمير الملكيّة suis يخصّ الفاعل.

فلما رأت ذلك الفتى وسمعت ما ذكر عن تاجر الجوّاري والمبعي اهتزت فرحاً وانفجر ضحكها فداخلتني نعمة مشروعة على كلّ بنات جنسها. وأنا أرى تلك الفتاة التي كانت السّاعة تنظّاهر بحبّ خطيبها الفتى والرّغبة في عفة الرّواج الطّهور تبتهج لذكر الماخور والتّجاسة والفجور. كانت إذّاك ملّة النّساء بأسرها وأخلاقهنّ معلّقة بحكم حمار: بيد أنّ ذلك الفتى استأنف حديثه: "مادمنّا عازمين على بيع الفتاة والبحث في نفس الوقت عن رفاق جدد فلم لا نبادر بتوجيه ابتهالات إلى الإله مارس\* وليّنا؟ لكن ليس عندنا. كما أرى. للتّضحية نَعَم ولا للشّرب خمر وافرة أو حتّى وافية. فابعثوا معي بعشرة منكم. يكفوني لأغير على أقرب حصن. فأجلب لكم منه ما يفي بإقامة وليمة ساليّة\*!" وانطلق في نفر منهم. بينما أوقد الباقون النّار وأقاموا للإله مارس\* مذبحة من عشب أخضر.

### 7-11 ومن خبر الغواني فالغواني ضياء في غياهبه

#### ظلام

سرعان ما عاد الأوائل يحملون زقاق الخمر ويلفّون النّعم قطعاناً؛ فاختاروا منها تيساً بالغاً ودكا كثّ العثنون ليقدّموه لمارس\* الصّديق والرّفيق قريانا. وأعدّوا فوراً غداء مفتخراً. انبرى إذّاك مولم الوليمة: "أرجو أن تجدوا فيّ قائداً مقتدراً لا فقط لغاراتكم وغزواتكم. بل كذلك لأنسكم ولذاتكم": وراح يعدّ المأبذة بخفة ويد فرهة. فكنس. ورّب الخوان. وطها وحضّر أطباق اللّحم وصفّفاها بفنّ. لكن طفق بالأخصّ يسقيهم فرداً فرداً أقداحاً كبيراً من الخمر تترى: بيد أنّه كان أثناء ذلك يتردّد، متظاهراً

بالذهاب لإحضار ما تقتضيه الحاجة، على الفتاة فيقدم لها ببشاشة حصصا من الطعام سحبها خلسة من المأدبة وأكوابا من الشراب مزمّ منها قبلها. فكانت تأخذها بنهم وتقبل قلبه العجلى كلّما شاء بين فينة وأخرى؛ وكان عبثهما يزعجني حقًا. "ويحك أيتها الفتاة البكر، أنسيت زواجك ومن يحبّك وحبّين، وعلى عريسك الذي لا عرفه والذي اختاره أبواك شريك عمرك بالأمس القريب تؤثرين هذا السّفاح الملطّخ بالدم والغريب؟ أما تحسّين وخز ضميرك؟ أدرست على عاطفتك واستطبت الدعارة بين القنا والسيوف؟ ماذا لو تطفن بقبّة اللصوص بنحو ما إلى ما بينكما؟ لعلك ستلجئين إلى الحمارة آنذاك، ومن جديد توردينني الهلاك؟ أنت يقينا بجلد غيرك تلعبين!"

### 7-12 خطة ذكية

بينما أنا أردد في داخلي مثل هذا التّنديد باستنكار شديد، التقطت بعض التّلميحات الريبة والتي لا تخفى على حمارة أريب، أدركت منها أنه ليس اللصّ الشّهير هيموس، وما هو سوى خطيبها تليبوليموس\*. فقد قال مواصلا كلامه وبصوت أجهر، لامباليا بوجودي كما لو كنت ميتًا: "نشجّعي، حبيبتي خريطة\* الخلوة، قريبا يكون كلّ أعاديك أسارى بين يديك." ثمّ عاد إليهم وقد لعبت الدّام برؤوسهم، واستنفذ الحمارة طاقاتهم، يترعهم خمرا صرفا غير مذيقة فترها قليلا لهم، بمنعاه هو نفسه عن الشّرب معهم، ولقد أثار حقًا لديّ الشكّ بأنّه خلط بأقداحهم مخدّرا، إذ كانوا كلّهم بلا استثناء يثوون مكفّنين بالخمرة كلّ أمواتا سواسية. عند ذلك وبمنتهى السّهولة شدّ

وثاقهم بإحكام، وقيدهم وفق رغبته، ثمّ أركب فتاته على ظهري وساقني نحو بلدته.

### 7-13 موكب النّصر

لما وصلنا، خرجت المدينة كلّها لرؤية المشهد المرجى؛ هرع للقائنا الأقارب والأصهار والموالي والصّبيان والخدم، والبشّير يعلو وجوههم، والبهجة تفعم قلوبهم، فكانت ترى موكبا من كلّ جنس وعمر، ومشهدا جديدا لعمرى وجديرا بالذّكر مدى الدّهر: فتاة في موكب نصر على عير، كنت في غاية الغبطة من جانبي (1) وحرصت على ألاّ أنشز عن الجوّ كغريب غير معنيّ، فمددت أذنيّ ونفخت خيشوميّ وأطلقت نهيقا عاليا بل كهزم الرّعد مدوّيا، وبينما اقتيدت الفتاة إلى غرفتها حيث أقبل عليها أبواها بحبّة يهددها، أعادني تليبوليموس في جمع غفير من النّاس والدّوابّ في الحال، وأنا غير كاره، على أعقابي. إذ كنت إذّاك فضلا عن فضوليّ أوّد مشاهدة أسر أولئك اللّصوص؛ وبالفعل، داهمناهم وقد شدّت وثاقهم الخمر أكثر حتّى من قيودهم، استخرجت كلّ الأخباء، فحَمَلنا الذهبَ والفضّة وأثقالا أخرى؛ أمّا اللّصوص فقد دُحرج بعضهم مقبّدين كما كانوا إلى الصّخور القريبة وألقوا على شفا الأجراف، وتُرك الآخرون بعد قطع رؤوسهم بسيوفهم، ثمّ عدنا إلى المدينة فرحين مسرورين بهذا الانتقام؛ فأجبلت الأموال إلى الخزينة العامّة ورُدّت لتليبوليموس بالقانون الغادة المستعادة.

(1) من جانبي: pro virilem partem عبارة ذات إيجاء فاحش: "بجزئي الذّكريّ".

مذاك دأبت العروس على الاعتناء بي بمنتهى المودة داعية إتياني منقذها؛ حتى يوم زفافها لم تنسني. وأمرت بملء معلمي شعيرا وإعطائي من الكلال الجفّف ما يكفي بعيرا من بكتريانة\*. مع ذلك كم كنت ألعن محقّا رقى فوتيس المشؤومة التي مسختني حمارا لا كلبا وأنا أرى كلّ الكلاب تحشو بطونها ببقايا وجبة وفيرة أو بما تلتقف اختلاسا. بعد ليلة واحدة تلتقت فيها نثفا تمهيدية من فنّ فينوس\*. لم تكفّ العروس عن ذكر جمائلي لدى أبويها وبعليها حتى وعدوا بإكرامي على الوجه الأكمل. دُعي أخيرا ذوو المشورة من الأصحاب فأعطوا رأيهم في الوجه الأمثل لمكافأتي بما يناسب فضلي؛ رأى أحدهم أن أرجن بالبيت وأغفى من كلّ عمل وأسمّن بشعير منتقى وفول وبرسيم. لكنّ آخر أشار مراعاة لحريّتي وأفنعهم بأن يدعوني بالأحرى أمرح وأعبث في الحقول والمروج مع قطعان الخيل. لأنزو على الأفراس فأعطي مالكتي من البغال شعبا طيّب الأغرّاس.

#### 15-7 وتنفيذ أحمد

لذا دعوا فورا سائس الخيل وسلّموني إليه بعدما استوصوه بي خيرا؛ فرُحّت أملهج أمامه فرحا وبشّرا. ورأيتني أعفيت من نقل الأكياس والأحمال المختلفة. وحصلت على الحزبة وواجدا مع بداية التربيع حتما بعض السورود بين المروج المعشبة. وكان يدور ببالي أنّهم ما داموا يخصّونني حمارا بكلّ هذا الحمد وهذه الأشراف العلية. فسأكرّم بأنعم أجزل وأعظم عند تلقّي هيئتي

البشريّة. لكن بعدما افتادني مرّتي المواشي بعيدا عن المدينة. لم تتبع أية ملاذّ بل ولا أية حرّية؛ إذ بادرت زوجته، وهي امرأة حريصة وبذرة سوء. بارتهاني في التّاف لإدارة رحي طاحونة؛ فكانت لا تنفكّ تلطّني بعصا غير مشذوبة. معدّة على حساب جلدي الخبز لها ولأهلها. بل ما كان يكفيها إنهاكي لإعداد طعام أسرتها. فتطحن حنطة الجيران بتأجير دوراني المستمرّ لهم؛ ولقاء كلّ عملي لا تقدّم لي. يا للغبين. حتى الأعلاف المقرّرة لي. فشعيري بعد قلبه وطحنه بدوراتي تحت نفس الرّحي. كانت تبيعه للأجوار سكّان القرى. وبعد شدّي كامل النّهار إلى تلك الآلة المنهكة حمل لي مع المساء. نخالة خشنة غير مغرّبة مليئة بالحصى.

#### 16-7 في ضيافة أبناء العمومة

سلّمنتي ربة الحظّ القاسية وأنا منسحق تحت تلك الرّزايا إلى أنكال جديدة لأفخر لا شكّ بمأثري وانتصاري الكامل بالداخل والخارج (1) كما يقال؛ فقد نفذ صاحبي يوما وإن بتأخير أمر أسباده. وسمح بدمجي مع قطعان الخيل. هأنذا أخيرا حمارا طليقا سعيدا أنطّ مرحا. ثمّ أقترب متباطئا. نابضا بالشّهوة. لأتخيّر أجنب الأفراس حلائل لي؛ لكنّ تفاؤلي أوردني المهالك مرّة أخرى. وكاد يرديني. فالفحول المسرّجون في المرعى منذ أمد للسّفاد يرتعون حتى الشّبع ويؤدكون من زمان. شداد البأس بطبعهم والأقوى لا شكّ من أيّ حمار. خشوا مزاحمتي وتهجين سلالتهم من زناي بنجائبهم فأخذوا. دون مراعاة قوانين

(1) مأثري بالداخل والخارج: domi forisque fortibus factis جناس صوتي بحرف الفاء.



يوبتر\* المضياف، يتابعون غريمهم بحقدهم المسعور، رفع أحدهم حيزومه العريض موثراً فهدته، وانتصب عالياً، مشمخراً بهامته، فوكزني بسنبيكه الأماميين؛ واستدار لي آخر برده المتين المفتول العضلات فرمحنني؛ وصهل ثالث متوعداً، مدداً أذنيه إلى الخلف، مكشّراً عن صفين من التواجذ القاطعة اللأمعة، وأنهال عليّ عَصاً. تماماً كالذي قرأتُ في قصّة عن ملك تراقي\* (1) كان يقدّم ضيوفه التّعساء لخياله المتوحّشة فتمرّقهم وتفتّرسمهم، ويقال إنّ ذلك الحاكم القويّ كان يُكدي في الشّعير، مقدّماً لسدّ جوع خيله الشّرها أجساداً بشريّة من باب التّوفير.

### 7-17 رفيق جديد

بنفس النّحو مُزّفتُ أنا الآخر بهجمات تلك الجياد المتنوّعة فبتُّ أطلب الرّحى والمدار؛ لكن لم يكف الحظّ ما لقيت من محن كبرى فأعدّ لي من جديد داهية أخرى. فقد أرسلتُ لنقل حطب من الجبل، وكلف بي غلام هو شرّ الغلمان بلا جدل. فكما لو لم يكن يكفيني الإرهاق من صعوبة الصّعود إلى قمّة ذلك الجبل واهتراء حوافري من الاصطدام بالتّنوعات الصّخريّة، كنتُ فوق ذلك أطرّق بوابل من ضربات العصا المتتالية فتتغلغل أوجاعي من الكدمات فيّ حتّى التّخاع. وكان يوقع ضرباته دوماً بفخذي اليمين، حتّى تقرّح جلدي من تنالي الضّرب على نفس المكان، وغار القرع فصار ثقباً، بل حفرة أو كوّة، وهو لا ينفكّ عن لطع الجرح

(1) الملك التّراقيّ: ديوميدس عود خيله افتراس الأجنب، قتله هرقل بطلب من يورست وحمل له الخيل.

النّازّ دماً؛ وكان مع كلّ ذلك يُثقل ظهري بزنة من الحطب تخالها لضخامتها أعدت حمولة لفيل لا لعير، والأمر من ذلك أنّه كلّما أبهظ الحمل من جانب وأخذ في الميلان، عوض إنزال شيء من الحطب من الجانب التّراجح المنذر بالتّداعي كما يفترض فيريحني إذ يخفّف قليلاً حملي، أو نقل جزء منه إلى الجانب الآخر لتحقيق التّوازن على الأقلّ، يزيد أحجاراً إلى الجانب المقابل معالجا بهذا النّحو اختلال التّقل.

### 7-18 ملاذّ حياة الرّيف

ثمّ ما كان يكفيه، بعد كلّ أضراري، ثقل حمولتي المفرط، فكلمّا عبرنا نهراً يتدفّق عرضاً عرضاً طريقنا، يثب لحفظ مداسه من البلبل على عجزي ويركب ضعفاً على إباله، وثقلاً فوق ثقالة، وإن كان طفيفاً لا محالة. وإن حدث أن زللت وأنا أروح تحت وطأة حملي على حافة الضّقة المنزلقة من الطّمي، وكبوت متهافتا إلى الأمام، فكان على سائسي الشّاطر مدّ يده وجذبي من رسني، أو شيلّي من ذيلي، أو على الأقلّ سحب جزء من حملي المفرط لأنّهض، × يمتنع عن تقديم أيّ عون لي في عجزي، وبدءاً بالرّأس بل بالأذنين، ينهال على كلّ مكان في جسمي بعصا غليظة فينّهضني الضّرب كإكسير منعش. كذلك ابتكر لي هذه الحيلة المهلّكة: لفّ أشواكا لأذعة الوخز سامّة الرّؤوس، برم عليها على شكل دّبوس، وربطها بذنبي منخاساً متدلّياً شديد المضرة، لتتحرك إذا مشيت مسبّبة لي غزغزة مؤلمة بحماها المردية.

7-19 حيلة طريفة وظيفية

فكنت أفاصي منها أذى مزدوجا: إذا اندفعت أعدو هربا من ضرباته الموجعة، أصابني من تسارع الأشواك أشدّ المضرة، وإذا تباطأت قليلا لاجتناب تلك الأذى، أعادني الضرب مكرها إلى الهرولة. هكذا لم يكن لذاك الغلام المتوقّد شتّرا من شغل. كما يبدو، سوى السعي في هلاكي بكلّ السبل، بل أكثر من مرّة ألى ليوردتني الردى. وبالفعل تستى له مرّة أن يدفع مكره إلى محاولة أدهى، إذ عيل صبري يوما من فرط اضطهاده، وأزجيت له رمحات شدادا؛ فابتدع للإيقاع بي هذه المكيدة. حمّلتني رزمة من المشاقفة ربطها عليّ جيّدا بحبل، ثمّ ساقني على الطريق، فاختلس من ضبعة قريبة جذوة متّقدة وضعها وسط الحمل، فما تلبث التار أن حمى مغدّاة بذاك الوقود الدقيق، وتثجّ ألسنة مارجة من اللهب ويشبّب في جسمي حريق، دون أن يلوح لي ملاذ من هذه المأساة، ولا بارقة أمل في النجاة؛ والحريق لا يحتمل الانتظار أو التروّي لاتخاذ أنسب قرار.

7-20 الخلاص

أخيرا التفت الحظّ لي، وأنا في هذه الورطة المهلكة، وضّاحا باسماء، ربّما لاستبقائي لمهالك آتية، لكنّه في تلك اللّحظة على الأقلّ أنقذني من موت مبرم محقّق. لحّت صدفة بالقرب منّي بركة ماء عكر تركها مطر الأمس، فغطّست فيها بقفزة مرّجلة، وبعد إطفاء النّار تماما، خرجت أخيرا وقد أرحت من حملي وجوت من الهلاك. لكنّ ذلك اللّعين زاد على ذلك فرماني بفعلته

السّوءى، مؤكّدا لكلّ الرّعاة أنّي من تلقاء نفسي عند مروري بخطى متعثّرة حذو موافد للجيران وقعت فأوقدت التّار في نفسي بمحض إرادتي؛ وأردف ضاحكا: "حتّام نعلف سدى أبا لهب هذا؟" بعد ذلك بأيّام قليلة دبّرت لي مكيدة أنكى: فقد عمد يوما إلى بيع حمل الحطب في كوخ قريب وأعادني فارغا، مدّعيا عجزه عن السّيطرة على شراستي، ورفضه الاستمرار في تلك المهنة النّكدة؛ ومضى يلقّق تهما من هذا القبيل:

7-21 من أفواه الأطفال تخرج الحقيقة

"أرون هذا المثّافل الكسلان، والحمار أكثر ممّا في الإمكان؟ بعد فعالة الشّائنة الأخرى العديدة، ها هو يوقعني في مخاطر جديدة، كلّمّا رأى أحد المائة، من امرأة مليحة أو بنت يافعة أو غلام نضر، ألقى حملة حالا بل والوكاف أحيانا وانقضّ عليه في سعير؛ فعاشقنا مشتهه للبشر، يطرحهم أرضا ويدهمهم فاغرا فاه، محاولا إرضاء شهواته الشّاذة المحرّمة وغرائزه الوحشيّة التّهمة ويدعوهم إلى قران تمقته فينوس\*. بل وبفيه البشع، في محاولة لمحاكاة قبلة الإنسان بمسكهم قسرا ويشبعهم عضا: صدّقوني، سيسبّب لنا هذا الأمر بالتّأكيد خصومات ومشاكل غير هيّنة، بل، من يدري، وقضايا ربّما، قبل حين مثلا رأى شابّة محترمة فأوقع حمل الحطب وبعثره واندفع في هياج مسعور بالتّجاهها؛ وما لبث عاشقنا المرهف أن طرح تلك المرأة على الأرض بأوساخها، راغبا هناك أمام التّاس في اعتلائها، ولو لم يهتّب بعض المائة استجابة لصراخها، فيخلّصوها من بين حوافره بعدما كاد يدقّ عظامها، لتعرّضت المسكينة إلى كارثة شنيعة، تاركة لنا

7-22 حكم يناسب الجرم

بهذه الأكاذيب مزوجة بأفواويل أخرى كانت تمضّ صمتي المخزي بشدّة، أثار ضديّ مشاعر الرّعاة بحدّة. قال أحدهم: "ألا يجدر بنا أيّها الرفاق أن نقدّم هذا الرّوج العموميّ بل هذا الرّاني بكلّ من يجد كفارة للآلهة عن فواحش المنكرة كما يستحقّ؟" وأضاف: "هيا يا ولد، انحره فوراً. وارم الحوايا لكلابنا، واحتفظ ببقية اللحم طعاماً للعمال؛ ولنعدّ جلده مدبوغاً بالترّماذ إلى أسيادنا فنقول أكله الذّئب، يصدّقونا بسهولة." وبدون تردّد أسرع متّهمي الماكر ومنقذ حكم الرّعاة فيّ معاً، فرحاً شامتا لمصائبى متذكّراً تلك الرّفوسة- التي يؤلني أنّها وحقّ السّماء لم تجد نفعاً- يشحذ سكيناً على حجر المسنّ.

7-23 جأة معجزة ( بالمعنيين )

لكنّ واحداً من مجموعة الرّعيان انبرى قائلاً: "حرام وحقّ السّماء أن نتلف بهذا النّحو حماراً جيّداً مثله، ونحرم أنفسنا خدمته ونحن إليها بأمرّ الحاجة، مجرّمين مزاجه الشّهوانيّ الماجن. والحال أنّنا لو اكتفيناً بخصيه لما أمكنه التّحرّش بعد أبداً ولخّصكم حينئذ من هذه المخاوف وزيد فوق ذلك ودكا وبسطة في الجسم. أعرف العديد من الجياد الشّرسة، ناهيكم عن الحمير المسالمة، احتدّت من فرط الغلظة طباعها ثمّ عادت بعد خصيها سلسة ليّنة لا تتأبى عن حمل الأثقال وتحمّل غير ذلك من الأعمال. بعد بضعة أيّام سألّهم خلالها إلى السّوق القريبة

لبعض حاجتي، يمكنني، إن قبلتم فكرتي، أن أخذ من البيت عدّتي وأعود إليكم فوراً فأستلّ من بين فخذي عاشقنا الفظّ المنقّر ذكورته وأجعله أودع من الحمل."

7-24 أهلاً وسهلاً

انتشلني هذا الحكم من بين يدي أركوس\*. لكن ليستبقيني لعقاب أنكى؛ فلبثت أتألّم باكيا على هلاكي الكليّ الوشيك في أقصى جزء منّي(1)، أخذت أفكّر في طريقة للانتحار بالإضراب المتواصل عن الطّعام أو بإلقاء نفسي من شفا هاوية؛ في تلك الحالة أيضاً سأموت لا محالة لكن سأموت كاملاً على الأقلّ. ما زلت أتردّد في اختيار ميتتي حتّى عاد في الصّباح جلاّدي، ذلك الغلام اللّعين، ليسوقني على طريق الجبل المعتادة، ربطني إلى غصن يتدلّى من شجرة بلوط فارعة، ثمّ تنحّى قليلاً عن الطّريق ليقطع بالبلطة حمولة من الحطب؛ فجأة طلع علينا من مغارة قريبة، مطلقاً بهامته الضّخمة، دبّ رهيب، حالماً رأيته نكصت فزعا مذعوراً من هذه الإطلالة المفاجئة، راکزاً كلّ ثقل جسمي في عرقوبيّ الخلفيّين(2)، رافعاً هامتي في جموح، فقطعت زمامي وفررت فوراً من هذا الخطر المهول، دافعاً بأقصى سرعة عبر الشّعاب لا قوائمي فقط، بل كامل جسمي، وانطلقت أركض بسرّعة جنونيّة إلى سفح الجبل حيث تمتدّ بطاح رحبية، هاربا

(1) أقصى جزء منّي: كلمة novissimus متعدّدة المعاني، فقد تعني الأسفل أو الأعمّ أو الأبعد.

(2) ثقل جسمي في عرقوبيّ الخلفيّين: corporis pondus in postremos poplites مجانسة صوتيّة بالباء.

بأقصى طاقتي من الدّب المتوحّش والغلام الأسود! منه (1).

### 7-25 الخلاص أخيرا

بعد قليل رأني مسافر سائبا فاستولى عليّ وامتطاني بسرعة، وساقني على طريق منحرفة لا أعرفها، غيرضآن عليّ بجلدات من عصا كان يحملها، فامتثلت دون ممانعة لشواره، نائبا بنفسي عن مجزرة ذكوتي المريفة، وما كنت، والحق يقال، أتضيق كثيرا من ضرباته، فقد ألفت الضرب وشكّلت في قالبه، لكن أرى الحظّ التصادفي في اضطرهادي إلا أن ينغص عليّ سريعا كعادته انسحابي الذي أتاحتني فرصة فريدة، فنصب لي شراكا جديدة، بينما أولئك الرّعاء يجوبون أنحاء البلاد بحثا عن عجلة أضاعوها، لاقونا فجأة فعرفوني حالا وأمسكوا بزمامي محاولين جرّي، غير أنّ صاحبي تصدّى لهم بجراة وحزم، مستشهدا الناس والآلهة: "لماذا تغتصبون حقي عنوة؟ ولماذا تعتدون عليّ؟" فردّوا: "ماذا تقول؟ أنغلظّ معاملتك وأنت سرقت حمارنا؟ لم لا تقول لنا بالأحرى أين أخفيت الولد سائسه الذي قتلته بلا شكّ." وفي الحين تلوّه أرضا وأشبعوه لكما ورفسا، والمنكود يصيح من ألم الضرب والرّجّ، مقسما أنّه لم ير سائسا بل وجدني سائبا فأخذني طمعا في البشارة التي سينالها حتما عند رده إلى صاحبه، ويقول: "لولا ينطق هذا الحمار الذي ليتني ما رأيته أبداً فيشهد عليّ براءتي، لتندمّن إذّاك وحقّ هرقل عليّ إساءتكم." لكنّ تأكيدات لم تأت بنتيجة، إذ أخذه أولئك الرّعاة الجفافة من خناقه فعادوا به إلى أحراج الجبل الكثيفة حيث اعتاد الغلام الاحتطاب.

(1) الغلام الأسود: pejorem puerum جناس مختلف.

7-26 ويصدق وعده والصدق شرّ إذا ألقاك في الكرب

### العظام

أمّا هو فلم يُعثر عليه في البريّة في أيّ مكان لكن شوهدت جثته كأشلاء ممزّقة مبعثرة في أماكن متفرّقة، أدركت أنّ ذلك بلا ريب فعل أنياب الدّب، وكنت لعمري سادلي بما أدري لو أسعفني التّطق؛ لكنّ كلّ ما كنت أستطيع فعله هو أن أتلدّذ بصمت هذا الثّار وإن تأخّر، وبعد جمع الأشلاء المتناثرة عثروا في التّهاية على كامل الجثّة ورفوؤها بشديد المشقّة وواروها الثرى على عين المكان؛ أمّا صاحبي بليروفون\*، السّارق الثّابت والقاتل الدّمويّ في اعتبارهم، فقد افتادوه مقبّدا إلى ديارهم في انتظار أخذه غدا عند مطلع التّهار إلى القضاة لينال عقابه حسب أقوالهم، بعد ذلك ظلّ الأبوان ينتحبان ويلتدمايان أسى على الغلام إلى أن قدم عليهما ذلك الرّاعي غير مخلّف وعده طالبا إجراء العمليّة المقرّرة، فقال أحدهما: "ما من ذلك مصابنا الحاضر (1)، لكن غدا يمكنك بالتّحقيق أن تفصل لهذا الحمار اللّعين لا خصيتيه فحسب بل وحتّى رأسه ولن نعدم عون جماعتنا."

### 7-27 جريمة ضدّ الإنسانيّة

هكذا تمّ تأجيل عذابي إلى الغد؛ فرحّت أحمد معروفه للولد الودود فميّتا على الأقلّ منحني مهلة يوم على تعذيبي، لكنّهم لم يعطوا نفس المهلة لعرفاني ولا راحة بالي؛ فقد هرعت أمّه إلى

(1) ما من ذلك مصابنا: non est indidem praesens jactura nostra جملة فيها غموض فقد تعني: ليس هو السّبب، أو ليست خصيتاه السّبب أو ليس ذلك ما يشغلنا الآن كما توحى به بقية الجملة.

الإسطبل شاكية باكية ميتة ابنها الشنيعة، متشحة بثياب الحداد، ممزقة بكلتا يديها شيبها المعقر بالرماد، مولولة ورافعة بالعويل صوتها. وبعدما لطمت وأدمت صدرها أنشأت تقول: × "هذا الذنيء الآن مكب على المذود يطلق لشراسته العنان حاشيا جوفه البربخ السحيق مستزيذا، لا بيالي بأساي ولا يذكر فاجعة سيده المغتال. بل واضح أنه بالعكس يستهين ويستخف بشيخوختي وعجزتي. ويظن بوسعه الإفلات من العقاب على جرمه الخزي؛ لكنّه بنحو ما يتصوّر نفسه بريئا، فمن المناسب ارجاء راحة البال بمحاولات سوءى لكبت الشّعور بالذنب. إذ من يا أسوأ الدوابّ كافة، تستطيع حتى لو أتيح لك الكلام لحظة، أن تقنع، مهما بلغ غفلة، ببراءتك من هذه الجريمة المنكرة. بحقّ كلّ الألهة، بينما كان بإمكانك أن تدافع عن صغيري بقوائيمك وحميه بأسنانك؟ × لطالما اعتديت عليه برمحاتك النحاس، أفما استطعت الذود عنه وهو يجابه الموت بنفس الحماس؟ × كان بوسعك على الأقلّ حملته على ظهرك في الحين، وانتشاله من بين يدي ذلك اللصّ الدمويّ الزنيم، بدل أن تهرب وحدك، تاركا وسائبا قرينك ورفيقك وراعيك وسيّدك. أجهل أنّ من يرفضون إغاثة أشخاص يواجهون خطر الموت يعاقبون لأنهم إذّاك ضدّ القيم الإنسانية يتصرفون؟<sup>٨</sup> لكن لن تلذّ بنكبتني طويلا يا شرّ سقّاح، فسأريك أيّة قوى تهب الطبيعة ألما فاجعا وأيّ سلاح."

#### 7-28 الدفاع عن النفس بالوسيلة الآخرة ( والأخيرة!)

دستت يديها وهي تقول ذلك، فحلّت زناها وربطت كلتا قائمتيّ وشدّتهما معا بإحكام، بلا شكّ كيلا تبقى لي وسيلة

انتقام. ثمّ تناولت فضييا يمستكون عادة باب الإسطبل بواسطته، فما انفكت تضربني به حتى خارت قواها وخانتها ذراعها، وأفلت بفعل وزنه من يديها؛ × فجرت إلى الموقد شاكية وهن ساعديها، وحملت منه سطاما متّقدا أولجته بين فخذيّ، فلجأت إلى آخر وسيلة للدّفاع عن نفسي بقيت لديّ: حزقت بطني بجهد فأطلقت رشاشا من المشاء لطّخ عينيها ووجهها، × ففرّت أخيرا معمة منخنة وكفتني شرّها، وإلاّ لهلك الحمار ملياغرا\* بقبس النّاية\* مسعورة.

## الكتاب الثامن

### 8-1 أخبار سيئة

لما أعلن صباح الديكة عن رحيل الليل، قدم من المدينة المجاورة شابٌ بدا لي أنه أحد خدم خريطة، الفتاة التي قاست معي عند اللصوص مثل محني. فأخذ يروي، جالسا قرب النار بين مجموعة رفاقه أخبارا غريبة وفظيعة عن هلكتها ودمار كل أسرته، "أيها السّواس والرّعاة والبّقارة، لقد قضت مولاتنا خريطة، قضت المسكينة في حادث مروّع نحبها؛ لكنّها لم تذهب إلى عالم الأشباح وحدها، لكن لتعلموا كل شيء سأروي لكم كل الأحداث من البداية، ولعمري إنّها تستحق أن يدونها في واحد من كتب السّير فطاحل الأدياء الذين منحهم الحظ ملكة الكتابة. كان يوجد في المدينة المجاورة شابٌ أتاه كرم محتده جاها ومالا، لكنّه منغمس في مفاسد القصف والمجون وفي معاقره الخمر نهارا، ومرتبط برفاق سيئين من عصابات المجرمين، بل وملوث اليدين بالدم البشريّ كذلك، يدعى ثراسلّوس\*؛ كذا كان وشاع عنه ذلك.

### 8-2 حبّ من جانب واحد

لما بلغت خريطة سنّ الرّواج، كان بين أبرز خطّابها والتمس ودها بأشدّ الحرص على طلبه؛ ورغم تفوّقه على بقية الخطّاب ومحاولته استمالة أبويها بالهدايا السنّية، تعرّض بسبب سوء سمعته لإهانة رده، ولما آلت بنت أسيدنا إلى تليبوليموس الكرم، ظلّ يغدّي بإصرار هواه المنحدر وغيظه الممض من رفض تزويجها به، فأخذ يسعى للوصول إليها بعمل إجراميّ. أخيرا وجد فرصة أتاحت له الدنو منها فبدأ بعدّ لجريته التي خطّط لها طويلا. في اليوم الذي حرّرت فيه الفتاة من سيوف اللصوص الفتاة بفضل حيلة زوجها وشجاعته، اختلط بجمع المهتئين مبالغا في إظهار بهجته. فهتأ العروسين على السلامة الحاضرة والذّريّة الآتية، واستقبل في بيتنا بين الصّيوف المجلّين إكراما لأسرته اللامعة؛ وراح يمثّل دور الصّديق المخلص مبيتا في سرّه الغدر. وبكثرة تردده عليهما ومشاركته إياهما أحاديثهما، وأحيانا طعامهما وشرابهما، توطّدت المودّة، وشيئا فشيئا أخذ ينزلق لاشعوريّا في هاوية الهوى السّحيقة. ولا غرو، فنار العشق في بدايتها خافتة تلذّ بدفئها العذب اللّطيف، حتّى إذا اضطرمت مغدّاة بوقود الألفة خرّق البشر بحرّها المستعر فلا تبقي ولا تذر.

### 8-3 وضع مسدود

فكّر ثراسيلوس طويلا، إذ لم يجد فرصة مواتية للاختلاء بها، ورأى الأبواب مغلّقة أكثر وأكثر دون علاقة زنا معها، وأدرك أنّه لا يستطيع فكّ قيد عاطفته الجديدة والمتزايدة بعد استحكامها

منه؛ وأنّ عدم خبرة الفتاة بالخيانة الزوجية، حتّى لو وافقت، وإن استحال في الحقيقة أن توافق، يعوقه، مع ذلك كان قضاء غاشم عنيد يدفعه إلى المستحيل كما لو كان يستطيعه. فما يبدو أول وهلة متعذراً يبدو مع توثق الهوى بمرّ الأيام متيسّراً؛ لكن انظروا أرجوكم وانتبهوا جيّدا لتروا إلى أين دفعت بالشّقّي حوافز هواه الجنونيّ.

#### 8-4 مشهد صيد

ذات يوم أخذ تليبوليموس ثراسلّوس معه إلى الصّيد، وهو ينوي مطاردة الوحوش. إذ لا تخلو الأراوى من توحّش. وكانت خريطة لا تسمح لزوجها بصيد ذوات الأنياب أو القرون. وعند ربوة مورقة ومعتمة بظلال أغصانها المتشابكة، حُجبت الأراوى عن مرأى المطاردين، فأطلقت كلاب الصّيد الأصيلة لمهاجمة الطّرائد الكامنة في مخابئها؛ وفي الحال توزّعت وطوّقت كلّ المنافذ ذاكرة أسلوب تدريبها الذّكيّ. محافظة على الصّمت في البداية؛ ثمّ أطلقت فجأة إشارة فلغط كلّ شيء بجلبه نباحاتها المصطخبة الوحشية. لكنّ ما طلع علينا لم يكن وعلا أو أيّلا مذعورا، ولا ربما أودع من كلّ وحوش الفلا، بل خنزيرا ضخما لم ير مثله في البلاد، شثن الجلد، قد اكتنز لحما وقد طبّق شحما، يقفّ على جلده الخشن وبر وضر وتزبترّ على ظهره المحقوقف سبائب كئاف، وهو يزيد هائجا مكشّرا صاّرا بأسنانه، يقدح الشّر من عينيه المتوعّدتين، ويرعد مزمزما دافعا خطمه المرتعش من الغيظ بوحشيّة. فبادر إلى أجرئ الكلاب المتألّبة عليه وراح بفنطيسته يمزّقها ذات اليمين وذات الشمال؛ ثمّ دحص شباكنا

التي عاقت اندفاعته الأولى فمرق منها.

#### 8-5 جريمة كاملة

أمّا نحن المصعوقون كلّنا من الدّعور والمعتادون على أنماط من الصّيد خالية من الخطر والعزل إذّاك بدون ما يقينا، فلذنا بالأيك المتشابك والأشجار للاختباء فيها، هنا وجد ثراسلّوس فرصة مواتية لغدره فأهاب بمكر بتليبوليموس: × "أيشدهنا الذّهل أو الذّعور الأخرق كاستخذاء هؤلاء الأرقاء أو ننخذل في هلع النّساء مفوّتين طريفة بهذا الحجم من بين أيدينا؟ × هيّا نمتط جوادينا ونسرع باللّحاق بها؛ خذ معك بهذه الحرية وسأخذ رمحا من جهتي." وبدون تردّد ولا انتظار، وثبا على جواديهما وانطلقا يلاحقان الوحش بحماس وإصرار، فنكص ليواجههما ملتبّا لديه شراسة فطريّة، ورفع نابيه وهو يتقد غيظا ووحشيّة، ويبحث متردّدا عمّن يهاجم أوّلا، فبادر تليبوليموس برمي حرّيته على ظهره، لكنّ ثراسلّوس ألقى الخنزير ووكز برمحه وقطع عرقوبي جواد تليبوليموس. فهوى على ففاه مجندلا في بركة من دمه، وألقى مكرها على الأرض بصاحبه، في الحال انقضّ الخنزير في هيجان مسعور على المسكين الجائي بالأرض فمزّق ثيابه، ثمّ إيّاه فور نهوضه شرّ مزّق بأنياه؛ لم يندم الصّديق الودود عن سيّء خطّته، بل لم يشف غليله حتّى أن يرى في خطر كذلك ضحيّة ووحشيّته، بل وجّه إليه، وهو يتحامل مهيبا قضيبا للملمة جراحه ويستغيثه بنحو يثير الشّفقة، طعنة برمحه شكّت فخذة اليمنى واثقا أنّ جراحات السّننان ستبدو كجراح الأسنان، ثمّ بيد التقدير أجهز على الخنزير.

8-6 لوعة الأرملة الشابة

بعد مصرع الفتى بهذا النحو، خرجنا نحن الخدم متفجعين من مخابنا وهبنا إليه مسرعين. غير أن الغادر رغم فرحه بتحقيق منيته وتخلصه من خصمه، أخفى بهجته وراء عبوس وجهه، وقطب جبينه مظهرا ألما متصععا وانكب على جثمان صاحبه الذي صنعت يده بعانقه متلوعا، وافتعل ببراعة كل مظاهر الألم، عدا الدموع فقد أبت أن تسيل. هكذا اتخذ لبوسا موافقا لحزننا نحن المنفطرين حزنا صادقا، وما وزرت يده راح للوحش يسنده، ما كاد الجرم يتم حتى ذاع الخبر وبلغ أول ما النبأ الذي لن تسمع مثله أبدا جئت وطار صوابها وانطلقت تجري مسعورة ككاهنات باخوس\* بين ساحات المدينة وحقول الريف نادية في هذيان فجيعة زوجها. فتجمع إليها المواطنين زرافات وتبعها من لقيت على طريقها محزونين مشاطرينها شجونها؛ ما بقي أحد في المدينة لم يأت لمشاهدتها؛ وما هي تجري نحو جثمان زوجها فتنهار فوقه مغشيا عليها، حتى سلمته أو كادت الروح التي نذرت له، وبمشقة انتزعها ذوو قريبتها، فأبقت كرها على حياتها؛ بينما سارت الجنازة لدفن المغتال بشيعها كل الأهالي.

8-7 آلام الأرملة

كان ثراسيلوس يبالغ في البكاء وبذرف الأن، من الفرح لا شك، الدموع التي امتنعت عليه في تمثيلية الأسى الأولى، بل

كان من غلواء مظاهر المحبة يخدع الحقيقة حتى، x داعيا باسمه القتل راثيا فيه صديقه ولدته وعشيرته بل أخاه، غير مهمل في نفس الوقت أن يمسك يدي خريطة عن لطم صدرها ويخفف حزنها ويهدئ نحيبها ويكبح بكلمات رقيقة جماح لوعتها ويواسيها بذكر شتى الأمثلة من ضربات القدر العشوائية، وهو إنما ييدي ذلك الحرص على أداء واجبات برمتصع ليلا مس الأرملة ويفذي بمتعة آثمة عاطفته البغيضة المنكرة. لكن ما إن انتهت مراسيم المأم حتى أخذت العروس تتعجل اللحاق بزوجها، وتجرب شتى الطرق، حتى تلك الرفيقة اليسيرة الغنية عن السلاخ والشببية بهجعة النوم، انقطعت عن الغذاء وتعهد جسمها بضروريات الحياة وأعرضت عن النور معتزلة في ظلمة بيتها، لكن ثراسيلوس بشديد الإلحاح، بالتدخل شخصيا أو من خلال بقية صاحبها وذويها وبواسطة أبويها، انتزع منها أخيرا قسر إرادتها أن تتعهد جسمها الموهن بل المنهار تقريبا من الإهمال بالغذاء والاعتسال، فأقبلت احتراما لمشية أبويها وامتنالا لواجب البر المقدس وإن على مضمض وبوجه خلا من البهجة لكن فيه شيئا من الصفاء على شؤون الحياة كما أمرت: أما في صميمها بين الحنايا والصلوع فظلت تزهر روحها حسرة وكمدًا، وتقضي أياما وليالي بأكملها في أسف فاجع محيطه بالتقديس صورا للفقيد أمرت بإجازها تمثله في هيئة الإله ليبر\* معذبة نفسها بهذا العزاء ذاته.

8-8 رؤيا

لكن ثراسيلوس، المندفع بطبعه والمستمد من اسمه بالذات



مزيدا من الجسارة، لم يخش، قبل أن تروي الدموع ألمها وتسكن لوعة روحها المهیضة ويخفت جزعها المفرط بمزّ الزّمن. × وهي لا تزال تبكي زوجها وممزّق ثيابها وتقطّع شعرها، أن يطلب يدها × كاشفا بتهوّرّه وإن لم تصرّح شفاته خبايا قلبه وغدره الخفى. فاهتزت خريطة نفورا واشمئززا من عرضه الدّنيء، وكما لو نزلت بها صاعقة من السّماء بل من مجنّ يوبتر\* السّاحق انهار جسمها وتغشّى الصّباب نفسها. لكنّها لم تلبث أن استعادت قبلا وعيها فأطلقت زمجرات وحشيّة وهي تنبّئ أخيرا تمثيليّة ثراسلّوس البغيض لكنّها أجلت الرّد على طلب خاطبها حتّى تنظر فيه. أثناء المهلة تراءى طيف تليبوليموس لوجه زوجته الصّافي في المنام مضرجا بدمه مشوّها شاحبا وخاطبها: × "أي زوجتي الحبيبة، بات من حقّك أن يدعوك بهذا النّعت غيري، إن أمحت في صدرك ذكري أو فصم حدث موتي المروع أو اصر المودة بيننا، فلك أن تتزوجي من تشائين، وهنينا لك من تختارين. حذار فقط أن تسلّمي نفسك ليد ثراسلّوس الأثيمة أو تخوضي في حديث معه أو جلّسي إلى مائدته أو تنامي في مضجعه. انأى عن يد قاتلي الملطّخة بدمي، وإياك والزّواج بقاتل من آخاه واستأمنه: فالجراح التي غسلت دماءها دموعك ليست كلّها من عمل أنياب الخنزير: رمح ثراسيلوس الماكر هي التي فرّقتني عنك"؛ وأضاف تفاصيل أخرى، موضّحا صورة الجريمة.

### 8-9 واحدة بواحدة

فظلت، منذ أن اضطجعت محزونة كاتبة وجهها إلى الفراش، وحتّى في نومها، تبلّل خديها بفيض دموعها. وهبّت من نومها

المضطرب(1) كما لو أفضّ هاجس مضجعهها. فعادت إلى النّحيب شاقّة جيبها لأطمة بيدين فاسيتين زنديها الجميلين. لكنّها لم تُطلع أحدا على رؤيا تلك اللّيلة وكنمت تماما ما أُبين لها عن الجريمة. وقرّرت في سرّها الانتقام من القاتل الرّزيم والانسحاب من حياة كلّها شقاء. وما لبث طالب اللّذة المتهوّر البغيض أن عاد يزعج بحديث الزّواج أذنيها المسدودتين عن هذا الموضوع. فردّت بلطف طلبه، وأجابت على نقيقه اللّحوح. ممثلة دورها ببراعة عجيبة: × "ما زالت طلعة أخيك وزوجي الحبيب ماثلة أمام عينيّ في حسننها الرّبانيّ، وما زال شذا الكافور يفوح في أنفي متضوّعا من جسمه الإلهيّ، وما انفكّ يعيش في فؤادي شخص تليبوليموس البهيّ. لذا حسنا تفعل بترك الوقت للأزم لقلب امرأة مفجوع لإتمام حدادها المشروع، وإنهاء ما تبقى من الحول في بضعة شهور. ذلك يصون عرضي وكذلك يراعي مصلحتك؛ فرّما أثرتنا بزواج قبل انقضاء العدة روح زوجي واستنكارها المشروع فسعت في هلكتك."

### 8-10 استدراج المجرم

لم تعقل هذه الأقوال ثراسلّوس، ولم يكف حتّى هذا الوعد المجاري لهواه لإنعاشه، بل واصل لسانه بإلحاح حتّى التّخمة جواه الأثيمة، إلى أن أجابته يوما، متظاهرة بالاستسلام: "لا بدّ إذن يا ثراسلّوس أن تحقّق لي هذه الرّغبة المهمّة بالنّسبة لي: أن نعقد لقاءتنا لبعض الوقت في السّر مع التّكتم التّام، كيلا يلحظ أحد من ذوي شيئا إلى أن يستوفي الحول ما بقي من (1) نومها المضطرب: inquieta quiete جناس مطلق مع مقابلة.

الأيام،" فاستسلم ثراسلوس مغلوبا لوعده المرأة الكذوب، وسارع بالموافقة على المعاشرة السرّية، وها هو يتحرّق منتظرا هبوط الليل وفي ركابه ستر الظلام، مقدّما شهوته على كلّ شيء سواها. أضافت خريطة: "لكن رويدا! تعال أوّل الليل إلى الباب بصمت، مستخفيا بثوبك بنحو جيّد، وبدون رفقة أحد، وصقّر مرّة واحدة، وانتظر مرّيتي التي ستقف خلف الباب الموصل مترقبة قدمك. ستفتح لك الباب حينئذ وتُدخلك، ثمّ تقودك إلى غرفتي بدون ضوء قد يشي بنا."

#### 8-11 في المصيدة

راقت لثراسلوس تمثيلية هذا الزّواج الجنائزيّ، ولم يربّب بأيّ شيء، بل بقي ينتظر مضنى معنّى من تمطّي النهار الطّويل وتأخر العشيّ. وما إن أفسحت الشمس لليل، حتّى حضر متنكرا حسب تعليماتها وأضلته حراسة المرّية الزّائفة فدلف إلى الغرفة يحده الأمل. سارعت العجوز إذّاك بأمر سيّدها إلى خدمته بتودّد، وأخرجت خلسة أكوابا وقارورة حوي مخدرا مزوجا بالخمير؛ فظلّ يحتسي الأكوام تباعا، بنهم وطمأنينة، وهي تكذبه الخبر عن تأخر سيّدها، زاعمة أنّها ذهبت لزيارة والدها المريض؛ وبسهولة لحدته في غيب النوم، إذّاك تركته ثاوبا على ظهره معروضا لينفّذ فيه العقاب، ودعت خريطة، فدخلت باندفاع وحشيّ مرتجفة جيش بعزم ذكرّيّ؛ إذّاك وقفت على جسم القاتل وهتفت:

#### 8-12 اللبوة الجريحة

"هوذا إذن صديق زوجي الصّدوق، هوذا الصّياد الأريب والزّوج الحبيب؛ هي ذي اليد التي سفحت دمي، وهوذا الصّدر الذي حبك مكائد للإيقاع بي؛ تان هما العينان اللتان رفقت لشفائي لهما، ها قد بدأتا تغرقان في ظلمات كالتّي تنتظرهما وتستبقان عقابهما الذي أتى. نم قرير العين وانعم بهنيء الأحلام؛ فما أبتغي لك السيف والقنا الصّمّ؛ بعيدا عني أن أعدلك بزوجي بإعطائك مثله ميتة ماثلة له؛ بل لتموتنّ عينك وأنت حيّ، ولن ترى بعد شيئا إلّا في الأحلام مدى عمرك؛ لأجعلتك ترى موت خصمك أسعد من عيشك، كلاً، لن ترى النور، وستحتاج إلى يد مرافق يفودك؛ لن تأخذ خريطة بين ذراعيك ولن تنعم بالزّواج بها؛ لن تهنا براحة الموت ولا بلذّة الحياة؛ لتهمنّ شبحا منبوذا بين ملكة الموتى وعالم الصّياء ولتبحنّ طويلا عن اليد التي فقأت عينيك؛ والأمرفي شقائك أنّك لن تعرف حتّى من تشكو، لأسقين قبر حبيبي من دم ناظريك، ولأقدّمنّ لروح الطّاهرة تينك العينين كقّارة عن جرمك، لكن لِم أوخر عقابك العادل وأدعك تريح أية لحظة، وتخلّم ربّما بضمّات عنافي المردية؟ فلتدع ظلمة المنام إلى ظلمة أخرى ستلفّ ما حييت بقظتك عقابا لك، هيّا ارفع وجهك المطقاً ضياؤه وتعرّف عقابك وأدرك نكبتك وعدد أزرعك؛ كذا راقت لزوجتك الخفّرة عينك، وكذا أضاعت مخدعك مشاعل الزّفاف؛ ستكون ربّات النّقمة\* وصيفات عرسك وعاهتُك ووخر ضميرك أبد الدّهر إشبينك."

8-13 الانتقام

وقبل إنهاء وعيدها، استنّلت من رأسها مشبك شعر فغرزته في حدقتيه، وتركته وقد انطفأ نور عينيه، إلى أن صحا من النوم والسكر معا وبه ألم يجهل مأناه، ثم انتضت السيف الذي اعتاد تليبوليموس أن يتقلده واندفعت تجري في جنون إلى وسط المدينة؛ قصدت مباشرة ضريح زوجها مضمرة، بلا ريب، أمرا إمرأ. فخرجنا، ومعنا كل الشعب، وتبعناها، كل يهيب بصاحبه أن ينتزع السيف من يديها المجنونتين. لكن خريطة افتريت من إران زوجها، وأبعدت بالسيف الملتمع في يدها الجميع، ولما رأته دموعهم الهمت قالت: "كفاكم هذه الدموع التآبية وهذا الأسى البعيد عن شيمي. لقد تأرت لزوجي من قاتله وانتقمت من هادم عشّي المشؤوم وأن الأوان لأجد بحدّ هذا السيف درب إلّفي تليبوليموس."

8-14 نهاية فظيعة

ثم روت لهم الوقائع بالترتيب، ذاكرة كل ما أخبرها به زوجها في منامها، وكيف استدرجت الفانل إلى شرك انتقامها؛ ثم شكّت بالسيف جنبها أسفل ثديها الأيمن، وهوت مضرّجة بدمها، مغمغمة بكلمات مبهمّة. وما لبثت أن سلّمت روحها المتوقّدة بعزيمة رجوليّة حازمة، فغسّلت ذوها جثمانها في الحين ودفنوها في قبر واحد مع زوجها راّدين إليه قرينته الأبديّة. أمّا ثراسلّوس فلمّا درى بما جرى، أيقن أنّه لن يلقى عقابا أنسب لجرمته من الذي هو فيه، وأنّ السيف لا يكفي جزاء فعلته

التّكراء، فطلب أن يُنقل إلى ضريحهما. هناك هتف: "ها هي الصّحيّة تأتيكّن طوعا، أيتها الأرواح الغضابي!" ثم أفل على نفسه باب الصّريح بإحكام وقترّ، بمحض إرادته، أن يُفني بالطّوى نفسه الموسومة للعذاب بحكمها هي ذاتها."

8-15 العبيد الأبقون

روى الفتى القصّة على الرّعاة، وهو يطلق في عدّة مواضع زفرات طويلة ويغالب العبرات، فتأثّروا لها كثيرا، وفي أسفهم للكارثة التي دمّرت بيت سيّدهم، وخوفهم من الانتقال إلى مالك جديد، قرّروا الفرار، لكنّ سائس الدّوابّ ذاك الذي تسلّمني مع أوكد التّوصيات حمّل ظهري وظهور بقية الدّوابّ كل ما يحتفظ به من النفائس المخبوءة في البيت، وارخل من الحلّ القديم، كتنا نقل التّسوان والولدان ونقل الفراريج والفرّاح والجراء والجديان؛ بحيث كان كل ما يعطّل ببطء سيره فرارهم بمشي على أرجلنا، ولم يكن وزن حمولتي، على ثقله، ليكّذي، وأنا أخلف وراء ظهري، بفضل هذا الفرار الميمون، جرّار ذكورتي الملعون. اجتزنا قمّة جبل وعمر مكسوّ بشجر، ثم طويّنا من جديد سهولا رُحبا؛ ولما بدأ العشاء يعتّم درنا وصلنا بلدة أهلة غنيّة، منعنا سكّانها من مغادرتها ليلا وحتنّ في الإيكار. فقد زعموا أنّ ذئابا عديدة فارعة القوام ضخمة الأجسام وشرسة مفرطة الوحشيّة اعتادت الخطف في كل البلاد وأكثرت فيها الفساد، بل غزت حتّى الطّرق وغدت تهاجم المسافرين كاللصوص، وتدفعها شدّة الجوع أحيانا إلى مهاجمة الصّياح الواقعة على أرباض البلدة في هياج مسعور، فصارت تهدّد بويلاتها النّاس فضلا عن البهائم العجّز.

وَأَنْ جِثْنَا بِشَرِيَّةٍ. نُهَشْتُ أَجْزَاءَ مِنْهَا وَجُرِدَتْ هَيْكَلُهَا مِنَ اللَّحْمِ وَالْأَحْشَاءِ تَنْتَرِنُ نَاصِعَةً عَلَى الدَّرْبِ الَّذِي يَنْوُونَ أَنْ نَسْلُكَهُ؛ فَلَا بَدَّ وَالْحَالِ تِلْكَ أَنْ نَتَّخِذَ أَوْكِدَ الْإِحْتِيَاطَاتِ لِلتَّسْبِيرِ عَلَى الطَّرِيقِ. وَنَتَقَيَّدُ خَاصَّةً بِالْإِنْتِظَارِ حَتَّى سِرَاةِ النَّهَارِ وَسَطُوعِ الشَّمْسِ عَالِيَا فِي كِبِدِ السَّمَاءِ؛ إِذْكَ فَقَطْ يَخْبُو. بِإِنْتِشَارِ الضِّيَاءِ، هَيْجَانِ تِلْكَ السَّبَاعِ الضَّارِيَةِ، فَجَنَازَ تِلْكَ الْأَهْوَالِ، لَا مَتَفَرِّقِينَ شِرَازِمَ، بَلْ مَلْتَفِّينَ صَفًّا مِرْصُوصَا (1).

### 8-16 معركة مع الذئاب؟

لَكِنَّ سَوَاقِنَا الْأَوْبَاشِ الْأَبْقِيْنَ فِي عَجَلَتِهِمْ الْمُنْتَهَوْرَةَ غَيْرِ الْمُبْتَصَّرَةِ، وَخَوْفِهِمْ مِنْ مَلَاحِقَةٍ غَيْرِ مُحَقَّقَةٍ، اسْتَهَانُوا بِالتَّحْذِيرِ الْأَظْمَنِ لِسَلَامَتِنَا، فَلَمْ يَنْتَظِرُوا بَزُوغَ الشَّمْسِ، بَلْ سَاقُونَا عَلَى الطَّرِيقِ مَثْقَلِينَ بِأَحْمَالِنَا فِي الْهَزِيعِ الثَّلَاثِ مِنَ اللَّيْلِ. فَكُنْتَ، لَخَوْفِي مِنَ الْأَخْطَارِ الْمَذْكُورَةِ، أَنْحَشِرُ قَدْرَ الْمَسْتَطَاعِ وَسَطِ الشَّرْبِ وَأَتَخَفِّي بَيْنَ الدَّوَابِّ الْمُتَصَاقِبَةِ، لِأَقِي دَبْرِي هَجْمَاتِ التَّوْحُوشِ، وَالْجَمِيعِ فِي أَشَدِّ الْعَجَبِ مَنِّي وَهَمِ يَرُونِي أَهْمَلِحَ مَجْلُودًا سَابِقًا بِقِيَّةِ الْخِيُولِ. لَكِنَّ سُرْعَتِي كَانَتْ أَمَارَةً خَوْفٍ لَا حَيَوِيَّةَ، حَتَّى صَرْتُ أَفْكَرَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي أَنَّ الْخَوْفَ هُوَ الَّذِي أَكْسَبَ لَا شَكَّ بِيغَاسَسَ\* الشَّهِيرَ قَدْرَتَهُ الْعَجِيبَةَ عَلَى الطَّيْرَانِ، وَحِبَاهِ بِنَجَاحِينَ كَمَا يَنْبَغِي لِذَلِكَ الشَّانِ، فَصَارَ يَقْفُزُ فِي الْجَوِّ حَتَّى السَّمَاءِ وَيَرْتَدُّ خَوْفًا بَلَا شَكَّ مِنْ عَضِّ خَيْمَارَةٍ\* قَازِفَةِ التَّيْرَانِ. وَقَدْ تَسَلَّحَ سَوَاقِنَا

(1) الذئاب في الطريق: في "المرافعة" 72 كذلك حديث عن السباع في صحراء سرت وخطرها على المسافرين، صورة الذئب في الأدب القديم قائمة عموماً تقترن بالبطش والخطاة، وقد ينفرد الشنفرى الأزدي برسم صورة إيجابية للذئب فيها كثير من التعاطف، جُد شيئاً منه في فصيدة للبحرّي ومثله عند فينيي.

الرَّعَاةِ اسْتِعْدَادًا لِلْمَعْرَكَةِ، هَذَا بِرَمَحِ وَذَاكَ بِحَرْبَةٍ وَالْآخِرُ بِسَهَامٍ وَبِحِجَارَةٍ يَعْجُ دَرِينَا الْحَصْبَ بِهَا، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَمْتَشِقُونَ قَسِيًّا مَذْبِيَّةَ الطَّرْفِ، وَأَكْثَرُهُمْ يَحْمَلُونَ مَشَاعِلَ لِتَخْوِيفِ السَّبَاعِ، فَلَا شَيْءَ يَنْقُصُنَا سِوَى التَّنْفِيرِ عَنِ كِتَابَةِ إِلَى الْهَيْجَانِ تَسْبِيرٍ؛ وَمَجَانَا (1) تَعَرَّضْنَا إِلَى ذَلِكَ الْخَوْفِ الْأَخْرَقِ إِذْ وَقَعْنَا فِي مَصِيبَةٍ أَدْهَى. فَالذَّئَابِ، رُبَّمَا لَخَوْفِهَا مِنْ ضَجِيجِ شَبَابِنَا الْمَتَازِرِ، أَوْ مِنْ ضَوْءِ الْمَشَاعِلِ الْبَاهِرِ، أَوْ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْيِثُ فِسَادًا فِي مَكَانٍ آخَرَ، لَمْ خَاطَلَ قَطُّ مَهَاجَمَتِنَا، وَلَا لَاحَ لِأَنَّهَا مِنْهَا حَتَّى مِنْ بَعِيدٍ لِقَافَلَتِنَا.

### 8-17 هجمة وقائية

لَكِنَّ فَلَّاحِي ضَيْعَةٍ مَرَرْنَا بِهَا عَرَضًا حَسَبُوا جَمْعَنَا لِمُوصَا، فَأَخَذُوا، خَيْفَةً عَلَى أَمْلَاكِهِمْ وَتَوَجَّسَا مِنَّا، يَحْرَضُونَ ضَدَّنَا بِصِيحَاتِ التَّحْرِيشِ الْمَعْتَادَةِ وَشَتَّى الْهَتَافَاتِ كَلَابَا ضَخْمَةٍ ثَغْمَةً أَضْرَى مِنَ الذَّئَابِ وَالذَّبِيَّةِ، رُبُّوْهَا بِعِنَايَةٍ لِأَشْغَالِ الْحِرَاسَةِ، فَانْقَضَتْ عَلَيْنَا مَهْتَاةٌ، مِنْ صَرَاحِهِمْ فَضْلًا عَنِ شِرَاسَتِهَا الْفَطْرِيَّةِ، وَطَوَّقَتْنَا مَتَوَثِّبَةً مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، تَهْلِبُ الدَّوَابُّ وَالتَّاسَ مَعَا دُونَ تَفْرِيقِ، وَتَوَقَّعَ بِكِرَاتِهَا الْعَدِيدِينَ عَلَى الطَّرِيقِ، فَكُنْتُ تَرَى مَشْهَدًا حَرِيًّا بِالذِّكْرِ وَبِالزَّئَاءِ أُخْرَى: كَلَابَا أَبَابِيلِ هِيَ فِي ضِرَاوَتِهَا أُسْدُ الشَّرَى، تَنْوِشُ الْفَارِّينَ وَتُغَيِّرُ عَلَى الْوَاقِفِينَ وَتَعْلُو الصَّرْعَى، وَتَصُولُ وَتَجُولُ مَنْشِبَةً أَنْيَابِهَا عَلَى امْتِدَادِ قَافَلَتِنَا، وَكَمَا لَوْ لَمْ يَكْفِ هَذَا الْخَطَرَ الْجَسِيمَ، هَا قَدْ جَاءَتْ الطَّامَّةُ الْكَبِيرَى: فَمَنْ أَعْلَى السَّقُوفِ وَمَنْ عَلَى رِبْوَةٍ قَرِيبَةٍ أَنْهَالَ عَلَيْنَا الْفَلَاحُونَ رَشَقًا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى بَتْنَا لَا نَدْرِي أَيَّ الشَّيْءِ نَنْتَقِي أَكْثَرَ: خَطَرَ الْكَلَابِ (1) لَا شَيْءَ/مَجَانَا: nec quiquam/nequiquam جناس مركب.

القريب أم خطر الحجارة البعيد(1). فجأة نقرت إحداها رأس المرأة المتطية ظهري فأخذت تبكي وتصرخ من الألم وتنادي زوجها ذلك الراعي مستنجدة.

### 8-18 ومزت البليّة بسلام

فأخذ يصيح بأعلى صوته مستشهدا كلّ الآلهة وماسحا دم زوجته: "بأيّ حقّ تعنّفون بوحشيتي وتفتكون بأناس مساكين ومسافرين منهوكين؟ × أيّ غنم تبغون؟ من أية إساءة تثارون؟ لكنكم لا تسكنون عُرُن السّباع ولا كهوف الهمج لعمرى لتتلذّذوا بسفك دم البشر." ما كاد يقول ذلك حتّى كفت شأبيب الحجارة المنهمرة. وهذأت زمرة الكلاب المستعرة بعد إيابها إلى أصحابها. أخيرا من رأس سرورة خاطبنا أحد السّكان: "لسنا نقطع طريقكم نريد سلبكم بل نصدّ من جانبكم نفس العدوان. أما وقد عرفنا قصدكم فلكم أن تواصلوا سيركم بمنتهى الأمان." فاستأنفنا طريقنا جرضى. هؤلاء يشكون جراح الحجار وأولئك هلب الكلاب والكلّ كلى ومرضى. بعدما قطعنا شوطا من الطريق وصلنا إلى غابة باسقة الأشجار تزدهى بتفاريجها الخضرة النّضرة: فاستطاب سواقنا التّوقف هناك قليلا للاستراحة والاعتناء بتضميد أجسامهم الجريحة. استلقوا على الأرض ليستعيدوا أرواحهم وأسرعوا يعالجون بشتّى الأدوية جراحهم. هذا يكفكف بماء نبع يجري قريبا دمه، وذلك يضمّد بكمائد مبلّلة بالخلّ كدماته، وآخر يشدّ بأشرطة على جراحه

(1) لا نستطيع/نتقي. القريب/البعيد: nequimus/cavemus,comminus/ eminus جناسان ومقابلة.

الفاغرة ومضى كلّ يطبّب نفسه على تلك الشاكلة.

### 8-19 الشّيوخ الرّاعي

أثناء ذلك كان شيخ يرقب من فوق ربوة قريبة. وحواليه يرتع قطيع من الغنم والماعز ينبىء بأنّه الرّاعي؛ سأله أحدنا إن كان عنده حليب أو جبن طازج للبيع. فهزّ رأسه طويلا وقال: "ويحكم! أفي مثل هذا الوقت تفكّرون في طعام أو شراب أو استجمام؟ ألا تدرون في أيّ مكان أنتم توجدون؟" قال ذلك وهشّ على شويبهاته وساقها بعيدا؛ فراع جماعتنا كلامه وفراره روعا شديدا. وبينما هم في فزعهم يتساءلون ولا مجيب عن ذلك المكان ماذا يكون. أقبل على الطّريق شيخ آخر كبير أثقلته السنون. منحنيا على عكازه مجرجرا قدميه وهنأ وذارفا دموعا هتنا. فلما رأنا اقترب وأخذ يتوسّل باكيا بغاية التّأثر. متمسّحا بركبّ الفتية واحدا إثر الآخر:

### 8-20 الشّيوخ الثّاني

"أناشدكم يا بنّي بأقداركم والجنّ الموكّلين بكم\* داعيا أن تبلغوا سنّي أصحّاء سعداء، أن تعينوا شيخا خانته الأيام وتردّوا لشيبتي صغيري من قبضة الجّمام. فإنّ حفيدي، رفيق دربي ومؤنس شيبتي، خشّ العوسج قبل قليل ليمسك حسّونا سمعه يزقزق صدفة؛ فوقع في خندق قريب يمتدّ أسفل الجنبات المتشابكة، وحياته الآن في خطر. فإنّي أعلم من بكائه ونداءاته المتكرّرة إلى جدّه أنّه ما زال حيّا؛ لكنّي لوهن صحّتي. كما ترون. عاجز عن إسعافه. بينما يسهل عليكم، بفضل سنّكم وقوتكم،

أن تساعدوا شيخا ضعيفا بائسا، وتنفذوا فلذة كبدي وخلفي الأوجد، آخر حلقات سلالتي."

### 8-21 ما الذي حدث؟

مضى يتوسل باكتا شيبه، فرق الجميع له، ونهض من بينهم فتى أشجع من البقية وأصغر سنًا وأصح جسما هو وحده الساعة خرج سالما من المعمة؛ فسأله عن المكان الذي وقع فيه ولده، وصحب لتوه الشيخ الذي دلّه بإصبعه على عوسج متشابك غير بعيد. ولما استرد كل قواه نحن بالمرعى وهم بالدواء، أخذوا أمتعتهم وشدّت لطيّات مطايا وأرّجّل؛ فنادوا الفتى باسمه مرارا في البداية، ولقلقهم من طول تأخيره بعثوا أحدهم لإخباره بتأهبهم للرحيل والعودة به. ما لبث الرسول أن عاد شاحبا مرجفا يروي معجب الأخبار عن صاحبه: أنه رآه ملقى على قفاه، وقد افترس معظمه، وتنين ضخم واقف عليه يلتهمه؛ أمّا ذلك الشيخ بادي المسكنة، فلم يبد بعد في كلّ الأمكنة، لما سمعوا ذلك وقارنوه بكلام الراعي الذي كان يحذرهم بلا شكّ من نفس الوحش ساكن هاتيك البراري، لا أحد سواه لاذوا سريعا بالفرار، نائين عن تلك الأشراء المشؤومة، مستحثّينا بضربات عصيهم الحمومة.

### 8-22 عقاب العبد خائن زوجته

طوبينا بسرعة كبرى مسافة طويلة، ووصلنا إلى قرية استرحنا فيها كامل الليل؛ هنا أودّ أن أروي حادثه وقعت هناك، جديرة حقًا بالذكر(1). كان يدير الحوزة الواسعة التي نزلنا فيها

عبد وكنه مولاة على كلّ أملاك الأسرة؛ وقد اتّخذ له زوجة من بين العبيد رفاقه، لكنّه شغف بحبّ امرأة حرّة من خارج بيت سيّده، استبدّ الألم بالزوجة من خيانتها فأشعلت النار في سجلّاته وكلّ ما كان يحتفظ به في الحزن، ولم تكنف بذلك الدمار انتقاما من تدميره عشّ زوجيتهما، بل تعدّته إلى إهلاك ذريتهما؛ شدّت حبلا حول جسمها وربطت به ولدا صغيرا له منها، ورمت في غيابة بئر عميقة بنفسها، جارة معها صغيرها، فتأثر سيّدهما كثيرا بميتها، وأمسك العبد المنسبب بفسقه في الكارثة، فشدّ وثاقه عاريا ومطليا بالعسل، إلى شجرة تين × يزخر جذعها النخر بنخاريب نمل لا تنفك طوابيره عن الدبيب بالداخل والخارج، فما إن شممن رائحة العسل اللذيذة المنبعثة من جسمه حتى جمّعن عليه، وما فتئن ينشئنه بقرصاتهنّ الدقيقة لا محالة لكن العديدة في نفس الوقت والمستمرّة، حتى أتى بعد هذا العذاب الممضّ على الرّجل، مستنفدات لحمه وأحشائه، ومعريّات عظامه التي بقيت وحدها مجردة من اللباب تتألّق ببياضها الناصع مشدودة إلى الشجرة المشؤومة.

### 8-23 لوقيوس في السوق مرّة أخرى

تخلّينا أيضا عن هذا المقام الملعون، تاركين الفلاحين نهب الشّجون، وتابعنا السّير طواوين الدّروب طوال يوم بالكمال، حتى وصلنا منهكين إلى مدينة أهلة ذات بال، هناك طاب حظّ الرّجال والإقامة لأولئك الرّعاة، إذ بدت لهم مخبأ آمنا بمنجى من التّتبّعات، وتدعو إلى العيش بها لما اشتهرت به من وفرة (1) قصّة العبد خائن زوجته: هنا يبدو الرّبط ضعيفا.

الخبرات. بعدما أراحوا أجسام الدواب ثلاثة أيام لنبدو أصلح للبيع. قادونا إلى السوق وأعلن الدلال بصوته الجهوري عن سعر كل مئاة. فبيعت الخيل وبقية الحمير لشراة أثرياء. وأفردت مذؤوما بمر كثيرون علي معرضين في ازدراء. وقد ضقت بتلمسهم المقيت لتقدير سنني من أسناني. وسنت بيد أحدهم الممرته بالروث بعدما ظلت تقشط نواجذي وتعبد بأصابعه التتان. فعضضتها ملء فمي وكدت أسحقها. رغب الحادث المحيطين بي عن ابتياعي. باعتباري دابة شرسة الطباع: فأخذ الدلال بعدما أصيبت حنجرته بالبحاح. يتند بصوت أجش على حسابي بفكه المزاح: × "إلام تعرض سدى للبيع هذا البرزون الخصي. منحت الخوافر العاجز الدهري. المشؤوه من الأسقام والوحشي مع كسل وبلادة. فما يساوي لعمري أكثر من منفضة حجارة؟ (1) ألا وإني لمعطيه لأبي يرغب فيه. إن لم يحز طبعاً على شغافه إتلاف أعلافه!"

#### 8-24 شار لا وجود الدهر بمثله

مضى الدلال بهذا الشكل يثير ضحك الحضور من حولي: لكن حظي القاسي الذي لم أستطع فراره بعد الفرار منه (2) في كل المنطقة. ولا إرضاءه بكل نكباتي السابقة. أدار لي عينيه المطفأتين من جديد. فدهاني بشار عثر عليه بنحو عجب. هو أنسب شخص لوضعي العصب. اعلمو من هو: مختث. ومختث عجوز. وفوق ذلك أفرع. لكن مع بضع خصل متدلّية (1) منفضة حجارة: rudarium cribrum نلاعب لفظي خفي. لأن فعل rudere يعني "نهق". (2) فراره/الفرار منه: fugiens/effugere جناس مطلق.

وخطها الشيب (1). واحدا من ثفالة الناس. أولئك الشحاذين الذين يطوفون عبر المدن والميادين الإلهة السوربة\* فارعين على الصنوج والشقشقات حملها على التسؤل (2). سأل الدلال عن أصلي مبديا حرصا على شرائي: فأجاب أنني من كبادوقية\* ومتين البناء: إذك سأله عن عمري. فردّ الدلال متظارفا بكثير من المكر: "قدّر له المنجم الذي حدّد برجه خمس سنين لعمري. لكن المعني نفسه أدري بالأمر. لعلمه بالتقييد في سجلات المواليد. ومع علمي بأنني أقع تحت طائلة قانون كرنليوس\* لو بعتك مواطنا رومانيا على أنه من العبيد. أقول: اقتن هذا العبد الصالح استثمارا طيب المدود. سيخدمك في البيت وخارجه بالتأكد." لكن الشاري المقيت استمرّ في السؤال بعد إيضاحه عن كل أحوالي. أخيرا سأل متوجّسا عن طبعي إن كنت سلسا.

#### 8-25 بين الشاري والدلال

فأجاب البائع: "حملاً ترى أمامك لا حمارا، وديعا في كل الأعمال. لا يعرف العض ولا الترمح. حتى لتحسين لعمري إنسانا عاقلا تقمص جلد العير. وما أيسر أن تتأكد بنفسك من الأمر: أولج رأسك بين فخذيه تختبر بسهولة مدى صبره وسعة صدره." واصل الدلال بهذا التحو مازحته مدركا لهفته. لكن صاحبنا فهم سخريته فقال متظاهرا بالسخط: "تبا لك يا دلال الشؤم واللؤم. أيها الأحقق الأصم الأكم. أعمتك الإلهة (1) مختثا... الشيب: cinaedum calvum quidem cincinnis semicanis capillatum جناس صوتي. (2) التسؤل بعشتار (أترغائيس): كان كهان قبيلة الخصيان يتسؤلون فعلا بأم الآلهة.

السُّورِيَّة \* الجبارة أصل كل الكون. وسبازيوس \* القدوس. وبلونة \* وأم الآلهة (1) الإيدية \* مع قرينها أتيس \*. وفينوس \* مع حبيبها أدونيس \*! منذ ساعة وأنت تستنوكني بتهرجك السَّمج وفكاهاتك السَّخيفة على حسابي. أنظنَّ يا غيبي أنني أستودع ربتي دابة شموسا، لتقلقل وتلقي بغتة تمثالها القدوس. فأضطرَّ أنا منكودة الحظَّ للجري محلولة الشَّعر بحثا عمَّن يصلح إلهتي الثاوية بالأرض؟" عن لي إذ سمعت ذلك (2) أن أنطلق راكضا كالمهوس ليعزف عن شرائي إذ يراني في قمة الشَّموس. لكنَّ الشَّاري لما به من اللهفة حال دون تنفيذ فكرتي. إذ دفع الثمن لصاحبي حالا. سبعة عشر دينارا. قبضها مسرورا ويسر قرفا مني بالتأكيد. وشدني فورا بنسج وسلمني لفيلبوس \* مالكي الجديد.

### 8-26 اشتراكية الهنك والرنك

استلم هذا عبده الجديد وانطلق يجره إلى البيت؛ وهناك هتف من أول العتبة: "ها قد جلبنا يا بنات خادما لكنَّ اشتريناها. انظرن ما أحياه!" كانت البنات المعنَّيات في الحقيقة فرقة من الخنثين. رفعوا فوراً أصواتا خنثة متعججة، في لغط وهم يستطيرون بهجة. وقد دار لا شكَّ بخاطرهم أن فتى لطيفا أحضر حقاً لخدمتهم. فلما رأوا أن الأمر لا يتعلَّق بمهارة أنت نيابة عن فتاة (3).

(1) أم الآلهة الإيدية: قبيلة.

(2) إذ سمعت ذلك: لأنَّ الكاهن يتحدث عن نفسه بصيغة التانيث.

(3) كما في قصة إيفجينية التي افتنتها أرميس/ديانة برم لما استعدَّ أغامنون لتقدمها لها قربان تكفير.

بل بحمار أتى بدل الإنسان. عبسوا وألقوا بسيل من التكات على القهرمان. إذ جلب على حد قولهم بعلا له بالتحقيق لا خادما لهم. وأضافوا: "مهلا، إيَّاك أن تستأثري بهذا الغندور المشيق وتستنفديه بل دعي أحيانا لصويحاتك نصيبا فيه." ومضوا في تبادل مثل هذه الترهات. ثم أدنوني فربطوني إلى معلف؛ وكان يوجد معهم شاب قوي البنية ماهر في العزف اقتنوه من المال المشترك المحصل من مائدة التبرعات. كان يحمل الإلهة يجوب بها الساحات. نافخا في بوقه. وفي البيت يشاركهم أعمالهم ويشغل خدنا بالشراكة لهم. فلما رأني في البيت. قدَّم لي العلف بسخاء وسرور وقال بحبور: "ها أنت أخيرا أتيت لتنوب عني في عملي التعيس المضني: قدمت لأصحابك ورقت. وأرحت حقوي المنهكين!" فأخذت أفكر. وأنا أسمع كلامه في الحن الجديدة التي ينتظرني.

### 8-27 الدراويش الخنثون

من الغد خرجوا وقد ارتدوا قمصانا مبرقشة ولطخوا وجوههم بطلاءات طينية، وزوقوا عيونهم بالأصباغ. ووضعوا عَجرا ومروطا وتنانير من الحرير. ولبس بعضهم جلابيب بيضاء زينت على مستوى الخاصرتين بهُدب حمراء متدلدة على الجانبين. وانتطقوا عليها بزنانير. وانتعلوا أحذية صفراء جادية. ثم أركبوا على ظهري الإلهة ملحفة بوشاح من حرير لأحملها. وشمروا عن زنودهم إلى الأكتاف. وامتشقوا سيوفا كبيرة وبلطات وثبوا في شطح جنوني على إيقاع الزمار. بعدما مَرَّوا بعدة دويرات. وصلوا ضيعة أحد الأثرياء. فحالما وطئوا المدخل رفعوا عقيرتهم صاحبين



في هوس مسعور، ظلّوا ردحا يفتسون رؤوسهم ويلوون رقابهم بحركات سريعة متواترة ويديرون شعورهم المتهدّلة، ويهوون أحيانا على العضلات عصّا، ويشترطون أخيرا زنودهم بسيوفهم ذات الشفرتين. وسط تلك الغوغاء، بلغ أحدهم ذروة الجذب، فأخذ يصعد من أعماق صدره أنفاسا متلاحقة، متظاهرا بالدخول في حالة من الهوس الإلهي، والتشرب ملء ذاته بالحضرة الثباتية، كما لو كانت ميزة الحضرة الإلهية جلب السقم والخيل للورى لا جعلهم أفضل وأرقى (1).

### 8-28 نوبة من الجذب الصوفي

فانظر أيّ جزء نال من عناية السماء؛ في نوبة الوحي الصّاحبة، افترى كذبا وأخذ يقترع ويتهم نفسه بارتكاب الرّجس ضدّ الدين القدس، ويطلب كذلك العقاب العادل لذاته بيديه جزءا فعلاّته، ثمّ أمسك أداة خاصّة بأولئك الشّواذ، سوطا قدّ من عدّة أشرطة من جلد لم يجزّ صوفه سُحلت ولُفّت على عدد من عظام الغنم، فأخذ يقطع جلده مرارا بعفقاته العنقودية، وقد اكتسب من اللّذة المرّجاة حصانة عجيبة ضدّ ألم الضربات، حتّى صرّت ترى الأرض، من فصد السيوف وجلد الشّياطين، مضمّخة بدمهم الخنث الخبيث، فوقع في روعي وأنا أرى الدّم ينزف بغزارة من جراحتهم هاجس ناغز: ماذا لو اشتهى بطن الإلهة الأجنبيّة دم حمار مثلما يشتهي بعض النّاس حليب أتان؟ × أخيرا توقّف الجماعة عن المجزرة، تعبين وكذلك بلا شكّ شباعا من تمزيق (1) كما لو كانت ميزة... هذه اللّعمة تبين أنّ كتاب أبولويوس هزل في باطنه جدّ.

أنفسهم، وجمعوا في كيس مفتوح نثار الدّوانيق وحتّى الدّراهم التي تبارى عديد من المتفرّجين في التّبرّع بها، وأعطوا كذلك دنا من الخمر وحليباً وأجباناً وشيئا من الدّقيق والحنطة، وقدم البعض شعيرا لمطيّة الرّبة، سحبوها بلهفة كلّ العطايا وحشوها في أكياس أعدّوها لعائدتهم وفق أصول المهنة، وحملوها على ظهري، فسرت مثقلا بحملي المزدوج، كمخزن أطعمة ومعبد في آن واحد.

### 8-29 فضح الدّجالين المنحرفين

هكذا مضوا ينهبون المنطقة بأسرها؛ وفي إحدى القرى قرّروا، فرحين بالعائد الأوفى ممّا قدّروا، أن يقيموا مأدبة، تبريكا وتهنئة، فاختلفوا نبوة كاذبة، وطلبوا من أحد الفلاحين كبشاً سميّنا يقدم للإلهة السّوريّة\* الجوعى قربانا تبات به شعبي؛ وبعد إعداد الوليمة بالتّمام، توجّهوا إلى الحّمّام، وما لبثوا أن عادوا منه مصطحبين قرويا متينا خدلجا على أتمّ الاستعداد لشغل الحقوين وأسفل البطن، ليشاركهم طعامهم، وبعدما تناولوا شيئا من الخضر ذواقا، استولت عليهم أمام السّفرة رغبتهم الدّاعرة في أحطّ ممارسات الشّبق الحرام، فتحلّقوا وأخذوا يستثيرون بأفواههم الرّجسة الشّابّ العاري المستلقي وسطهم على ظهره، لم تطق عيناى رؤية تلك الفعّال المنكرة طويلا، فانبريت مستصرخا: "وامواطني!" فخرج واو مجرّد من بقية المقاطع والحروف، واضح حقّا وجهير، ومن الطّراز الذي يختصّ به الحمير، إلّا أنّه أتى في وقت غير مناسب لا محالة، إذ هبّ من الكفر المجاور جمع من الشّبان كانوا بالتّحديد يفتشون عن حمار لهم

سُرق في الليل، قالبين الأرض بحثا عنه في كلِّ وجرا، فحسبوا لدى سماع نهيقي أنني ضالّتهم مخفاة بمخبئ في تلك الدار، فافتحموها متزاحمين بغتة لاسترداد متاعهم على رؤوس الأشهاد؛ وفاجؤوهم متلبّسين بممارسة فواحشهم المقيتة؛ فدعوا على الفور الجيران من كلِّ مكان وكشفوا لهم مشهد ذلك الفجور، مثنين بسخرية على تبثّل الكهنة المحصور.

### 8-30 حِلْم اضطراري

هالت الجماعة الفضيحة التي سرعان ما انتشرت بألسنة الجمهور، فجعلتهم كما يستحقون لدى الجميع مثار البغض والتفؤ؛ لذا لموا أمتعتهم وغادروا القرية حوالي منتصف الليل بغتة. قبل مطلع الشمس كانوا قد قطعوا مسافة جيّدة؛ ومع الضحى بلغوا مفازة منعزلة، وبعدما تشاوروا طويلا حولي، استقرّ رأيهم على قتلي، فأنزلوا الإلهة عن ظهري وطرحوها أرضا، ثم من كلِّ عدتي جرّوني، وإلى سنديانة ريطوني، وانهاالوا عليّ بسوطهم المزود بالعظام حتّى أوشكوا أن يقتلوني. توعدّ أحدهم بعقري ببلطته لنجاحي لا شك في تشويهه صفحة عرضه الناصعة وسمعته؛ لكنّ الآخرين آثروا الاحتفاظ بي حيّا، لا حرصا على حياتي، بل اعتبارا للتمثال الثاوي على الأرض. ثم عادوا يحبّبون عليّ الأحمال وساقوني متوعدّين بسيوْفهم، حتّى وصلوا مدينة ذات شأن، هناك هبّ، عند سماع قرع الصنوج ونقر الدفوف وأنغام الموسيقى الفريجيّة\* العذبة، رجل دین من سِراة القوم دأب على تكريم الآلهة، وخفّ للقائنا راغبا في استقبال الرّبة عنده؛ فاستضافنا كلنا داخل بيته الواسع منزلفا للإلهة

بالصلوات والذبائح.

### 8-31 الطّبي والكلب والحمار

أذكر أنني تعرّضت هناك إلى خطر مُردّ جسيم؛ فقد أرسل لمضيفنا فلاح من تابعيه هديّة حصّة من صيده، فخذ ظبي ودك، علّقه الطّبّاخ بدون احتراس قرب باب المطبخ. على ارتفاع بسيط؛ فوثب عليه واحد من كلاب الصّيد وانتشله وفي لمح البصر أفلت فرحا بغنيمة بعيدا عن أعين الحراس. لما علم الطّبّاخ بضياعه، أنحى على نفسه باللائمة بسبب إهماله، واستغرق في التّحسّر والبكاء بلا جدوى؛ ولما بدأ سيّده يطلب طعامه، جزع وخشي غضبه، فقبّل ولده الصّغير موّدا، وأخذ حبلا ليشنق نفسه، لكنّ الخطب لم يخف على زوجته الوفيّة؛ فهجمت بكلتا يديها على الخرتة المردية، وقالت: "ويحك! أيطيش صوابك الجزع من مصابك فلا تنتبه إلى الحلّ الذي وضعته عناية الآلهة أمامك؟ × إن تثب من يأسك بسبب كبوة حظك، فاصح لنفسك وأصغ إليّ؛ خذ هذا الحمار الغريب إلى مكان ناء فاذبحه واقتطع منه فخذنا كالتي أضعتها، واطهها جيّدا في المرقق المتبلّبة الشهيّة، وقدمها لسيّدنا بدل فخذ الطّبي." (1) راقت للئيم فكرة افتداء حياته بموتي وأثنى كثيرا على حكمة رفيقته وأخذ يشخذ سكاكينه للمجزرة.

(1) استبدال فخذ الطّبي بفخذ حمار؛ في القصة المنسوبة للقيانوس الفخذ المهدي حمار وحشيّ.

دهنتني بخطر لأفع. بل بهلاك وافع. ما له من دافع.

## 9-2 الحمار الكلب

فبينما ربّ البيت وضيوفه يتحادثون في المقصف رافعين الكلفة بينهم، دخل فجأة غلام، والاضطراب بادٍ على وجهه، ليخبر سيّده بأنّ كلبا كلبا أتى السّاعة من زقاق قريب، ودخل من الباب الخلفيّ باندفاع غريب، وفي سورة هياجه، هجم فورا على كلاب الصّيد، ثمّ أجه نحو الإسطبل القريب فوثب بشراسة مائلة على عدّة دوابّ، ولم ينج منه حتّى سكّان البيت، إذ راح يوزّع عصّاته يمينا وشمالا فخدش مرتيلوس\* الهجان، وهيفايستوس\* الطّباخ، وهبنوفيلوس\* الفرّاش، وأبولونيوس\* الطّبيب، وعدّة خدم حاولوا إخراجهم؛ ولا شكّ أنّ العدوى انتقلت إلى بعض الدّوابّ، فهال الأمر كلّ الحاضرين، وخطر بالهم أنّ ما أبدت من هياج قبل حين يعود إلى إصابتي بنفس العلة؛ فتسلّحوا، كلّ بما تيسّر، وتنادوا متحاضّين على الخطر المشترك، وهرعوا وبهم مسّ ممّا نسبوا لي. كانوا سيقضضونني دون أدنى شكّ، برماحهم وحرابهم والفضّوس ذات الشّفرتين التي وزّعها عليهم الخدم بسهولة، لو لم أر الإعصار يقترب فجأة منذرا بالويل، فأقتحم في الحال غرفة مالكيّ. إذّاك أوصدوا عليّ الباب وحاصروا المكان منتظرين، بدون أيّ خطر عليهم من الالتقاء بي. أن أفنى رويدا رويدا من الدّاء الفتاك المستحكم من جسدي. بذلك وجدتُ الحرّية أخيرا، فتلقّيت بالأحضان نعمة الوحدة وتهالكت على فراش وُضعت عليه الأعطية، مخلدا إلى راحة نوم بشريّ لم أذق له طعما منذ لأني.

## الكتاب التاسع

### 9-1 أين المفترّ؟

هكذا راح ذلك السّفّاح الزّينيم يدجّج لنحري يديه الأثيمتين؛ أمام الخطر الدّاهم المريع، والدّاعي إلى فرار سريع، عزمّت، دون طول التّفكير والانتظار، على تفادي المذبحة الوشيكة بالفرار. في الحال قطعت القيد الذي كان يشدّني واندفعت مطلقا للرّيح قوائمي، حاميا سلامتي بزخّات من الرّمحات؛ في لمح البصر قطعت الرّواق ركضا إلى غرفة الطّعام حيث كان ربّ البيت يتناول مع الكهنة لحم ذبيحة مقدّمة للإلهة؛ فافتحمتها بلا تردّد، قالبا في اندفاعي المواعين بل وكذلك المائدة والمشاعل. فامتعض ربّ البيت من بعثرة الأثاث والتّشويش الحاصل وسلّمني برفق لأحد الخدم أمرا بحبسي لنزقي في مكان موثوق، كيلا أكدرّ عليهم من جديد بفورة مائلة صفو وليمتهم. بهذه الحيلة المرّجلة حميت بكياسة سلامتي، وأفلتت من بين يدي الجزار، فاستولى عليّ الفرح إذ بتّ في حمى سجن يضمن أمني. لكنّ لا شيء بالتّأكيد يمكن أن يحدث للإنسان وفق خططه إن عاكسه الحظّ، وما من تدبّر ولا تعقل ولا عقار لردّ أو تعديل قضاء عناية الآلهة المبرم، فالحيلة التي منحتني، كما بدا لي، ملاذا مؤقّتا

### 9-3 الحمار في الاختبار

كان النهار قد طلع ونعومة الفراش قد أزالته عني كل كل لما أفقت خفاً نشيطاً؛ فأصغيت إلى الجمع الذين باتوا ضاربين حراسة مشددة على بابي. يتناقشون حول مصيري: "تري أما زال ذلك الحمار التعيس في هيجانه؟" "بل الأرجح أن الداء انفضاً من تلقاء نفسه بعد أن بلغ أوجه." للفصل بين شتّى الآراء. رأوا أن يحتكموا إلى العيان؛ ونظروا من شقّ الباب فرأوني واقفاً في دعة سليماً معافى؛ ثم جازفوا بفتح الباب أكثر ليتحققوا أنني صرت سلساً. لكنّ أحدهم. ما إخاله إلاً مرسلًا من السماء لإنقاذي. أشار على الباقيين بهذا المعيار للتأكد من سلامة طباعي: أن يقدّموا لي سطلاً ملىء ماء قراحاً. فإن أقدمت وشربت منه كعادتي بانت لهم سلامتي. وبالعكس إن صدت وصدفت مذعورا عن مرأى الماء ولمسه علموا أنّ الداء الخبيث ما زال بلازمي: ذلك معيار شائع وارد أيضا في كتب الأقدمين (1).

### 9-4 عودة إلى الترحال

استحسنوا هذا التّراي. وقدّموا لي فورا. في تردّد وبقيا من توجّس. وعاء كبيرا من ماء عذب فرات جلب من نبع قريب: فتقدّمت فورا. واثق الخطوة تائفاً إلى الماء. مولجاً رأسي بشوق واشتهاً. وأكببت أعبّ من ذلك الماء الشّافي حقاً. ثم لبثت أحمّل بمنتهى الوداعة تربيته أيديهم على يافوخي. وليّ أذنيّ

(1) معيار داء الكلب: لأنّ الكلب يقتل برهاب الماء؛ وأبوليوس يهتّم بالتاريخ الطبيعّي والطّب؛ في "المرافعة" 49-52 مثلاً يستفيض في تشخيص مرض الصّرع وعلاجه. وينسب له كتاب في الطّب.

برفق. وجذب زمامي. وغير ذلك من الاختبارات. حتى أفقدت ظنّهم. وأبّين للجميع سلاستي بما لا يدع مجالاً للشكّ. هكذا جوت من خطر مزدوج. ومن الغد ساقوني على الطّريق محمّلاً بالكشاكيل الإلهية لجولة جديدة من التّسوّل المتنقل على إيقاع الشّنشانات والصّنوج. بعدما مررنا ببيوت وقرى عديدة. نزلنا ببلدة شيدت على أنقاض مدينة كانت غنيّة في الماضي حسبما ذكر السّكان لم تندثر تماماً؛ فنزلنا في أقرب خان. وهناك سمعنا قصّة طريفة حقاً عن زوج فقير مخدوع أوّد أن تعرفوها بدوركم (1).

### 9-5 عودة الزوج المخدوع

كان الرّجل يشغل في معمل حدادة ويعيش حياة كفاف بأجره الرّهيد لقاء عمله. لكنّ له زوجة اشتهرت. رغم أصلها الفقير مثله، بخلاعة لا تضاهي. ذات يوم. ما كاد الزوج يغدو في الصّباح الباكر إلى عمله حتى دخل بيته خلسة عشيقها الجسور؛ وبينما العاشقان منهماكان بطمأنينة في التحامات الغرام. على حين غرّة عاد إلى البيت الزوج المغفل الذي لم يكن يدري بشيء من ذلك ولا حتى يرتاب بمثله. سرّ الرّجل إذ رأى الباب مغلقاً من الدّاخل بعفّة زوجته. فطرق على الباب وصفر ليخبرها بعودته. إذك خلّصت المرأة الذّكيّة الصّليعة في هذا النوع من أفانين الفجور عشيقها من ضمّتها الحارّة وأخفته داخل خابية ملقاة في ركن من الغرفة نصف مخفاة. لكنّها فارغة وما بهم إليها من حاجة؛ ثمّ فتحت لزوجها وابتدرته وهو يدخل بفجاجة:

(1) قصّة الزوج المخدوع: ربط ضعيف هنا أيضا وكان بإمكان أبوليوس دمج القصّة في نسج روايته.

"هكذا إذن ستبقى تتسكّع ببطالة، وعن شغلك اليومي في عطالة، خلو اليدين دون تدبير معاشنا ولا إحضار شيء لطعامنا؟ بينما أنا المنكودة أكدّ ليلي ونهاري، وأقطع في عمل الصّوف أوتاري. لأستصبح على الأقلّ القنديل في الدّار. كم تعيش أسعد منّي منعمة جارتى دافية\* التي تتمرّع منذ الصّباح بشمة مع عشاقها بالأكل والشّرب متخمة."

### 9-6 إن مكرهنّ عظيم

ردّ الزّوج المزجور بذاك النّحو: "وماذا تقولين في هذا: فإنّ عَرَفنا، لانشغاله بقضية له، صرفنا، ومع ذلك تدبّرت رزق يومنا، انظري لطفاً إلى تلك الخابية الفارغة دوماً، وحتلّ بلا جدوى تلك المساحة الكبرى، ولا تصلح في الواقع لغير عوق حركتنا في بيتنا المتواضع، لقد بعته لأحد بسنة دنانير السّاعة، وها قد حضر ليدفع الثّمن ويأخذ متاعه؛ فهلاًّ خزمت وساعدتني قليلاً على إخراجها من الدّار، لأسلمه فوراً للشّاري؟ قالت الخبيثة بديهته وهي تطلق ضحكة جريئة: "يا للزّوج الفدّ والتّاجر الأحمق الذي جاد عليّ به حظي! فما بعث السّاعة أنا المرأة قعيدة الدّار، بسبعة دنانير أرخص هو عليّ فيه بدينار." هتف الزّوج طافحاً بالبشّر بزيادة السّعر: "ومن الشّاري لها بذلك المقدار؟" ردّت: "نزل فيها يا سيّد الشّطار للتّثبت من متانتها منذ أوّل الثّهار." 9-7 زين البعولة وتمام الرّجولة

### 9-7 المصباح

فالتقف الآخر مرادها ودون خذلان، قام يقول دون توان: "أتريدين

يا سيّدتي معرفة الحقيقة؟ خابيتك هذه جدّ عتيقة، مخدّدة كلّها بشقوق عميقة؛ والتفت إلى زوجها يقول له كأنّه يجهله: × "وأنت أيّاً من تكون يا صاح، هلاًّ تفضّلت بإمدادي بمصباح، لأستطيع بعد كشط الأوساخ من داخله كما يرام، معرفة ما إذا كان صالحاً حقاً للاستخدام، أم تحسبني ترى أدفع من مال حرام؟ × وبدون أدنى ريبة أو توان، أشعل سيّد العرسان ذبالة المصباح وقال في الآن: "تنحّ أنت أيّها الأخ وابق في دعة هنا حتّى أعطيكها أنا مكحوتة كحتنا حسنا." نضا ثوبه وهو يقول ذلك وحمل المصباح، وراح يجلسو من على جداره النّخر القُلاح، بينما انكبّ زيرنا الغندور فوق امرأة الحدّاد الحانية على الخابية يشغل فيها دعكا وسحجا بطمأنينة راضية، أمّا هي فمضت تطلّ برأسها من فوق الخابية مستنوكة زوجها بمكر المومس الدّاهية، مشيرة إلى بقعة قلحاء هنا وأخرى هناك بإصبعها ثمّ تلك مجدّداً ليقتشطها، حتّى انتهيا من شغلها سوياً، فاستلم الحدّاد دنانيره السّبعة رضياً مرضياً، واضطرّ التّعيس لأنّ يحمل الجرّة على رقبتة ويوصله إلى بيت عشيق زوجته.

### 9-8 قراءة الحظّ

مكث كهنّتنا الأطهار هناك عدداً من الأيّام، يودكون من السّخاء العام، ويتمولّون مقدّمين عرافات عديدة، وقد ابتكروا وسيلة ارتزاق جديدة، ابتدعوا جواباً واحداً لعدد الأحوال، يخدعون به المتوافدين عليهم للسّؤال، حول شتّى المشاريع والأعمال، وقد صبغ الرّدّ على هذا المنوال: "الثّيران مقرونة لحرارة الأرض، ليزدهي غدا زرع يسرّ ويرضي." فإنّ جاء يسأل من بنته الزّواج، قالوا إنّ

لديهم بالصَّبْط ما يحتاج: المقرن للمقرن، والزرع للولدان؛ وإن سأل من عزم شراء أرض كان في الثيران والمقرن والبذار بشري بعميم الخير والازدهار. وإذا تلقى وحي الإلهة قاصد السفار قيل له إنَّ أئين الرّواحل بالانتظار، وأنّ نبت الأرض يعد بالريح الحض. وإذا كان يعتزم خوض معركة ضرّوس أو تعقب عصابة لصوص وسأل عن جدوى مضيّه في ما نوى، كانت نيوتهم بشري النصر المقدّر: فستنحني رقاب الأعداء للثّير، وسيظفر منهم بالمغنم الطّيب الوفير. لّوا على هذه الشّاكلة، بحيلة كهانتهم الباطلة، خويشة من الأموال الطّائلة.

### 9-9 أيتها العير إنكم لسارقون

لكنّ تكرار الجواب على الاستشارات المستمرة استنفدهم في النهاية واستأنفوا الطّريق. فكانت أسوأ من كلّ الطّريق التي سلكنها ليلاً: مليئة بالمنافع والحفر. غرقة هنا تحت غدران من الماء القذر، وزلجة هناك من طبقة من الطّين المذر، وتضعضت قوائمي من العثرات المتتالية والكبوات المتواليّة، ثمّ تخلّصت منها أخيراً إلى ثنية في أرض سهليّة، وإذا بكوكبة من الجبال المسلّحين تدركننا من الخلف على حين غرّة، ويوقف الفرسان اندفاع مطّيبهم بمشقة مّرة، ويثبون على فيليبوس وصحبه بشيرة، ويمسكون تلابيبهم ناعتين إياهم بالكفرة الفجرة وينهالون عليهم لكما ويغلّون أيديهم وينذرونهم مشدّدين × أنّ أولى لهم أن يُخرجوا الكوب الذّهبيّ مغنم جرمتهم السّوءى، الذي اختلسوه من على وثار أمّ الآلهة أثناء تظاهرتهم بأداء طقوسهم التي يمارسونها في الخفاء. ظلّان بوسعهم الإفلات من العقاب بالسّرى سرّاً. لاجتياز

الأسوار سحرًا.

### 9-10 هديّة أم خلسة؟

ألقي أحدهم على ظهري يده، ودسّها في حضن الإلهة ليفتّشه، فوجد الكوب وأمام الجميع أخرجها، لكنّ الأوباش ما انخذلوا ولا وجلوا، حتّى بعد افتضاح الجريمة التّكراء، بل قالوا ماحكين بضحكة مليئة بالزيّاء: "يا للعيب ويا للشّقاء! ما أكثر الحن المتربّصة بالأبرياء! × مجرّد كوب صغير قدّمته أمّ الآلهة بلطفة لأختها الرّبة السّورية\* هديّة ضيافة، يعامل أولياء صالحون كأنّهم مجرمون وبأخطر الجرائم يُتهمون." ومضوا في هذه الخزعبلات لكن بلا جدوى، إذ ردهم القرويون القهقري، وحبسوهم مكبلين بالأغلال في سرداب السّجن(1) وأعيد الكوب وحتّى التّمثال الحّمّل على ظهري إلى منضدة العطايا وكُرسا للمعبد. أمّا أنا فمن الغد عُرضت للبيع مّرة أخرى. فاشتراني طحّان من قرية مجاورة بسبعة دراهم فوق الثّمن الذي دفعه في فيلبوس من قبل، وحملني فور استلامي كمّيّة كبيرة من الحنطة اشترها في نفس الوقت، ثمّ ساقني على طريق وعرة مليئة بالأحجار وجذّاء شتّى الأشجار إلى الطّاحونة(2) مقرّ عمله.

### 9-11 الآلة الجهنميّة

هناك كانت عدّة دوابّ فرّنت للّف تدير أرجاء في شتّى الاتجاهات لا كامل النهار فقط بل وأثناء الليل أيضا في حركة (1) سرداب السّجن: Tullianum نسبة إلى تولّوس (شيشرون)، لسجنه شيعة كاتلينا في سراديب. (2) الجذّاء/الطّاحونة: stirpibus/pistrinum جناس استهلاكيّ معكوس.

لا تنتهي، فتحضّر الطحين الليلي بدوران الآلات التي لا تقف ولا تني. أمّا أنا فأكرم مالكي الجديد وفادتي، بالتأكيد كيلا تنفّرني بدايتي في الخدمة: فقد أعطاني اليوم الأول إجازة وملاً مذودي بالأطعمة، لكنّ نعيم الراحة والجرش لم يدم أكثر، فمن الغد شدّني منذ الصباح الباكر، إلى رحى تبدو أكبر من كلّ الآخر، وغمّ وجهي، ودفعتني فوراً إلى مجرى قناة دائرية، لأدور دون زيغ باستمرار، قافياً خطاي في حركة دائرية متكررة محدّدة المدار، لكنّي لم أبدأ استعداداً لتلقّي فنّيّات المهنة، ناسياً رصانتي وحكمتي؛ بل رغم رؤيتي أكثر من مرّة، لما كنت أعيش بين بني الإنسان، آلات تدور على نفس المثال، x تسمّرت في البدء متغايياً في مكاني، أمثل دور الغفل الجاهل بالشغل، معتقداً أنّه سيحيلني لقلّة معرفتي وعدم صلاحيتي للوظيفة وما شابها إلى شغل آخر لا شكّ أسهل، بل قد يدعني أعلف دون أن أعمل، لكنّ سدى أعملت فكري الذكيّ بل عاد وبالا عليّ، إذ طوّقني في الحال عدّة عمّال يحملون العصي، وفيما أنا في غاية الأمان، وعيناي معصوبتان حتّى ذلك الأوان، أعطيت إشارة فجأة ولغطوا معاً، وانهلوا كلّهم عليّ ضرباً موجعاً، حتّى عمهت من الضجيج واللّطعات، فلم أملك سوى إلغاء مشروعاتي، وضغطت فوراً بكلّ جسمي على اللبّة بفائق الإنقان، مندفعاً بخفّة في الدوران، فأثرت بتغيّر سلوكي المفاجئ ضحك أولئك الفتیان.

### 9-12 سُخرة العبيد

بعد ما انقضى معظم اليوم، وبلغ التعب مبلغه متي، فكّوا اللبّة عني، ومن ربة الآلة المشؤومة حرّروني، وإلى الملعف

ربطوني، ومع أنّي كنت مرهقاً إلى الآخر، وبأمتس الحاجة لإنعاش جسمي الخائر، وتلفّت من السّغب، لبثت من فضولي المعتاد في غاية الاندهاش والعجب، وأرجأت تناول طعامي، الذي أحضر غدفاً أمامي، وانصرفت إلى التّفكير، باهتمام وشيء من المتعة، في نظام هذا المعمل المقيت المعنت، يا آلهة السّماء! أيّ أناس عُجّف اختطّت جلودهم آثار العفقات الكامدة، ورقّشت ظهورهم الضّربات الكادمة، أسماهم تظلل أكثر بما تخفي أجسامهم، وضع بعضهم شملة قصيرة حول الأريّة فقط، والكلّ مرتدون أطماراً يظهر من خلالها عُريهم، وقد وُسّمت بحروف جباههم وحُلقمت شعورهم فلم يبق منها سوى سبد، وحُجّلت أقدامهم وزادهم بشاعة هزالهم، وهزّراً القتام الكاوي أجفانهم حتّى عشيت أبصارهم ودرنت بأغبرة الطّحين البيضاء المتراكمة أجسامهم، كما يعقر المصارعون بالأثربة، قبل النّزول إلى الحلبة(1).

### 9-13 دوابّ الطّاحونة

أمّا رفاقي الدّوابّ، فماذا أقول عنهم وكيف أصف حالتهم؟ كانوا جمعاً من البغال العُجّز والجياد العجزة الوهن، x مستديرين بالملعف مغطّسين فيه رؤوسهم يجرشون أكداًس التّبن؛ وقد تأكلت الجراح المتفرّجة أعناقهم الدّبري، ووارب التّخير والضّبح خياشيمهم التّعبى، وتقرّحت من الاحتكاك المستمرّ باللّبّة فهدأتهم، وتعرّت إلى الضّلوع من الضّرب المتواصل أجناهم،

(1) عمّال الطّاحونة: ربّما عبيد محكوم عليهم، يستخدم بلاوتوس عبارة in pistrinum dedere تقريباً بمعنى: الحكم على شخص بالأشغال الشّاقة، جد عند ترنتيوس عبارة ماثلة في "معذب نفسه" 3: 2

وتفطّست من طول اللَّفِّ حوافرهم(1). واخشوشنت من الدَّبر والهزال وطول الحبس جلودهم. فخفت على نفسي وأنا أرى بؤس رفاقي الأرقاء نفس المأل. وتذكّرت عزّ لوقيوس الأيام الخوالي. وتغشّى اليأس من الخلاص نفسي فأطرفت أرثي لحالي؛ لم يبق لي عزاء في حياتي المعدّبة يسليني قليلا سوى جبلة فضولي. سيما والجميع يتصرّفون ويتكلّمون أمامي بحرّية مستخفين بحضوري. وما أخطأ لعمرى شاعر اليونان الخالد قديما. لما أراد أن يقدم لنا رجلا أريبا حكيما. فجعله يكتسب خُلُقًا وفضلا عظيما من زيارة مدن متعدّدة. ومعرفة شعوب متنوّعة. أنا شخصيا أتذكّر بكثير من الامتنان فترة حياتي الحمارة. فقد جعلتني تحت ستار هيئتي البهيمة. ومن خلال التمرّس بشتّى الأحوال الحيائية. إن لم أقل أحصف حكما. فعلى الأقلّ أوسع علما.

### 9-14 زوجة الطّحان

قرّرت بالمناسبة أن أنقل إلى مسامعكم هذه القصة اللطيفة الطّريفة قبل سواها. وهأنذا أبدأ من بداياها. كان ذلك الطّحان الذي امتلكني بماله. وهو. والحقّ يقال. رجل صالح ومفضل. قد بُلي بزوجة هي شرّة النساء السيئات. فكان يقاسي منها في شرفه وبيته أمرّ الوبلات؛ حتّى أتى كنت كامل الوقت. أتألم رثاء له بصمت. لم تكن اللئيمة تخلو من أية مذمّة بل جمّعت في نفسها كلّ الرذائل كما تنصبّ كلّ سيول الحشوش في المقمة.

(1) تفطّست من طول اللَّفِّ حوافرهم؛ لم تكن صفائح الدّوابّ معروفة في ذلك العصر. تذكر الفقرة بوصف الخيل المستخدمة في مناجم الفحم الجوفية في القرن التاسع عشر في رواية زولا: جرمينال.

شرسة شكسة. شريرة سكيّة. عنود حقود. جشعة في نهب ما للغير باطلا. سخيّة في الخزيات تنفق فيها ما لا طائلا. تناهض الوفاء وتناوى الحياء. وقد ازدرت وسفّعت الآلهة قاطبة. وأبدلت بالدّين الثّابت دعوى باطلة. عن إله زعمته واحدا(1). خادعة بطقوس جوفاء مختلقة كلّ النَّاس. وخائنة زوجها المسكين بالانغماس في الخمر من الإيكار. وفي الفجور كامل النَّهار.

### 9-15 لوقيوس وزوجة سيده

كانت تلك المرأة تلاحقني بأذاها بحقد غريب ولا تتناهي. أمرة قبل طلوع النَّهار. وهي ما نزال في الفراش بشدّ الحمارة الذي أتى مؤخرا للخدمة إلى الرّحى. وتطلب حالما تخرج من غرفتها. ملحة أن يوسّع جلدا بحضرتها؛ ولما تسرّح بقية الدّوابّ للأكل في موعدها تبقيني ولا تأمر بربطي إلى المعلق إلا أمدا من بعدها. وقد زاد في باضطهادها حبّ اطلاعي الفطريّ على سيرتها؛ فأدركت أنّ شاتبا يتردّد على غرفتها؛ وكنت أرغب في رؤية وجهه رغبة قصوى. لو سمحت لطرفي الغمامة حتّى بلمحة عجلي. وما كنت لولاها لأعدم حيلة لفضح فجور تلك اللئيمة بطريقة أو بأخرى. علمت أيضا أنّ عجوزا قوادة. وكيبتها للمخزيات ووسيطتها مع الزّناة. خضر كلّ يوم ترافقها. وتطلّ معها لا تفارقها. حالما تصل. جالسها على الفطور وتباريها على احتساء الخمر. ثم تدبّر للزوج البائس. أسوأ المكائد والدسائس. ورغم نعمتي على غلطة فوتيس التي حوّلتني حمارا بدل الطّير (1) دين زوجة الطّحان: رما المسيحية ( التي يشير ترتليانوس في أواخر القرن إلى انتشارها الواسع). وهي إذك أقل تشديدا على عقيدة التثليث. وجد وصفا شبيها لرجل يستخف بالآلهة في "الرافعة" 57



الموعود. كنت أتأسى عن مسخي المنكود بهذا العزاء الوحيد: هو أني. بأذني الطوبلتين ودون أي مجهود، أسمع تأمرهما حتى من بعيد.

### 9-16 العجوز الشيطانية

في أحد الأيام، التقطت أذناي لتلك القهرمانه الحاذرة مثل هذا الكلام: "تبدى لي يا مولاتي أهلا بالملام، باختيارك دون استشارتي لذلك الخرع، الذي يرجف إن غصن زوجك السمج حاجبيه من الهلع، ويطفئ ببلادة حبّه البارد شهوة دمك الواقد. كم يفضله فيلسفستروس\* ذاك الفتى القسيم الكرم ذو الهمة المتوقدة، والمتصدّي بعزم لاحتياطات الأزواج فيجعلها عديمة الفائدة. هو وحده أهل، وحقّ السماء، لينعم بوصول كلّ النساء. هو وحده أهل لأن يحمل على رأسه تاجا من الذهب، على الأقلّ لذاك المقلب، الذي ابتكره بمنتهى التباهة في الآونة الأخيرة. لزوج هصور شديد الغيرة: هاك اسمعي وقارني، بين ذكاء العاشقين المتباين.

### 9-17 قصة بربروس وأريته

تعرفين بربروس\*: هو في مدينتنا عضو بالمجلس، ويكنيه الشعب بالعقرب لطبعه الأشرس: تزوج امرأة ذات حسب رفيع وحسن بديع، فأحاطها بحراسة عجيبة واعتقلها في البيت بحذر ورغبة. "لدى هذه الكلمات الأخيرة، هتفت زوجة الطحّان مؤيّدة: "وكيف لا؟ أعرفها معرفة جيّدة: عن أريته\*. زميلتي في المدرسة، تتكلمين! قالت العجوز: "إن فأنت تعرفين قصتها مع

فيلسستروس برمتها؟" أجابت: "أبدا، لكنّي أحرّق لمعرفةها: أرجوك يا أميمة احكي لي. أوّلا بأول كلّ التفاصيل. "فما تلكأت عجوزنا الثرثرة وأنشأت: "أراد بربروس هذا، وهو يستعدّ لسفر لا بدّ منه، أن يتخذ كلّ احتياطات لصيانة عفاف زوجته والذبّ عنه، فنّبّه بالأمر في الخفاء، عبده مرمكس\* المعروف عنده بأوثق الولاء. وأوعز إليه بمراقبة سيّدته بنحو شامل ووجه كامل. وهدهد بالسجن والقيود مدى الحياة، وبالذّي البطيء جوعا حتى الممات، إن لامسها مارّا ولو بأملته أيّ إنسان، وأقسم على ذلك بكلّ الآلهة أغلظ الأيمان. هكذا ترك مرمكس نهبا للخوف تبيعا دائب اليقظة لزوجته، وانطلق مطمئنا إلى وجهته(1): فاستحال إذك مرمكس من انشغاله بهاجسه النّاغز إلى حارس مهووس وجوج، إلى حدّ منع سيّدته من أيّ خروج: وإذا جلست تتلهّى بغزل الصّوف جلس عندها لا يفارقها: وحتى عندما تروح مساء إلى الحمام ضرورة يلازمها، ويلاصقها ممسكا بيده أطراف ردائها، كان باختصار يرضى الأمانة الموكولة إليه بأرب يستحقّ كلّ إكبار.

### 9-18 المال مفتاح الأقفال

لكن ما كان يمكن لفتنة تلك المرأة الكريمة(2) لتخفى عن يقظة فلسستروس الصّريمة: بل إنّ ذات هذه العفة المشهورة (1) تبيعا/مطمئنا: secutorem/securum جناس مضارع يقوّيه تلاصق الكلمتين في النّصّ، فاللاتينية تعطي حرّية كبيرة في ترتيب الكلمات داخل الجملة، وقد نعت بالطمأنينة الانطلاق بدل الفاعل وجد أمثلة من هذا الأسلوب في النّصّ وفي العربية كبيت الجنساء: نرى إذا نسيبت حتى إذا أدكرت/فإنّما هي إقبال وإدبار.

(2) فتنة المرأة الكريمة: matronae nobilis pulchritudo نعت "الكريمة" المرأة أو الفتنة (أرجح)

الممّدة، والحراسة المشدّدة، آثاره وألهبته، فبات على أتمّ الاستعداد لفعل كلّ الصّعاب واحتمال كلّ الشّداد، وشدّ حيازمه بقواه المّتمعة، لفتح قلعة نظام بيتها الممتنعة. ولعلمه اليقينيّ بهشاشة الوفاء الإنسانيّ، وقدرة المال على تذليل كلّ الصّعاب، وعادة الذهب فتح أصلب الأبواب، اغتنم فرصة لقاء مرمكس على انفراد ففاحه بحبّه ورجاه شفاء نفسه من العذاب، فقد قرّر وأزمع الموت بعجل، إن لم يظفر بالحبيب في أقرب أجل؛ ولا داعي لأن يخاف العبد من شيء في هذا الأمر السّهّل، إذ يمكنه التسلّل وحده في اللّيل، مستخفيا بجنح الظلام إلى داخل البيت، ثمّ الانصراف بعد برهة من الوقت، إلى هذا ومثله من أساليب الإقناع والتّودّد، أضاف إسفيناً قادراً على نسف عناد العبد المتشدّد: مدّ يده وأراه مئاقيل ذهبية، صلبة حقيقيّة، براقّة من فرط جدّتها، أعدّ من جملتها عشرين لزوجّة مولاه، وعشرة يهبها بطيب خاطر إتيّاه.

#### 9-19 حبّ المال وخوف سوء المآل

افشعر مرمكس من ذلك الإمر، الذي لم يُسمّع بمثله في التّكر، وفي الفور قرّر ساداً أذنيه، لكنّ بريق الذهب المتقدّم لم يبارح عينيه؛ حتّى بعدما نأى وعاد إلى البيت مسرع الخطى، ما انفكّ يرى أمامه سنا تلك التّقود، ويمسك في خياله بالمكسب الطّائل الموعود؛ وظلّت تتقاذف المسكين لجج متلاطمة من الأفكار المتناقضة والتّزعات المتعارضة: هناك الأمانة وهنا المال، هناك العذاب وهنا العذوبة، لكنّ الذهب في التّهاية غلب خيفة الموت، فحتّى بمزّ الوقت، ما وهنّ حبّ المال الوبيء عنده، بل أقصّ

مضجعه وأرقّ ليله؛ كان وعيد سيّده في البيت يستبقيه، لكنّ الذهب بقوّة إلى الخارج يناديه، أخيراً داس على ذمّته وتخلّص من ترّده مبلغاً ما طلب منه أذني سيّده؛ فما حادت المرأة عن زيغ طبيعتها وللمعدن المقيت قبلت فوراً تأجير عرضها، فأسرع مرمكس يخون أمانته، وهو لا يسع غبطته، متحرّفاً لا فقط إلى أن يأخذ المال الذي رأى وهو يجهل أنّ فيه خسارته، بل حتّى ملامسته، وأخبر فلستروس ببهجة أنّه نفذ رغبته، باذلاً في المهمّة أقصى الجهود، ومطالباً بالحلوان الموعود؛ وأمسكت يد مرمكس المئاقيل الذهبية، هي التي ما عرفت قبل حتّى المسكوكات النّحاسية (1).

#### 9-20 حتّى أتى هادم اللذات

ولما جنّ اللّيل قاد إلى البيت بيده، عاشقنا الجسور الذي أتى مثلثاً بمفرده، فأدخله إلى غرفة زوجة سيّده، وبينما العاشقان في أولى العناقات يؤدّيان للحبّ الطّارف الطّقوس، ويشتبكان، مصارعين عاريين، في أولى نزالات فينوس\*، إذا بالزوج يحضر بغتة أمام باب البيت، منتهزاً فرصة اللّيل، فيطرق ويصيح ويدقّ بحجر على الباب، وبالتّأخير نفسه يزيد في الارتباب، فيتودّد مرمكس بأقصى العذاب: أمّا هذا فأوقعه الخطب المفاجئ في الاضطراب، وغدا المسكين في حيرته سلب الرّأي والعقل، ولم يستطع سوى التعلّل بظلام اللّيل، إذ لم يكن جرّاه يجد المفتاح الذي أخفاه بكلّ عناية حسب دعواه، أمّا فلستروس فحالماً سمع الصّحّة التحف بالجلياب، وخرج من الغرفة مسرعاً حافي القدمين من فرط (1) الذهبية/النّحاسية: aureos/aereos جناس مختلف يكاد يكون تاماً.

الاضطراب: إذك أولج مرمكس المفتاح أخيرا في القفل وسارع بفتح الباب، مستقبلا سيده الذي لم يزل يردد ويستشهد كل الأرباب؛ وبينما آجه بسرعة إلى غرفته، هرب هو خفية عشيق سيده؛ وحالما خلص به أمام العتبة، أغلق البيت وعاد إلى النوم بمنتهى الدعة.

### 9-21 لا يخفى فعل عبد على عين موله

كن عند خروج بربروس من الغرفة مع انبلاج النور، لمح نعلين غريبين تحت السرير، هما اللذان تسلل فلسستروس داخل البيت منتعلهما، فداخلته ريبة في ما حدث عند مرأهما. <sup>٨</sup> فأسرهما لنفسه ولم يفاخ زوجته ولا أيًا من أرقائه، والتقطهما فدهسهما خلسة في ثنية رداءه؛ وأوعز فقط إلى عبده، بشد مرمكس وتقييده، وجزه إلى وسط الميدان، حيث توجه مسرعا يكاد ينفجر من الفوران، واثقا من الوصول بسهولة من مقاس الخفين إلى قدم الزاني، لكن بينما بربروس يمشي في الساحة مقطب الحاجبين محتقن الوجه منتفخ الوريد، وقربه مرمكس يرسف في القيود، لم يمك لا جرم متلبسا بالجرم المشهود، لكن نفسه تنفطر من ندمه الشديد، ويثير بهتون الدمع ومز الشكوى شفقة بلا جدوى × إذا بفيلستروس يأتي حياله، كان يقصد شأنًا آخر فساءه المشهد المفاجئ وما هاله، استعاد ذهنه حالا خطأ سرعته، وحدهس بفطنة كل تبعته؛ وبثبات جأشه المعهود، عمد إلى إزاحة العبيد، وأنهال على مرمكس بجمعي يديه، برفق خلاف المظاهر يقترع خديه، صارخا: × "ويلك أيها الشقي حانث الأيمان يا شر اللئام، ألا حلت بك لعنة سيدك الذي أرى وكل آلهة

السماء العظام، الذين انتهكت حرمتهم بيمينك الكاذبة بعدما سرقت أمس نعلي من الحمام؛ إنك لأهل بالبقاء في قيودك حتى الاهتراء، ومعاناة ظلمات السجن فوقها وحق السماء." انخدع بربروس بمكر الفتى الموافق للموقف، ومن فرط ثباته ووثوقه، اجتر بسذاجة إلى تصديقه، وحالما عاد إلى بيته دعا مرمكس إليه، فقدم له التعلين عافيا عنه بطيب خاطر وأشار عليه بأن يرد إلى صاحبهما الخفين اللذين عمد إلى سلبهما.

### 9-22 غاب القط فاعب يا فأر

لما وصلت العجوز إلى هذا الحد من هذرها، هتفت الزوجة: "يا بخت من حظى بصاحب مثل ذلك! ويا لتعسي أنا التي وقعت على محب يخاف حتى جعجة الطاحونة ووجه ذلك الحمارة الأذير هناك." ردت العجوز: "لا عليك، سأفنع ذلك العاشق الثبت الجنان، وأحضره لموعدك دون توان!" ثم ذهبت واعدة بالعودة مساءً؛ × أمّا الزوجة مثال العفاف فأعدت في الحال عشاء حفل بآكل من كل الأصناف وروقت أجود الخمور ونقعت اللحم في طازج الأمراق، ووضعت الخوان مصففة عديد الأطباق؛ باختصار، كمقدم إله كانت تنتظر سيد العشاق، إذ صادف أن كان زوجها خارج الدار، عند جاره قصار، لذا لما فككت من الهدية مع اقتراب آخر النهار، وأعدت بدعة إلى الملعف للاستراحة، لم أفرح لعمرى بالحريّة من عناء الشغل قدر فرحتي بإزالة الغمامة، إذ أتيج لي أن أرى بكامل الحريّة كل فعال تلك الجريمة، توارت الشمس خلف أقيانوس\* لتضيء رُحْب العالم السفلى، فوصل في الإثنان مصطحبا تلك العجوز السوءى زير النساء المقدام، وإن هو إلا غلام، ما زال غض

الإهاب في مقتبل الشَّبَاب، يزدهي برواء الخدود والوجه الأملود، لم يزل هو بالذَّات، فتنة للزَّناة؛ فاستقبلته زوجة الطَّحَّان بجحيم من القبل وبالأحضان ثمَّ دعتَه إلى العشاء الَّذي حَضَرته (1).

### 9-23 يرى القذى في عين غيره ولا يرى الخشبة في

عينه

فما كاد الشَّبَاب يَمُزُّ ذواقا من شراب الافتتاح، ويلامس المقبَّلات بأطراف الشَّفاه، حتَّى وصل النِّزْج راجعا أبكر بكثير ممَّا كان متوقَّعا، فراحَت الزَّوجة الفضلى تستنزل أسوأ اللِّعنات عليه وتدعو بكسر كلتا رجليه؛ وأخذت عشيقها وهو يرجف هلعًا، شاحبا متقعًا، حتَّى قصعة من خشب، ينقون فيها البرغل عادة وبالصدفة ملقاء على كئيب، بعدما طمست بمكرها الفطريِّ معالم جرمتها البشعة، وموهت وجهها بقناع من الثقة المصطنعة، سألت زوجها لماذا غادر مائدة أعزَّ خلَّانه وحضر قبل أوَّانه؛ فأجاب بقلب يتوجَّع وتنهَّد لا ينقطع: × "لم أطق جرم امرأة في طريق الخسار، فلذت بالفرار، فبحقِّ الآلهة الأخيار، ماذا دهى سيِّدة فاضلة عاقلة مثلها لتمرَّغ في أبشع الأرجاس نفسها؟ أستشهد كيريس\* هذه وجلالها القدسيِّ، أني لا أصدِّق ما رأيت

(1) عشاء زوجة الطَّحَّان: هنا وفي مواضع أخرى نلاحظ عند أبوليوس اقتران شهوتي البطن والفرج، في الخصيِّ 4: 5 لترنتيوس جد هذا المثل: "بدون كيريس وليبير فينوس باردة" أي بدون طعام وخمر لا غرام، وقد قال شاعر عربي: "إذا كان في بطني طعام ذكرتها/ وإن جعت يوما لم تكن لي على ذكر// ويزداد حبي إن شبع جُددا/ وإن جعت غابت عن فؤادي وعن فكري".

الجَنان استغلى الثَّمن: مع ذلك يبدو معقولا ( 12 دينارًا ونصف) مقارنة بالشعر الَّذي دفعه فيليبوس ( 17 دينارًا بل 3، في الملَّخص اليوناني المنسوب للقيانوس)، لكنَّ الجَنان كما سنرى فقير جدًّا.

من تلك المرأة بعينيِّ." أثار كلامه فضول الزَّوجة الوقاح، فلم تكفَّ عن سؤاله بمزج الإلحاح، أن يروي لها كلَّ الحكاية، بالصَّبْط منذ البداية، حتَّى نزل عند رغبتها في التَّهابة، وأخذ يعرض بلاوي بيت جاره غافلا عن مصائب داره.

### 9-24 حيلة زوجة اللبائدي

"أجل! إنَّ زوجة صديقي الفصَّار، التي أحصنت عرضها كما كان يبدو باستمرار، وحظيت دوماً بأطيب سمعة، كزوجة تدير بيت زوجها بعفَّة، ارتمت في أحضان عشيق بدافع شهوة خفيَّة بخفَّة، وكثرت لقاءاتها به سرًّا بلا انقطاع، حتَّى أنَّها اليوم كانت ساعة عدنا من الحَمَام للعشاء معه في جماع، بلبلتها عودتنا المفاجئة، فقرَّرت بعجلة مضطربة، أن تخفيه حتَّى قفص من أعواد خيزران محدَّبة، ومجمَّعة في شكل إسطوانة مقبَّبة، ينشرون عليه قطع النَّسيج، وتشمَّم دخان الكبريت للتَّبْيِيس؛ ولما رأته بأمن من العيان، أتت تشاركنا العشاء بمنتهى الاطمئنان، في الأثناء كاد الفتى الحُفي والمغشَّى يتلف مختنقا بنشوق الكبريت الثَّخين النَّفاذ، حتَّى أثار لديه سعوط ذلك المعدن الحَمَّاز، نوبة متواصلة من العطاس.

### 9-25 اكتشاف سيِّد العنَّاق

لما سمع الزَّوج العطاس أتيا من ناحية زوجته من الخلف، ظنَّها مصدره فشتمَّتها بالعبارة المعتادة حسب العرف، وأعاد مرَّة أخرى بل مرارا، حتَّى استغرب عطاسها المفرط تواترا وتكرارا، وفي نهاية الأمر، ارتاب في ما يجري، فدفع المائدة ونحى القفص على

الفور، وأخرج الرجل وهو يلهث متقطّع الأنفاس بمنتهى العسر؛ فاستشطا غصبا من الإهانة وأمسك بالخنجر يريد الإجهاز على المحتضر. × لو لم أبصر بالخطر المشترك، فأمنعه بمشقة من اندفاعه الأخرق العرك، مؤكداً له أنّ غريمه مائت في القريب الموشك، على غير أيدينا تلقاء نفسه بفعل الكبريت المهلك، فامتثل لا لنصحي بل لمتطلبات الموقف بالذات، وأخرجه إلى زقاق قريب وهو بين الموت والحياة. فأسررت إلى زوجته ونصحتها، وفي النهاية أقنعتها، بترك الدكان قليلاً واللجوء إلى إحدى صديقاتها، ريثما تنفث فوراً شريك حياتها. فقد كان في شدة حنقه وفورته، يفكر بلا شك في إلحاق أذى بنفسه وبزوجته؛ فزهدت في عشاء صاحبي ولذت بالفرار، وعدت مقرفاً إلى الدار.

#### 9-26 نفاق الزوجة الخائنة

طوال رواية الطحّان، طفقت زوجته الصفيقة التي تخونه منذ أمد من الزمان، تكيل لزوجته اللبّاد أفذع الشتائم، وتنعنها بالغادرة الفاجرة شين بنات جنسها في العالم، هي التي خلعت الحياء وداسست على الميثاق الزوجي، وجّست بيت بعلمها بخزي المبغي العمومي، وقايضت مختارة شرف الزوجة باسم البغي، مشيرة أيضاً إلى كون النساء الشبيهات جديرات بأن يحرقن حيات، لكتتها في نفس الوقت كانت تشعر بوخز جرحها الكتيمة ووعيتها برجس فعلها الأثيم؛ ولتعجّل بتخليص خدنها من عذاب مخبئه أشارت مراراً على زوجها بالذهاب باكراً إلى مضجعه، لكن زوجها الذي قطع العشاء وفرّ على الطوى، ظلّ يطلب بلطف أن تقدّم له عشاءه بالأحرى، فبادرت وإن على كرهه

تعطيه إياه، إذ كانت قد أعدته لسواه، أما أنا فكنت أنفطر كمدا كسير الخاطر، وأنا أفكر في جرم تلك الماكرة السابق وثبات جنازها الحاضر، باحثاً عن طريقة لإسداء العون لسَيدي بفضح خُدعها أمام عينه، وكشف الفتى القابع تحت القصة كالسلاحفة للجميع بإزاحة مكمنه.

#### 9-27 انتقام الحمار

تطلّعت العناية الإلهية أخيراً إليّ وأنا من هوان سيدي في أشدّ العذاب: أتى الشيخ الأعرج المكلف بتعهّد الدواب، والذي يوردنا إلى حوض قريب في مثل هذا الوقت كلّ الأيام، فقدّم لي عرضاً هذا الحدث الفرصة المرجّاة للانتقام، لحظت عند مروري بجانب القصة أطراف أصابع العشيّق المحتفي، بارزة من تحت مخبئه الضيق الأجوف، فملت عليها بخفي ودعستها بأشدّ العنف؛ فزقق من الألم ودحرج القصة عنه إلى بعيد، وبدا لمراى من يجهل أمره من جديد، كاشفاً عن حيلة تلك المرأة الدنيئة، لكنّ الطحّان لم يتأثر لأذى شرفه أكثر ممّا يجدر به، وللغلام الذي تسمرّ متقع الوجه واجفاً، أنشأ يقول ببشاشة طلق الحياً ملاطفاً: × "لا تخف يا ابني أيّ أذى متي؛ ما أنا بالهمجيّ أو الجلف جافي الطباع الجبّار، ولا أنا بمرديك بدخان الكبريت القاتل على غرار فظاظلة الفصّار(1)، ولا بمقاضيك وطالب إقامة حدّ الرّنا على غلام يمثل هذه الخلاوة والتّعومة، بل سأعأملك على أساس الشراكة مع قرينتي، سأطلب عيش الأسرة وفق صيغة المشاع،

(1) ولا... بمؤذيك... القصّار: nec ad/naccinae/necabo جناس. وفي القصة لم يكن اختناق عشيق زوجة الفصّار بتدبير الزوج الخدوع.

دون تقاسم الأطراف للمتاع. بحيث يجمع ثلاثنا فراش واحد بلا حجاج ولا نزاع؛ لقد عشت مع زوجتي دوماً في أتم الوفاق والسواء. بحيث تعجب علينا نفس الأشياء من مذهب الحكماء. والحال أن روح المساواة والعدل تفرض ألا يكون للزوجة أكثر من حظّ البعل.

### 9-28 العين بالعين

بمثل هذا الجو من المزاج والتودد مضى قاصدا مضجعه بالغلام الذي اضطرّ مكرها أن يتبعه؛ وبعدما أفرد في غرفة أخرى زوجته التي لا تضاهيها عفة أنثى. اضطجع لوحده مع الغلام. مستمتعا بالنار لانتهاك عثته الزوجي أعذب الانتقام. ثم لما طلع قرص الشمس الساطع معلنا ميلاد اليوم الجديد دعا اثنين من أقوى العبيد. ليمسكا عاليا بالفتى. وأخذ يلطعه على ردفه بالعصا. وقال: "ويلك، ما زلت طفلا رخوا غص الإهاب. حرم العشق فيك زهرة الشباب. وتتشهى النساء بل والحرائر سويا. وختل ما عقد الزواج قانونيا. وتدعي قبل الأوان صفة الزاني زير التسوان!" بعدما أشبعه بهذا النحو سبًا. وأوسعاه فوق ذلك ضربا. رمى به خارج الدار؛ ففر سيد الزناة والأزيار موفور السلامة على غير ما يأمل ويألم مع ذلك لما نال كفليه البصين في الليل والنهار؛ ولم يمنع ذلك الطحان من بعث قسيمة الطلاق لزوجته وطردها فوراً من دويرته.

### 9-29 الزوجة تحاول الانتقام

أما هي فناهيك عن الشتر المركب في جبلتها غضبت إلى

أقصى حد من إهانتها. وإن تكن عين العدل. وفي أجيح نعمتها. لجأت إلى المألوف من أساليب النساء: × جدت في طلب عجوز عظيمة الدهاء يقال إنها بعزائنها وأخذاتها تصنع ما تشاء من الأشياء. فترجتها بعدد التوسلات وأغدقت عليها الهبات. × طالبة منها أحد أمرين: إما أن تهدي زوجها وتصلح بينهما. وإما أن تسلط عليه روحا شريرا أو إحدى خوارق القوى للفتك به إن هو أبى. فما كان من تلك الساحرة الماهرة والعزامة القادرة إلا أن بدأت في المناورة بأولى فنيات صنعتها الماكرة. محاولة تليين الزوج الحانق من إهانتها ودفع نفسه إلى حب زوجته؛ ولما أتت نتيجة المحاولة بغير ما توقعت. سيئت من جنبها إلى أبعد الحدود. ودفعتها تجاهلهم فضلا عن مبلغ المكافأة المرصود. إلى استنزال شتر الويلات بالزوج المسكين ذاته. فحرّضت روح امرأة قتلت بعنف ضد حياته.

### 9-30 انتقام فظيع

لعلك أيها القارئ المدقق ستؤاخذ روايتي وتعرض وحقق: "من أين لك، يا حمارنا الفطن. بمعرفة ما كانت المرأتان تحيكان في الخفاء حسب روايتك. وأنت حبس جدران طاحونتك؟" هاك إذن كيف علمت أنا الإنسان الطلعة المتشكّل في صورة الحيوان كل ما دبّر ضد صاحبي الطحان. حوالي منتصف النهار. ظهرت بغتة داخل الطاحونة امرأة امتّعت سحنتها من أثر الحبس وحزن نفسها المأفونة. لا تكاد تسترها خرقه رثة مثيرة للرتاء. حافية القدمين بدون أي نوع من الوقاء. زادها بشاعة ذبول كلون البقس ونحول. تتدلى أمام وجهها. مخفية معظمه. خصل

متفرقة مغبشة مما حُثي عليها من الرماد. فألقت وهي في تلك الحال يدها برفق على الطحان، كأنها تريد مسارته ببعض الكلام، واقتادته إلى غرفته، فأوصدت الباب ومكثت لأيا بصحبته. لكن لما كانت الحنطة التي سُلمت للعملة قد نفذت، ولزم طلب المزيد، وقف أمام الغرفة نفر من العبيد، وأخذوا ينادون سيدهم لطلب التكملة، لمواصلة شغل العملة، بعدما نادوا مرارا وبأعلى أصواتهم، ولا ردّ لسيدهم على نداءاتهم، أخذوا يقرعون الباب بقوة، وحيث كان موصدا بعناية فائقة، وخوفهم أن يكون حصل مكروه، بكرة قوية دفعوه، فزحزحوا محوره أو خلعه، وهكذا فتحوا لهم أخيرا منفذا، فلم يعثروا في أي مكان على تلك المرأة، ورأوا سيدهم يتدلى مشنوقا بلا حياة من العارضة<sup>٨</sup>: ففكّوا رقبتهم من العقدة، ونقلوه منتحبين بأشدّ الأسى واللوعة، ثم غسّلوه، وبعد أداء مراسيم المأم حملوه، في موكب حاشد من المشيعين ليدفنوه.

### 9-31 نتيجة الكارثة بالنسبة للحمار

من الغد هرعنت بنته من قرية مجاورة تزوّجت فيها قبل ذلك بفترة، حزينة سافعة شعرها الجلول ولاطمه صدرها على نوبات متواترة، علمت بنكبة أسرتها دون أن يخبرها أي ناع بها إذ ظهرت لها في المنام صورة أبيها في حالة يرثى لها، وعنقه لا تزال مشدودة في خريتها، فكشفت لها جريمة زوجته بكلّيتها: زناها ورفاها، وكيف راح بعدما سلبه الحياة أحد الأرواح إلى عالم الظلال والأشباح، ولما تمادت في تعذيب نفسها بالنواح، اجتمع إليها بعض أقرانها فحففوا من أشجانها، فكفّت عن التحيب

في آخر الأمر، وبعدهما أنهت في اليوم التاسع الطّفوس عند القبر، وضعت التركة في المزاد بما في ذلك العبيد والأثاث المنزلي وكلّ الدواب، هكذا فُترق بفعل صروف الدهر بيت واحد، وفق مصادفات البيع التي لا يستطيع التنبؤ بها أحد؛ فيما يخصني، ابتاعني جنان فقير بخمسين درهما وبالغلاء<sup>٨</sup> حسب قوله لكنه كان يبغى الحصول بعملنا المشترك على كفاف يومه.

### 9-32 عند الجنائني

يبدو لي أنّ المقام يقتضي منّي عرضا للائحة خدمتي هنا أيضا؛ كان سيدي يحملني كل صباح كثيرا من الخضرة، لأنقلها إلى المدينة المجاورة؛ هناك بعد تسليمها للباعة واستلام الشعر، يقفل راجعا إلى جنّته راكبا ظهري، وبينما يكبّ محنّيا على العزق والترّي وبقية الأعمال، أظلّ طوال الوقت بلا شغل مخلدا إلى التّراحة ناعم البال؛ لكن بانصرام دورات الأفلاك بانتظام، ومرور الأيام والشهور، هوذا الحول تولّى ومال من بعد مستلذات الخريف طيبة العصير، إلى صقيع برج الجدي والشتاء ذي القرب والزمهرير، وخت الأمطار المستمرة، وجليد الليالي القريّة، كنت مربوطا في الهواء الطلق، في مريض بلا سقف يوقّي (1)، أتعدّب بلسع البرد المستمر، إذ لم يكن بمقدور مالكي لشدة الفقر، أن يجهّز لنفسه ناهيك عني، سقفا من الخوص أو أصغر كّن، بل كان يقنع بقضاء العمر تحت ظلّة من أوراق الشجر، زد على ذلك ما أعاني كلّ صباح من العذاب المردي، وأنا أخوض بحوافري العارية وحلا قارس البرد،

(1) مريض بلا سقف؛ كما قال أبو الشّمقمق: منزلي الفضاء وسقف بيتي / سماء الله أو قطع الشّحاب.

ومدرا مدببا من الجليد ولا أستطيع حتى ملء بطني بغذائي المعتاد: ذلك أن طعاما يتوفر لي وللسبدي سواء ومتشابها تماما: لكنّه أكل خمط غث: خس عتيق رث، ساليخ مليخ، استغلظ لتقدم العهد بشطئه كالمكنسة، وتسنة طعام نسغه المر المذر في أوقاهه المتبسة.

### 9-33 في ضيافة المزارع

اتفق في إحدى الليالي أن مزارعا من قرية مجاورة، أربكه ظلام ليلة غير مقمرة، وبللته شأبيب أمطار هامة، فضل السبيل السوي، عاج على جنينتنا وقد كل حصانه ووني، فاستقبل بما يلي الطرف من الحفاوة، ووجد لدينا كئا وفر له، على خلوه من الرفاهة، راحة كان إليها بأمس الحاجة؛ ورغبة في رد جميل مضيفه البر، وعد بإمداده بأمداد من الزيتون والبر، من غلة أراضيه ودنين من الخمر، وبلا توان، امتطى صاحبي ظهري بلا حلس ومعه غرارة وزقان فارغان وانطلق لسيرة ستين شوطا(1)؛ بعد قطع تلك المسافة، وصلنا إلى المزرعة المذكورة، فاحتفى رب البيت بسبدي فورا، وقدم له غداء وفرا، وبيننا هما يترافثان وبينهما الأكواب، حدث هذا الأمر العجيب: أخذت واحدة من جمهرة الدجاج تجري وسط فناء الدواجن وتقوق قواقها المألوف كأنها تريد أن تبيض، فنظر إليها رب البيت وقال: "مرحى يا حلوتي الطيبة البيوض! لطالما غديتنا بمنجاتك اليومية؛ والآن أيضا تفكرين كما أرى في إمدادنا بلمجتك الشهية!" ثم التفت هاتفا: "هيا يا غلام، ضع

(1) الشّوط: stadium يساوي 125 خطوة passus، أي ثمن ميل، والميل mille حوالي 1.5 كلم.

السلة المعدة لإنتاج الدجاج في ركنها المعتاد." فأحضر الغلام ما أمر؛ لكن الدجاجة صدف عن أديتها المألوفة، وتمحّضت أمام قدمي صاحبها بنتاج خديج، برهص بحرج مريح، إذ لم يكن البيضة التي نعلم، بل صوصا مكتمل التكوين، بريش وبرائن وعينين وحتى الصوت شرع يرافق أمه في الحين.

### 9-34 نذر سماوية

لكن ظهرت عجيبة أكبر وأدهى، حرية بأن يقشعر الجميع منها؛ فقد انشقت الأرض تحت المائدة المحملة بقايا الغداء، وانجس من جوفها فوار دم نجاج ترششت قطراته الثقال مرتدة فضرت المائدة، في نفس اللحظة، وبينما الحضور متسمرون في عجب ورهبة من هذه النذر السماوية، هرع خادم من مخزن الخمر معلنا أن التبيذ الحزن فيه منذ زمان فارفي الدنان من الاختمار والغليان، كأن حته أتونا من التيران، في الآن نفسه رئي ابن عرس يجر من الخارج ثعبانا ميتا بين أسنانه وضفدعة خضراء تنط من بين شدقي كلب راع، وكبشا واقفا جانب ذلك الكلب يثب عليه فيرديه خنقا بعضه واحدة، أثارت تلك العجائب وأخرى مثلها في نفوس رب البيت والخدم ذعرا شديدا وحيرة حول ما يجب تقديمه من قرايين كما وكيفا لتهدئة آلهة السماء الغضاب، ثم يضحون قبل، وبماذا بعد، ثم يكثرون وهم يقلون.

### 9-35 هذي الحياة صراع فيها الضعيف يداس

بينما الكل وجوم يترقّبون كارثة فظيعة وهم راهبون، هرع عبد ليخبر سيده بحلول أسوأ وأكبر الكوارث بما تملك يده، فقد



كان للرجل ثلاثة بنين كبار ذوي أدب وحُلق وهم له مصدر فخار؛ وكانت جمعهم صداقة تليدة برجل فقير له عزبة بسيطة. بيد أنّ الأملاك الشاسعة الخصبّة التي تناخم العزبة بحوزة جار قويّ، شابّ وثريّ، من أسرة أصيلة، لكنّه بسيء استغلال مجد آبائه، ويستمدّ عنجهيّة من شيعته، ويفعل بسهولة كلّ ما يشاء (1) في مدينته، فكان يتعدّى، شأن العدو المتعنّت، على أملاك جاره المتواضعة، مقتلاً أغنامه، ومغتصبا ثيرانه، ومتلفا قبل النّصح محصوله؛ وبعدما سلبه كلّ غلّته، بات يرغب في إخراجها من حوزته، ويطالب بالأرض كاملةً مثيرا مسألة حدود باطلّة، فما كان إذّاك من الفلاح الرّزين في كلّ أحواله، وقد جرّده جشع الغنيّ من جلّ أمواله، وللحفاظ لقبره على الأقلّ على أرض الجدود، إلّا أن دعا في قلبه الشّديد، جمعا من صحبه لإثبات الحدود، فأتى الإخوة الثلاثة في جملتهم حاملين لصديقهم في شدّته العون قدر طاقتهم.

### 9-36 المساعي الحميدة

لكن ما أخاف حضور كلّ أولئك المواطنين ولا أزعج حتّى قليلا خصمه الأهوج، وأبى أن يخفّف غلواء أطماعه أو على الأقلّ إغلاظه في القول؛ بل بينما هم يناشدونه مترفّقين، ويحاولون تليين مزاجه الأرعن متودّدين ومتلطّفين، أكّد فجأة مقسما أغلظ الأيمان بحياته وحياة كلّ عزيز عليه أنّه لا يعبر بالا لحضور كلّ الوسطاء وأنّه سيجرّ جاره من أذنيه على أيدي عبّيده، ويقذف به بعيدا خارج كوخه، فاستنكر السامعون هذه (1) يفعل بسهولة: facile faciens جناس مطلق.

الأقوال بشدّة، وبدون تردّد ردّ أحد الإخوة الثلاثة بحدّة، أنّه عبثا يعتدّ بثرواته ليُرهب النَّاس كما يفعل المستبدّ، فطالما أُتيح أيضا للفقراء، بعون القوانين الثّار من غطرسة الأغنياء، فكالتزيت للنّار أو الكبريت للحريق والسّوط لجنيّة النّقمة\* كان خطابه لهوج الرّجل أمثل الغذاء، جُنّ جنونه وبلغ الغضب به مداه، فأرعد متوعّدا بالإيعاز بشنقهم جميعا مع قوانينهم، وأمر بكلاب رعاة معدّة لحراسة ضياعه، ضخام ضوار اعتادت تخاطف الجيف الملقاة في الحقول، ورُيّبت كذلك على عضّ من يمرّ على أرضه من أبناء السّبيل، أن تُسرح وتُطلق عليهم مع خريشها لتعمل الفتك فيهم، فما إن حمّشتها إشارة الرّعاة المعهودة وحمّستها، حتّى تألّبت في هيجان مسعور، مروّعة في فوضى من الهرير، وانقضّت بشراسة على الحضور، فأثخنّتهم بهجمات جراحا ومزقتهم، وحتّى الفارّون ما أعفتهم، بل بوحشيّة مضاعفة تعقبتهم.

### 9-37 تعنت إجراميّ

في غمار المجزرة الشّعواء في الجمع المتدافع، عثر أصغر الإخوة الثلاثة بحجر فخرّ على الأرض مرتضّ الأصابع، مقدّما وليمة فظيعة للكلاب الوحشيّة الضّارية التي حالما وجدت الفتى التّعيس فريسة ملقاة مرّفته إربا، لما سمع أخواه صراخه وهو في غمرات الموت هرعاً لإغاثته مفعوعين، فلقا برداءيهما يديهما اليسريين، وأخذا يقذفان وأبلا من الحجر لذبّ تلك الكلاب العقر عن أخيهما وإبعادها، لكنّهما ما استطاعا قمع ولا دفع وحشيّتها، وما لبث المسكين أن حشرج وهو في النّزع الأخير.

طالباً أن ينتقما لمقتل أخيهما الصغير من الغني الملوّث بدماء الكثيرين، ثم مات مرقاً في الحين. إذًا اندفع الأخوان الباقيان نحو الغني. وفي حماسهما وإقدامهما الجنونيّ، لا لياسهما من النّجاة بل لفرط اللامبالاة، أخذوا يرشقانه بمطر من الحجر. لكنّ ذلك السّفاح المتمرّس من قبل بجرائم ماثلة عدّة، قذف على أحدهما بحرية فشجبه وسط صدره بشدّة، فلم يهو الفتى وإن أردته الطّعنة على الفور، إذ اخترقته القناة ليخرج جزؤها الأكبر من الظّهر، ومن قوّة ارتطامها استقرّت في الأرض حاملة لصلابتها الجنّة المشكوكة بها، ثمّ إنّ عبداً فارعا قويّاً هبّ حاملاً لذلك القاتل العون، فرمى من بعيد حجراً على ذراع ثالث الفتية اليمنى، فمرّ بعد فقدان قوّة دفعه محفحفاً على أطراف أصابعه، وسقط خلافاً لظنّ الجميع بدون إيذاء يده.

### 9-38 نهاية حزينة

قدّمت هذه النتيجة الطّيبة للفتى الكيس بارقة أمل في الأخذ بثأره، فتظاهر بتعطّب يده وأهاب بخصمه: "تلذذ بإفناء كلّ أسرتنا، واسق وحشيتك المتعطّشة التي لا ترتوي من دم ثلاثتنا، وانتصر بمجدٍ بقتل مواطنيك، لكن لتعلم أنّك مهما وسّعت تخوم أراضيك بسلب أموال الفقير ظلماً، سيكون لك جار ما دوماً، أسفي على يميني التي كانت ستقطع رأسك حقيقة، سقطت ضحية القدر الظالم مسحوقة." فزاد لقوله الجرم عننا وشهر خنجره وهو في سورة الجنون، وهجم بعنف على الفتى المسكين؛ لكن هيهات هيهات، ما رهواً رياءً أتى، فخلاص ما انتظر وتظنّى تصدّى له الفتى، وبقبضة شديدة أمسك يده وأدار

سلاحه بضغطة قويّة تجاهه، وبعديد الطّعنات المتواترة عجل إلى الموت بروح الغنيّ القذرة، وليخلّص نفسه من أيدي عبيده المسارعين إليه ردّ إلى نحره الخنجر الملطّخ بدم خصمه. ذاك ما أنذرت تلك الخوارق به من الخطوب، وذاك ما نُقل إلى مسمع الأب المنكوب؛ فما استطاع الشّيوخ، وقد ألّت به كلّ هذه الكوارث قول كلمة ولا حتّى سكب عبرة صامته، بل أمسك بالسّكّين الذي قسم به الجين وأطعمه الغداء الأخرى بين ضيوفه قبل حين، فوجّه إلى نحره عدّة طعنات مثل ابنه المسكين، وانهار على رأسه فوق السّفرة، غاسلاً لطخات النّجيع نذير الشّؤم بسيل من الدّم الجديد.

### 9-39 بين الجنديّ والجنائنيّ

لبث الجنان حيناً يندب حظّ هذه الأسرة التي أيدت بهذا النّحو في لحظة عجلي، راثياً نكبته بشديد الأسى، دافعا لقاء الغداء أدمعاً حرّياً، ثمّ امتطى ظهري وانطلق بنا رأساً على الطّريق التي أتينا عليها، ضارباً يديه الفارغتين كفاً بأخرى، لكن حتّى عودتنا لم تمرّ بسلام؛ فقد اعترضنا رجل فارع القوام، هو على ما يبدو من الهيئة والزّيّ، جنديّ من الجيش الامبراطوريّ، فسألّه بلهجة متعجرفة وخيلة إلى أين يقود الحمار الفارغ من أية حمولة، لكنّ صاحبي الذي ما زال تحت وطأة الألام، والجاهل باللّاتينيّة أصلاً مرّ مرّ الكرام؛ فلم يستطع الجنديّ كبح فحته المألوفة، واستشّاط غضباً من صمته كإهانة موصوفة؛ فنحاه من على ظهري بجلده بزرجونة كانت بيده، إذّاك أجاب الجنان في ضراعة أنّه لجهله بلسانه لا يستطيع فهم كلامه؛ فكان ردّ

العسكريّ باللّسان اليونانيّ: "إلى أين تسير بهذا الحمارة؟" أجاب الجنان أنّه يقصد المدينة التي بالجوار. قال الأول: "لكنّي بحاجة إلى خدمته: يجب بالأحرى أن ينقل من القرية القريبة أكياسا لقائدنا مع دوابّ أخرى." وفي الحال مدّ يده وأمسكني من الزمام وأخذ يجزني. مسح الجنان الدّم التّازف من الشّجّة التي أحدثها برأسه السّاعة ضرب العصا وأخذ يتوسّل إلى العسكريّ ابن بلده بالتّصرّف برحمة ويناشده بأعلى مناه. وأضاف: "ثمّ إنّه حنطور كلّ لا يصلح لشيء من الأشياء، متداع من أخبث الأدواء، بالكاد يحمل لاهنا من شدّة الإجهاد بضعة بزّ من الحضرة من الجنينة المجاورة، ولا يبدو قطّ أمثل لينقل أحمالا أثقل."

#### 9-40 حيلة الجنان

لما لاحظ أنّ الجنديّ لم يلبس لأية ضراعة، وازداد بالعكس عننا على عنق، بل قلب السّرجونة ليثجّ رأسه بأغلظ كعبرة. لجأ إلى آخر وسيلة، نزل وانحنى كأنّه يريد استدرار رحمته متمسّحا بركبتيه، فقبض على كلتا رجليه، ورفعته من على أديم الأرض ليطح به بكلّ ثقله عليه، ويوسعه من فوره لكما وعضا وصكّا برفقيه، وكذلك ضربا بحجر أخذه من الطّريق على كامل وجهه ويديه وجنبه، فما استطاع الآخر وقد بطح على قفاه أن يقاومه أو يتوقّاه؛ لكنّه راح يتوعّده ويعيد غير مدّاح أنّه إن نهض سيفرمه بسيفه جذبا؛ فعمد الجنان وقد نبّهه الإنذار إلى انتزاع السّيف، ورميه بعيدا ثمّ عاد إلى ضربه بمزيد من العنف، لذا فإنّ العسكريّ الطّريح العاجز من جراحه عن الإفلات، والذي لم يجد وسيلة للتّجاة، استخدم الوسيلة الوحيدة الباقية: تماوت؛ ما كان

إذّاك من الجنان إلّا أن حمل سيفه وامتنطاني، وانطلق بي رأسا بسرعة إلى المدينة دون الاكتراث بالذهاب إلى الجنينة، فنزل عند أحد رفقاته وروى له كلّ قصّته، مع رجاء مساعدته في شدّته، وإخفائه عنده يومين أو ثلاثة مع حمارة، حتّى يفلت من القضيّة الجنائيّة باختبائه، فلم ينس صداقتهما التّليدة وهبّ لإجارتته؛ فرُفعتُ مثنى القوائم إلى المقصورة العليا على السّلاليم، ونزل الجنان إلى الدّكان السّفليّ حيث كمن في سلّة سدّت فتحتها.

#### 9-41 البحث عن الجاني

أمّا العسكريّ فكما علمت لاحقا قام في نهاية الأمر، كالمستفيق من نعتة السّكر، لكن في ترنح، ووهن من ألم ما أصابه من ضرب مبرّح، ووصل وهو لا يكاد يثبت على عصاه إلى المدينة؛ ولحرجه لم يبح لأحد بشيء ممّا جرى له جرّاء خوره، بل ظلّ يجترّ بصمت هوان غلبه واكتفى برواية مصابه لبعض من لقي من أصحابه، فرأوا أن يختفي لبعض الوقت في الثّكنة، خوفا، إلى جانب الفضيحة الشّخصيّة، من قانون الخدمة العسكريّة، بسبب إضاعة سيفه، ويعتنوا هم بعد أخذ أوصافنا بالبحث عنّا والأخذ بثأره ممّا. فحدث أنّ جارا غادرا وشى بنا، وأنبا فورا بمخبئنا؛ فاستحضر الجنود القضاة مدّعين أنّهم أضاعوا في الطّريق إناء نفيسا من الفضة لقائد الحامية، وأنّ جنانا لقيه فأبى أن يعطيه ولجأ إلى صديقه ليخفيه. حالما علم القضاة بالصّر وباسم القائد، حضروا أمام باب ملجئنا، منذرين مجيرنا بتسليمنا، نحن المحتبئين يقينا عنده، وإلّا عرض لحكم الإعدام رأسه، فلم يُجد التّرهيب معه، ولحصره على سلامة صديق أمّنه، لم يبح

عنا بشيء، مدّعيًا أنّه لم يرد ذلك الجنان منذ عدّة أيام، في المقابل ظلّ الجند يؤكّدون مقسمين بحياة قائدهم أنّه يختفي هنالك: في النهاية رأى القضاة إجراء تفتيش لفضح التّهم المتمسّك بالإنكار. لذا أدخلوا عددا من أعوان الشرطة والموظّفين وأمروهم بفحص كلّ زوايا البيت بدقّة: فأخبروهم أنّ لا أحد بالبيت إنسانا كان أو حمارا.

#### 9-42 الحمار وظلّه

حمي وطيّس المشادّة بين الطّرفين. الجنود يؤكّدون وجودنا كأمر محقّق مقسمين باسم قيصر ومعيدين. وهو لا يزيد إلاّ إنكارا وإصرارا، ويستشهد عزة الآلهة مرارا. لما سمعت المشادّة والضّجة المتعالية، عنّ لي أنا الحمار الطّلع ذئ النفس القلقة. أن أطلّ برقبتي من كوة الجدار لاستجلاء سرّ تلك الجلبة. فاتفق أنّ جنديًا كان بالصدفة ينظر ناحيتي لمح ظلّي واستشهد الجميع بالمعينة. فعلت في الحال ضجة كبرى. وارتمى البعض السّلام فوراً؛ وامتدّت لي يد أمسكتني وكالأسير أنزلتني. عند ذلك أزيل كلّ ظنّ وأخذوا يبحثون بمزيد من التّحرّي في كلّ ركن: ولما كشفوا غطاء السّلة وجدوا الجنان المسكين فأخرجوه وللفضاة سلّموه. فرجّ به في السّجن بانتظار شنقه علنا حسب أغلب الظنّ؛ ولم يكفّوا عن السّخرية لمراي ضاحكين ملء أشداقهم: من ثمة كذلك نشأ المثل السّائر عن مرأى الحمار وظلّه (1).

(1) الحمار وظلّه: قصّة لإيسوب. جدّها كذلك في خطاب ديمسثينس "في السّلم" ولاحقا في "الرّد على كلنسوس" لأريجينس 3: 1 عن رجل أجّر حماراً وعند الظّهر نام في ظلّه فنارعه صاحبه بدعوى أنّه أجّر الحمار لا ظلّه، وفيما هما يتنازعا فرّ الحمار.

## الكتاب العاشر

#### 10-1 الحمار بالزّيّ الحربيّ

لا أدري ما فعل صاحبي الجنان من الغد. أمّا أنا فافتادني من المدود، بدون اعتراض أحد، ذاك الجنديّ الذي تلقى خير تأديب على فرط هوجه (1). فسأقني على الطّريق محمّلا بأمّتعة له من ثكنته، على ما بدا لي، وبكامل الجهاز والعتاد، بالطّريقة العسكريّة. فكنيت أحمل خوذة لّاعة، ودرعا دلاصا يبدو بريقها من بعيد، ورمحا تلفت الأنظار بطول قناتها، وقد ربّبت هذه العدّة بأعلى كومة الأكياس، على غرار المحاربين، لا لكونها جزءا من الزّيّ النّظاميّ آنذاك، بل على الأرجح لتخويف المسافرين المساكين. بعدما اجتزنا طريقا ريفيّة غير وعرة وصلنا إلى بلدة، فلم نتوجّه إلى فندق بل نزلنا ببيت خفير (2)؛ فعهد بي حالا إلى خادم وانطلق عجلا إلى قائده الذي ينضوي ألف عسكريّ تحت إمّرتة.

(1) هوجه: impotentia كلمة مزدوجة المعنى، إذ تعني كذلك العجز والخور.  
(2) الخفير: decurio رتبة بالجيش، تقريبا كضباط الصّفّ حاليّا، يساهم كذلك في الإدارة المحليّة للمستعمرات.

10-2 عاشقة ربيبها

تعود لي هنا ذكرى جريمة بشعة افترفت هناك بعد أيام من وصولنا، أدونها لكم لتقرؤوها بدوركم<sup>٨</sup>: كان لرب بيت ولد شاب أحسن تربيته فكان مثال البر والأدب، يود كل لو أجه أو أجب مثله. ماتت أم ولده منذ أمد بعيد، فتزوج من جديد، وأجبت زوجته الثانية ولدا آخر أدرك بدوره الثانية عشرة مؤخرا. لكن زوجته التي غدت في بيت زوجها صاحبة العقد والحل بحسنها لا بخلقها، حطت عينها، إما لسفه مركب في طبعها وإما مدفوعة بقدر إلى أرذل الحازي، على ربيبها(1). فلنعلم هنا أيها القارئ أنك ستقرأ فاجعة لا طرفة، وسترتفع من نعل الملهاة إلى خف المأساة. قاومت تلك المرأة طالما بقي حبها الناسى في طور الطفولة، فواه التي لم تستفحل بعد مخفية حمرة خفيفة بمنتهى السهولة. ثم لما اجتاحت أتون الحب فؤادها وأضرمه بناره المستعرة بلا اعتدال، استسلمت للإله الجبار، فتظاهرت بالمرض موهة جرح الروح بسقم الجسد. لا أحد يجهل فعلا أن أعراض ذوي الصحة والوجه تتشابه تماما عند المرضى والعشاق: من شحوب وامتقاع، وعيون ذبلى، ورُكَب تعبى، ونوم يغلب عليه الاضطراب وتنهد ملؤه العذاب يزيد حرقة السقام: حتى لتخالها ببساطة نهبا لنوبات الحمى لولا بكاؤها. فواسخف عقول الأطباء وجهلهم، لِم هذا النبض المضطرب وهذا الامتقاع، لِم اللهاث المعنى والتقلي على الجانبين بلا انقطاع؟ وما أيسر تشخيص

(1) قصة عاشقة ربيبها: ربط ضعيف هنا أيضا. من الأمثلة الأسطورية الشهيرة قصة فيدرة مع هيبوليتوس في تراجيدية يوريبيدس (وهي أكثر رومنسية)، ويشير إليها أبوليوس في "الرافعة": 79

الداء مع ذلك يا آلهة السماء، لا على الطبيب التّطاسي لزاما. بل على من يعرف الغرام، إن رأى أحدا يلتهب ولم ير في جسمه اضطراما!

10-3 بوح بالحب

في عجزها عن احتمال جنون هواها الذي كان يخض حشاها، قطعت صمتها الطويل، طالبة إحضار ابنها، وهو اسم كم كان بوّدها أن تزيله عنه كيلا يذكّرها بخزيها؛ ودون توان لبّى الفتى أمر أمه المريضة، وقصد غرفتها مغضن الجبين كالشيخ من الأحزان، مؤدبا واجب الطاعة المستحق لزوجة أبيه وأم أخيه. أمّا هي فأعياها عذاب صمتها الطويل واستمرت في حيرتها كالغريق بين الأمواج متأرجحة، كلما بدا لها لفظ مناسب للظرف عادت فاستبعدته مستقبحة: إذ لم تنزل بها بقيا من الحياء تقاوم مترنحة: وظلت تتردد من أين تبدأ. أمّا الشاب الذي لم يكن يخامر ريب، فبعفوية سألها مطرفا عن سبب مرضها، إذك استجمعت شجاعته، وانتهزت فرصة خلوتها المشدومة، وقالت له باختصار بصوت مرتعش ودمع مدارار، ومغظية وجهها بطرف الإزار: <sup>٨</sup> "سبب دائي الحاضر ومصدره، وفي نفس الوقت دواؤه والمنجى الآمن الوحيد لي منه هو أنت؛ عيناك نزلتا عبر عيني إلى صميم فؤادي لتضرمنا في حريقا التهمني حتى التّخاع، فارحم من تتلف بسببك ولا يزعك البتة البر بأبيك الذي ستنقذ زوجته المحتضرة: في محبتك أرى صورته فأهواك وما أخالف سنّة الحياة في ذلك؛ ها أنت بمأمن ولديك فرصة مواتية لفعل ما يلزم! ففي عداد ما لم يقع ما لا أحد يعلم."

صُعق الفتى من الخطب الفجائي، ورغم نفوره فورا من ذلك الفعل الإجرامي، قدر أنه لا ينبغي تأجيل صوابتها بصرامة رفض لا توافق الموقف، بل يحسن إرجاؤها بوعد حذر حتى تخفف، لذا وعدها متلطفاً، ونصحها مشدداً أن تتشجع وتسترد نضرتها وعافيتها، إلى أن يخلو بغياب أبيه الجو للذة الهوى، وانقلب في الحين بعيدا عن مرأها الأثيم، رأى أنّ كارثة أسرته الكبرى بحاجة إلى رأي أحكم، فتوجه فورا إلى مربيته الشيخ المشهود له بالرأي السديد، وبعد طول المداولة لم يبدُ لهما من حلّ أسلم من الإسراع بالفرار للإفلات من ضربة القدر الجبار، لكنّ المرأة التي لم يكن بوسعها تحمل أدنى تأجيل سارعت باختلاق ذريعة وأقنعت زوجها بأساليب عجيبة بالمضيّ حالا إلى ضياع له بعيدة، فلما فعل طلبت بتلهف، وقد جنت بحلول الأجل، موعدا للشهوة الموعودة؛ لكنّ الفتى ظلّ يتعلّل تارة بعذر وطورا بأخر متجنباً لقاءها المقيت، حتى أدركت بوضوح من تنوع معاذيره إخلافه وعده؛ إذآك حولت في حركة عكسيّة حبّها الأثم إلى حقد شرّ منه، لجأت في الحال إلى عبد لها من مخصّصات مهرها، طويل الباع في كلّ شرّ ولكلّ جرم مطلق اليد حرّ، وأخبرته بما تبّيت من المكر والغدر فلم يبد لهما من حلّ أفضل من إزالة الشّابّ المنكود كلياً من الوجود؛ من ثمّ أرسلت عبد السوء على الفور فأحضر سمّاً فتأكا خلطته جيّداً بالخمير؛ وأعدت الشّراب القاتل لتقتل ربيها الغافل.

بينما الغادران يتشاوران حول الفرصة المناسبة لتقدّم له الخمر، شاءت الصدفة أن يرجع إلى البيت، من حصّة التعليم الصّباحيّة، الولد الأصغر، ابن تلك المجرمة، فيجد، وقد ألمّ به عطش إثر تناول غدائه، قحح التّبيز الذي دسّ السّم فيه، فيجترعه فورا جاهلا بالكيد الذي يخفيه، وما إن شرب قحح الموت المعدّ لأخيه حتى هوى على الأرض مردى؛ فانفطر لمصرع الولد المفاجئ قلب معلّمه، وأخذ حالا يصرخ ويولول مناديا أمّه وكلّ أسرته؛ وما لبث الجميع أن علموا بحادثة الشّراب المسموم واختلفوا في من يتّهمون بذلك الجرم العظيم، لكنّ تلك المرأة الشرسة والمثال الفريد لكسر زوجة الأب لم تتأثر بميته ابنها الشنيعة، ولا بعلمها أنّها المتسببة فيها، ولا بالكارثة التي حلّت ببيتها، ولا برزّة زوجها، ولا بألم المأثم، إذ كان همّها استغلال مصاب الأسرة للانتقام؛ وعلى الفور أوفدت رسولا ليخبر بخراب البيت زوجها المسافر، فعاد على عقبيه بسرعة؛ وبكلّ جسارة اتّهمت المجرمة علنا ربيها بقتل ابنها، وما كذبت في ذلك تماما، فقد سبق ولدها الشّابّ للموت المعدّ له؛ لكنّها كانت تدّعي أنّ الأخ الأصغر قُتل على يد ربيها لرفضها تلبية مرادته الدنيئة ومحاولته انتهاك عرضها، ولم تكتف بتلك الأكاذيب النكراء، بل أضافت أنّه هدّها بسيفه لفضحها خزيه؛ فجزع الأب المنكود المنكوب في كلا جليليه، وجاشت نفسه بالالام أمام تلك الكرب العظام، كان يرى ابنه الأصغر يُدفن أمام عينيه، ويعلم أنّ الآخر سيُحكّم عليه بالإعدام حتما، لمحاولة الرّنا بزوجة أبيه وقتل أخيه:

وباستمرار زوجته المحبوبة في شكواها الكذوبة نجحت في تأجيج حقه ضدّ ولده.

### 10-6 الشيخ يرفع قضية ضدّ ابنه

ما كادت تتمّ طقوس الدفن حتّى انطلق الشيخ المنكود من الحرقه رأساً إلى المحكمة. مبللاً وجهه بدموعه المسترسلة، ومزّفاً شيبته المعفّرة بالرّماد. هناك بالتوسّلات وبالباكاء، بل والتّمسّح برُكب الخفراء، وفي جهله بمكائد زوجته الماكرة، وبكلّ حماس نفسه الفائرة، مضى يجتهد لإلحاق شرّ الأذى بابنه الباقي، مستحلّ الزنا محرّمه في فراش والده، وقاتل القريب الساعي في هلاك أخيه، والسفّاح المتوعّد بسيفه زوجة أبيه، فأثار تعاطف واستنكار القضاة والجمهور معاً إلى درجة أنّ الكلّ ضجّوا ضيقاً بطول إجراءات المحاكمة والتّحقيق مع المتهم في جرم جليّ وتعميات الدّفاع المدروسة طالبين توقيع العقاب على هذا الخطر العموميّ على مرأى من العموم بسحقه بالأحجار. دفع القضاة الخوف على سلامتهم في حال تطوّر الغليان الشّعبيّ من سخط بسيط في بداياته إلى شغب يخلّ بالنظام العامّ، إلى طلب تدخّل الخفراء وتهدئة الشعب لُببت في القضية وفق القانون والأعراف بنحو متحصّر من خلال محاكمة، وبفحص حجج الطرفين، لا أن يدان المتهم دون الاستماع إليه على نحو وحشيّة الهمج أو تسلّط الطّغاة المستبدّين، فتترك للأجيال سابقة فظيعة تتمّ في زمن أمن وسلم.

### 10-7 شهادة حاسمة

لقي هذا الرّأي السّديد القبول، وفي الحال طُلب من المحضّر الإعلان عن عقد جلسة لمجلس الشيوخ؛ فأثوا حالاً وجلس كلّ في مكانه المعتاد الذي يخوّله قانونياً مقامه؛ وبطلب جديد من المحضّر دخل المدّعي أولاً، ثمّ نودي على المتّهم فاقتيد بدوره؛ وأهاب المحضّر بالمحامين، وفقاً للتشريع الأتيكّي\* وقانون مارس\*(1) أن يمنعوها عن الافتتاحيات الخطابيّة واستثارة عواطف الجمهور. عرفت كلّ هذه التّفاصيل من عدّة أناس كانوا يذكرونها في أحاديثهم أمامي. أمّا العبارات التي حمل بها المدّعي على المتّهم، والوقائع التي فتّد بها المتّهم الدّعوى، والخطب والمُحاجّات، فلا أستطيع، لوجودي بعيداً عند معلّفي، معرفتها ولا يمكنني بالتالي إخباركم بما لم أعلم؛ لكنّي سأدوّن في هذه الرّسالة ما علمتُ بقينا، ما إن انتهت مرافعة الطرفين، حتّى قرّرت المحكمة أنّه لا بدّ من تبين حقيقة الجرائم وصدق الحجّة بوقائع ثابتة، ولا مجال للظنّ والشبهات في حكم بمثل تلك الخطورة. لذا يجب أولاً إحضار ذلك العبد الذي يعلم وحده على ما يقال حقيقة ما جرى. بدأ الوغد بدون أدنى وجل من فداحة الحكم وحجمه، ولا من مرأى المجلس الموقر بأتمّه، ولا من إدراكه شناعة جرمه، يدّعي ويؤكّد(2) كحقائق ثابتة أكاذيب اختلقها: × أنّ الشّابّ في غيظه من صدّ زوجة والده وليثار لإهانته دعاه وأمره بقتل ابنها مع وعده (1) قانون مارس: قانون مجمع حكماء أثينة Areos Pagos كان ينعقد على هضبة حوكيم فيها حسب الأسطورة مارس/أريس أمام آلهة الأولب لقتله هليروتوس الذي حاول اغتصاب ابنته وحكموا ببراءته.

(2) يدّعي ويؤكّد: adseverare et adserere جناس.

بمكافأة سنوية جزاء صمته، وهدد في حالة الرّفص بقتله، وأنّه سلّمه السّمّ ليعطيه أخاه بعدما مزجه بيده، ثمّ لارتياحه بأنّه قد يمتنع عن تقديم القرح ويحتفظ به دليلاً على جرمه قدّمه في التّهاية للغلام بيده. بإدلاء عبد السّوء بتلك الشّهادة بتأثر مفتعل وبالطريقة التي جعلها شبيهة تماماً بالحقيقة انتهت إجراءات المحكمة.

### 10-8 منعطف في مسار القضية

لم يكن يوجد بين الخفراء من بقي لديه عطف على الفتى كيلاً ينسب الجريمة بافتناع إليه، ويحكم بأن يخاط في كيس من الجلد عليه. لما باتت جاهزة أخيراً بطاقات الحكم التماثلة حيث خطّت أرقام كلّ القضية بالإجماع نفس العبارة، لتلقى وفق العادة المتبعة منذ القدم في صندوق الافتراع النحاسي، وبالإدلاء بحصى التصويت يكون قد بُت في مصير المتهم بنحو نهائي. ولا يُسمح بعدئذ بتغيير أيّ شيء، بل يُسلّم المدان إلى يد الجلاّد، تقدّم أحد أعضاء المجلس، وهو شيخ طبيب يحظى لدى الجميع بثقة مطلقة ومصداقية فائقة فسدّ فتحة الصندوق بيده كيلاً يدلي أحد بدون رويّة ببطاقته، وأعلن للهيئة: "× في مثل سنّي يسعدني حقاً أنّي حظيت لديكم باستمرار بكلّ اعتبار؛ ولن أسمح بارتكاب جريمة قتل محقّقة بإدانة متهم على أساس تهم ملفّقة، ولا أن بجرمكم، وأنتم تصدرون حتّ اليمين حكمكم، كذب عبد شقيّ على أن تنكثوا قسمكم، شخصياً لا أستطيع أن أنتهك حرمة الآلهة وأخادع ضميري بإصدار حكم جائر، فاعلموا منّي حقيقة ما جرى.

### 10-9 شهادة الطبيب

أناني هذا الوغد قبل أيّام، طالبا منّي إحضار سمّ قتال، وعارضاً مقابل ذلك عينا مائة مثقال، زاعماً أنّ مريضاً يشكو من داء عضال بحاجة إليه لرغبته في التخلّص من عذاب حياته. لكنّي فطنت إلى أنّ عبد السّوء اللئيم كان يكذب ويلفّق التّعالييل بأفبح وجه، فبادرت وأنا على يقين أنّه يدبّر جريمة، بإعطائه الشّراب؛ نعم، أعطيته إيّاه، لكنّي لم أقبل على الفور الثّمّن الذي قدّمه احتياطاً للمساءلة المتوقّعة، وقلت له: "لنتحقّق من عدم وجود قطعة مغشوشة أو منقوصة الوزن بين هذه المثاقيل الذهبيّة، لنضعها في هذه الصّرة ولنمهّرها بخاتمك، فنتأكّد غداً بحضور الصّراف من سلامتها." هكذا استدرجته إلى ختم التّقود التي أرسلتُ بمجرد مثوله أمام المحكمة للشّهادة، أحد أعوانتي لإحضارها بسرعة من العيادة، وهأنذا أعرضها أمامكم، فليرها وليتعرّف على ختمه؛ فكيف يجوز اتّهام الأخ بالسّمّ الذي اشتراه هذا العبد؟"

### 10-10 مكافحة بين شاهدين

استولى إذّاك على العبد اضطراب شديد، وحلّت محلّ نضرة الحياة فيه غيرة الأموات وغمر عرق بارد كلّ أعضائه، × واصطفقت ساقاه، وأخذ يحكّ رأسه هذه النّاحية مرّة وتلك مرّة، وتلعثم وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة وقد انفرجت شفّته؛ بحيث لم يعد أحد يصدّق حقّاً براءته؛ لكنّه ما لبث أن استجمع مكره ورباطته، وأخذ ينفي مع الإصرار على الإنكار والتّمسك



بتكذيب شهادة الطبيب. إزاء الطعن في نزاهته كقاض وفي صدقه أمام العموم، بذل الطبيب قصارى جهده لتفنيد مزاعم العبد اللئيم. أخيرا فحص أعوان الأمن بأمر من القضاة يديه، فوجدوا خاتما حديديا لديه قارنوه بالدمغة التي على الصرة فأيدت المقارنة الشبهة وعززتها. أحضر دولا ب التّعذيب والمنصبه وفق عادة اليونان لكنّ العبد رسخ على موقفه بعناد عجيب ولم يفلّ عزمه الجلد ولا حتى النار.

### 10-11 حجة إضافية

إذّك انبرى الطبيب قائلا: "لا لن أسمح بإعدام هذا الشابّ البراء ضدّ نواميس السماء، ولا بأن يتلاعب هذا الشقيّ بعدالتنا مفلتا من عقاب جرمته التكرار؛ لذا سأقدم برهانا دامغا على الحقيقة البينة في القضية الزاهنة، لما طلب مني هذا الشقيّ تحضير السمّ الفتاك، رأيت أنّ غاية مهنتي لا تتمثل في إحضار أسباب الموت لأيّ أحد، فقد تعلّمت أنّ الطبّ يُحتاج إليه لإنقاذ حياة البشر(1)، وخفت إن امتنعت عن إعطائه ما طلب أن أوفّر برفضي غير المناسب فرصة للجريمة؛ فقد يشتري ذلك الشراب من غيري زاعما أنّه لغرض قتل رحيم، أو قد ينفذ في النهاية ما يببّ من نوايا الغدر بخنجر أو بأيّ سلاح آخر؛ فأعطيته العقار، لكنّه كان منوما، وهو عشبة اللّفاح المعروفة بقوّتها المخدّرة الثابتة، والتي تُحدث إغماء شبيها جداً بالموت، لا غرابة في أن يتحمّل هذا الوغد بيسر في يأسه وعلمه بالعقاب الذي ينتظره

(1) قضية القتل الرحيم: لا تزال في المجتمعات الغربيّة ( بعد علمنة الدولة فيها) مثار جدل واسع.

وفق سنن الأجداد. ألوان التّعذيب التي ترون فهي أهون منه، من جهة أخرى، إن تناول الولد الشراب الذي خلطت بيديّ فهو بالتأكيد حيّ وغارق في النوم، ولن يلبث أن يخرج من سباته ويعود إلى نور النهار؛ أمّا إن منعه الموت من ذلك، فلُتبحثوا عن أسباب أخرى لوفاته."

### 10-12 نهاية غير متوقعة

استصوب الحضور رأي الشيخ، وفي الحال وبأقصى سرعة قصدوا الضريح حيث وُضع جسم الغلام؛ فلم يبق أحد من المجلس ولا من الأشرف ولا حتى من الشعب إلاّ وانصبّ هناك متطلّعا باهتمام، وها هو الأب أزاح غطاء التابوت بيديه؛ فوجد ابنه الذي كان يخرج في تلك الساعة بالذات من إغمائه وينهض عائدا إلى الحياة؛ فضمّه بحرارة بين أحضانه، ودفعه أمام الشعب والكلمات من الفرح متوقّفة على لسانه، ثمّ أخذه إلى المحكمة ليُعرّض وهو ما زال ملفوفا في أكفانه، إذّك انكشفت جرائم العبد اللئيم والزوجة الغادرة جليّة وتبدّت الحقيقة عارية؛ فحكّم على الزوجة بالنفي المؤبد وتمّ صلب العبد، وتركت مثاقيل الذهب برضا الجميع للطبيب الطيب ثمنا لرقاده المناسب. هكذا أخذت قصّة ذلك الشيخ العجيبة التي تناقلتها كلّ الألسنة نهاية ترضاهها عناية الآلهة، ففي مدّة وجيزة بل في مدى الهنيهة عاد بعد تجربة التكلّم المرّبا لشابّين في زهرة العمر.

### 10-13 في صحبة الأخوين

أمّا أنا فراححت صروف الدهر تلفّ بي وتقلّبني كلّ منقلب.

فقد حمل ذلك العسكرى الذي ابتاعني ولا أحد باعني، وامتلكني بدون دفع الثمن، بأمر رئيسه الملزم، رسالة إلى رومية موجهة إلى الأمير الأعظم؛ فباعني بأحد عشر دينارا لأخوين من الجيرة عبدي رجل واسع الثروة، كان أحدهما حلوانيا يحضر أقراص خبز وكعكا بالعسل، والآخر طباخا يطهو لحوما منقوعة في أمراق شهية ومتبله بأفويه شذية، كانا يعيشان معا في بيت واحد؛ وقد اشترىاني لأحمل أواني الطبخ العديدة اللازمة لسيديهما المتنقل بين شتى المناطق ذات العادات الغذائية المختلفة، هكذا ضممني الأخوان شريكا ثالثا في التعاونية، ولم أحظ في أي وقت بحظ كالذي عرفت في تلك الأيام الهنيئة، فقد اعتاد صاحبي كل مساء، بعد إعداد عشاء فاخر واستخدام طاقم أوانيهما الباذخ، أن يحملا إلى غرفتهما مؤنا كثيرة؛ هذا بقايا وفيرة من لحم خنزير ودجاج وسمك ولحوم شتى، وهذا قطائف وكعكا مقرمشا وكنافة وكبيبات ومشبكات ولوزينجا وحلويات أخرى، فإذا ما أغلقا الغرفة وتوجها إلى الحمام بنية الاستجمام وقعت على الوليمة المرسلة إلي من السماء فأصيب منها نصيبا؛ فما كنت غيبا ولا حمارا حقيقيا لأدع أكلا شهيا كذاك وأتناول حشيشا جشيبا.

#### 10-14 محاسبة صريحة

تواصلت بنجاح غزواتي ردحا من الزمن؛ إذ ظللت أختلس بتعقل واحتشام كميات بسيطة من تلك الأطعمة الوفيرة، كيلا تنطرق إليهما ربة في أي غش من جانب حمارهما، لكن بتنامي ثقتي في خفاء العملية، صرت ألتهم منها الشيء الكثير

والحظ الوفير، وأتخير أذها وأبهاها، وأتي على أشهاها؛ فدبت إلى ذهنيهما ظلال ريبة لا يستهان بها؛ ومع أنّهما لم يشكّا في تلك القضية، أخذنا يجتهدان لاكتشاف المتسبب في السحوب اليومية، ووصل بهما الأمر إلى ارتياب كليهما بأخيه بشأن تلك الاختلاسات الدنيئة، فصارا يوليان الأمر عناية فائقة وحراسة يقظة، ويبديان في عدّ قطعهما دقة متناهية؛ أخيرا نحى أحدهما الحياء وأهاب بالآخر: "ليس من العدل ولا المروءة أن تختلس يوميًا خيرة أطعمتي، لتزيد أرباحك بييعها سرًا بالتجزئة، ثم تطالب بحصنك من الأصول المتبقية، إن لم تكن راضيا عن شراكتنا، فبإمكاننا حلّ تعاونيتنا، مع إبقاء كلّ علاقاتنا الأخرى كأخوين، وإلا فستنشئ بيننا الخصومة بشأن المفقودات أشدّ الشقاق والبين،" فردّ الآخر: "بل أنا الذي أهنتك وحقّ هرقل على هذه السفاهة، إذ تختلس يوميًا من مؤني وتستبق شكائتي التي طالما كظمتها وكتمت أهتي، كيلا أخاصم أخي حول اختلاسات بهذه التفاهة، لكن حسن أن أثيرت المسألة بيننا بصريح العبارة، وبدأ البحث عن وسيلة لإنهاء الخسارة، وإلا فجرت بيننا الشحنةاء، لو بقيت سرّية، صراعات إتيوكليسيّة\*(1)."

#### 10-15 اكتشاف السارق

بعد كثير من التعادل وسوء الظن المتبادل، أقسم كلاهما أنه لم يقترف أيّ غش أو سرقة في حق الآخر، وأنّفا على البحث عن اللصّ مسبب الضرر المشترك بكلّ الوسائل، فما ظنّا

(1) صراعات إتيوكليسيّة: كالتّي انفجرت حسب الأسطورة بين الأخوين إتيوكليس وبولنكس.

بإمكان الحمار مساكنهما الوحيد أن يعبر بالآ لتلك المآكل؛ مع ذلك ظلت أفضل الأطباق تختفي كل الأيام، ولا يدخل الغرفة قطعا ذباب بحجم الحرباوات\* اللاتي كنّ ينهين مائدة فينيوس\* في قديم الزمان. في الأثناء ظلت أحشو بطني بشراة من الأغذية البشرية، منقادا لإغراء تلك المآكل الوافرة الشهية. حتى ودك وانتفخ بدني، وطلق جلدي ونعم من السمن، وزها لون وبري من مأكلي الحسن. لكن حصل لي من غنمي البدني أفرح الغرم المعنوي؛ فقد عجب صاحباي من انتفاخ جسمي غير العادي، ولاحظا بقاء علفي على حاله يوميا، فوجها إلي انتباههما مليا، في الساعة المعتادة، أقفلا الباب كأنهما ذاهبان إلى الحمام كالعادة، وأخذا يراقبان من كوة صغيرة، فرأياني أقبل على الأطعمة المتناثرة بحماسة كبيرة؛ وقفا أمام وليمة حمارهما الطريفة مشدوهين، وبخسارتهما غير أبهين، وما لبنا أن انفجرا ضاحكين؛ ثم دعوا بواحد، فأخر، فالعديد من رفاقهما إلى مشاهدة الذوق الفريد لدابة شُهرت بالحس البليد، فاستولت على الجميع إذك ضحكة صاحبة بلغت سمع سيدهم المار من هناك.

### 10-16 إجاز عظيم

بعد الاستفسار عن الحدث السار الذي يضحك خدم الدار، وأخبر بأمره، أخذ يتفرج بدوره من نفس الفرجة، وهو في أوج البهجة؛ وانفجر بدوره في ضحكة مدوية انخصت لها أمعاؤه من الألم؛ ثم أمر بفتح الباب ووقف عن كذب يشاهدني، فمضيت، وأنا أرى وجه الحظ بفتري أخيرا عن بسمة رضوى.

أكل بلا وجل وبطمأنينة صفوى، مستمداً من حبور الحضور ثقة قصوى. حتى أمر سيدهم لفرط غبطته، بطرافة المشهد وجدته، باقتيادي بل قاذني بيديه إلى حجرة السفر، وأمر بتوظيف المائدة وصف أصناف الأطعمة، وجبات كاملة وأطباقا تامة. ومع أنني كنت قد عبأت بطني، أقبلت على الأطعمة المعروضة أمامي بشراة الجوعان، رغبة في استمالتة ونيل موذته. ولاختبار مدى استئناسي أخذوا يتفنون في إعطائي ما تعاف الحمير إلى أقصى حد. من لحوم متبلة وفراريج مفلفلة وأسماك مسقية بأوراق أجنبية. تعالت فهقهات الحضور في الأثناء، ثم هتف أحد الطرفاء: "أعطوا للأخ العزيز شيئا من صرف النبيذ." فعقب سيدهم: "ما من لغو الحديث مزحتك يا خبيث؛ فجانز أن بصاحبنا رغبة في احتساء قدح من بتع النبيذ." ثم التفت قائلا: "هيا يا غلام! اغسل جيذا ذاك الكوب الذهبي، واملاه بتعا وأعط ضيفي الطفيلي؛ وأهب به أنني أشرب على نخبه." (1) في الحال استولت على الحضور حالة من الترقب والفضول؛ أما أنا، فبدون مخافة وبكل وداعة لويت على شكل اللسان أطراف شفتي، وبشفطة واحدة أفرغت القدح العظيم في حنجرتي؛ فعلا هتاف المتفرجين يحيون كلهم مأثرتي.

### 10-17 الحمار الأعجوبة

غمرت سيدهم بهجة عارمة في الآن، ودعي العبدان اللذان كانا قد اشترياني، فأمر لهما بأربعة أضعاف ثمني ليتخليا له (1) سقي الحمار الطريف خمرا؛ تروى نادرة شبيهة عن الفيلسوف أكتيتس قبيل موته.

عني؛ وسلّمني لمعتوق له من مقرّبيه ميسور الحالة، وأوصاه بإبلائي أكبر العناية، فكان يعاملني بكلّ رفق ويتفاني في تسليّة مولاه بعرض مهاراتي عليه، ليزداد حظوة لديه. علّمني أوّلاً أن أثبت على المائدة عند الأكل كوعيّ الأماميين، وكذلك المصارعة والقفز مع رفع فائمتيّ الأوليين، وإمعانا في الإبهار علّمني التّعبير بالحركات، كأنّ أبدي التّرفض برّد رأسي إلى الخلف والقبول بحنيها إلى الأمام، والرّغبة في الشّرب، إذا عطشت، بالنّظر ناحية السّاقى وترميش أهداب عينيّ بالتّناوب، كنت أستجيب لكلّ ذلك بمنتهى اليسر؛ ولا غرو، فقد كنت أستطيع فعله بدون أن يعلمني أحد، لكنني كنت أخشى، إن أظهرت صدفه قدرتي على الأكل وكثير من الأعمال الأخرى وفق عادات البشر، أن يروا في الأمر نذير شؤم فينحرونني كظاهرة غير سوّية ويقدموني للنّسور وليمّة سخية، سرعان ما ذاع صيت مواهبي وجلبت لصاحبي بفضل قدراتي الخارقة شهرة ومجدا، فكان يقال عنه: هذا الذي يملك حمارة يصادقه ويجالسه على المائدة، ويصارع ويرقص كالشّعر ويفهم كلامهم ويعبّر عمّا يشاء بالإشارات.

### 10-18 إكرام الحمارة

لكن لا بدّ أن أقول لكم أوّلاً، وكان أحرى بي أن أفعل منذ البداية، من ومن أين هو صاحبي؛ ثياسوس، بهذا الاسم فعلا يدعى مالكي، من أبناء كورنتوس\* عاصمة إقليم أخايا\*، تقلّب في المناصب متسلّقا سلّم التّشريفات درجة بعد أخرى، كما خوّلته أرومته وجدارته، حتّى عُيّن في منصب حكام الخمسة (1)؛

(1) حاكم الخمسة: دؤموير، وهو أحد الحاكمين في المستعمرات، وأبو أبوليوس

ولتقديم حفل يليق بأبهة نيّله الشّارات السّلطانيّة، وعد بتقديم عرض مصارعين لثلاثة أيّام وسخّر له كلّ ثروته ليكون آية في البذخ، وحرصه على الصّيت والأبهة وصل إلى تسّالية\* لافتناء أكرم الحيوانات وأشهر المصارعين؛ وبعد التّرتيب للعرض وشراء كلّ المستلزمات حسب رغبته، أخذ يُعدّ لعودته، فإذا به يعرض عن مركباته الفخمة، ويستخفّ بمقصورات عرباته المطهّمة، الجرورة في آخر الاستعراض بلا جدوى، منها المغطّى ومنها المعرّي، حتّى خيل تسّالية\* ودوابّ بلاد الغال\* التي يعطيها أصلها الكرم شرفا وقيمة كبرى، وبشغف يمتطيني بعد تزييني بصفائح ذهبيّة ومنضحة أرجوانيّة وشكيمة فضيّة وإكاف مزخرف وحقاء مزركش وجلجل عذبة الرّنين، وبين الحين والحين يوجّه لي كلمات حفيّة، ويعلن أنّه من جملة دواعي سروره يعلّق بالأخصّ أهميّة على وجدانه فيّ جليسا ومطيّة.

### 10-19 وللناس في ما يعشقون مذاهب

أنهينا رحلتنا، برّا وبحرا، وبلغنا كورنتوس\* فهبّ للقائنا جمع غفير من المواطنين، لا حرصا على تكريم ثياسوس حسبما بدا لي بقدر الرّغبة في رؤيتي؛ فقد انتشرت هناك أيضا شهرتي، حتّى بتّ لمتعهدي مصدر ربح لا يستهان به، ذلك أنّه لما رأى الكثيرين يتزاحمون ولعا بي راغبين في رؤية ألعابي، عمد إلى إغلاق الباب، وصار يُدخلهم فرادى، أحاد أحاد، وبما يتلقّى من البقشيش، دأب على خويش مبالغ يوميّة ليست غير ذات أهميّة، كانت بين ضمن ثلّة الرّوّار سيّدة عظيمة القدر والبسار، تدفع كالأخرين ثمن نفسه حسب ما يذكر في "الرافعة" 24 شغل هذه الخطّة في مادورة.

الفرجة، وجد عظيم المتعة في عروضي المتنوعة؛ وشيئا فشيئا بتواصل الإعجاب وقعت جأهي في شغف عجاب؛ ودون أن تتناول لعلاج شهوتها الجنونية عقارا، غدت كبا سيفاية\* علفت حمارا، تنتظر ضمات عناقي، بأحر الاشتياق. أخيرا عرضت على مقيتي أجرة باهظة للمبيت معي ليلة واحدة؛ ودون أن بهمه إن كان الأمر يحلو لي، وفرحا بربحه فقط سارع بالقبول.

### 10-20 مفاجأة لطيفة

بعد العشاء والخروج من مقصف السيد، وجدنا الهائم تترقب في غرفتي منذ أمد؛ وأي إعداد رائع البهاء، ليلتنا يا آلهة السماء! ٨ سارع أربعة خصيان بإعداد فراش لنا على الأرض من عدة وسائد منتفشة، محشوة بريش ناعم، وألقوا على الحشايا بفن طنفسه موشاة بالذهب وبحمر صور<sup>٨\*</sup>؛ ثم نثروا فوق ذلك نمارق صغيرة لكن كثيرة من تلك التي تسند عليها النساء المرهفات عادة خدودهن وجيودهن، وكبلا يؤخروا بطول حضرتهم متعة سيدتهم، أغلقوا باب الغرفة وانصرفوا؛ في الدّاخل كانت الشموع المتلألئة بساطع السنّا تضيء ظلمات الدّجى لنا.

### 10-21 الاستعداد ليلية غرام

جرت إذك تماما من كل ثيابها، حتى الشريط الذي يشد نهدبها الفاتنين، ووقفت قريبا من النور فأنهنت جيّدا ببلسم يحويه قمقم من القصدير؛ وعركتني مرارا على كل جسمي، مولىة عناية خاصة بتدليك خطمي. ثم غمرتني بجحيم من القبل المشبوبة، لا كتلك التي تلقي بها في دار الرّيبة بنات الهوى

طمعا في التّقود أو زبائنهنّ متمنّعين عن إعطاء المزيد، بل هي قبل صافية صادقة، تتخللها هينمات رائقة. "أحبك"، "أعشقتك"، "أنت وحدك من أهوى"، "لم أعد أستطيع بدونك أن أحيأ"، وغير ذلك مما تتودّد به النّساء إلى أقدانهنّ، ويعربن عن عواطفهنّ؛ ثمّ أمسكتني من زمامي برقة، وأضجعتني بالنّحو الذي تعلّمت بلا مشقّة، إذ لم يبد لي من جديد أو صعب في العمليّة، سيما وأنا قادم بعد كلّ تلك الفترة، على عناق امرأة يمثل حسننها وفي أوج الشّهوة، إذ كنت قد انتشيت بكؤوس من الخمر الزّكيّة وأججت جذوة شبقي بتلك العطور الذّكيّة.

### 10-22 هذه ليلتي

لكنّ هاجسا ناغزا كان يشغل بالي، إذ كنت أتساءل كيف لي بقوائم بهذه الغلاظة أن أتغشى امرأة يمثل تلك الغضاضة؛ وكيف لي بضمّ هذه الأطراف النّاعمة البضة، مشيح الحليب والعسل، بحوافري الفظة؛ وكيف لي بتقبيل تينك الشّفتين الرّقيقتين النّديتين برحيق الآلهة بهذا الفم الغليظ العريض الذي تزيده قبحا هذه الأسنان البارزة كالجنادل النّائنة؛ أخيرا كيف لامرأة ولو حترقت شبقا حتّى الأظفار، بإبواء عضو من مثل هذا العيار؟ × يا ويلتي، أنا الذي بعد فصم هذه المرأة التّيلة، سألقى إلى السّباع، وأدرج في ما يُعدّ سيّدي من عروض الصّراع؛ في الأثناء ما انفكت تزد من نأمانها الحانية وقبلاها المتتالية وهمساتها العذاب الحلّلة بغمزاتها الطّراب، وهتفت بي وهي في أوج الهيجان: × "ها أنت بين يدي يا قمرّي ويا كرواني!" (1) وأبانت (1) عشق الحيوان: حالات نادرة، لكنّ استخدام البهائم لإرضاء الشّهوة الجنسيّة

لي بقولها بطلان تصوّراتي وسخف تخوّفاتي؛ فقد عانقتني مع أوثق الاتّصال وتلقّنتني كلّي بالكمال. فكانت كلّما انزحْتُ رفقاً بردفيها اقتربتُ منّي بشديد التّهيج. وضغطت على ظهري ملتصقة بي بمزيد التّشنّج؛ حتّى رأيت لعمرى أنّ شيننا يعوزني لأشبع شهوتها وفكّرت أنّ أمّ مينوتور\* ما طلبت اعتباطا عند عشيق ذي خوار لذّتها. وبعدها انقضت ليلتنا المجهدة المسهّدة. انصرفت المرأة متجنّبة وضح التّهار بعد الاتّفاق على أجرة مساوية ليلية آتية.

### 10-23 قصّة المحكوم عليها بالإعدام: أخ وأخته

ولم يكن مدرّبي يتحرّج من الجود عليها بلذّتها حسب مشيئتها. من جهة لزيادة عأنده. ومن جهة لإعداد عرض جديد لسيدّه؛ لذا لم يتردّد في إطلاعه على مشهد جماعنا برمتّه؛ فكافأ معتوقه بأجر موفور. وعزم على عرض مواهبي للجمهور. ولاستحالة قبول قرينتي الرّائعة نظرا لمكانتها مشاركتي. ووجود أية امرأة أخرى بدلها رغم ضخامة المكافأة. وجدوا بعد البحث امرأة من الرّعاع. صدر من الوالي حكم بإلقائها إلى السّباع.

منتشر في شتّى المجتمعات وكان يوجد عند الرّومان سيما الكلاب والتّعابين بالتّسبب للسّيّدات. وورود قصص في الميثولوجيا عن اتّخاذ الهة صور دوابّ للأخاد بإنسيّبات أو إلهات. وعن كائنات نصف بشريّة ونصف حيوانيّة تنشهي الإنسيّبات. كالقنطور أو الشّاتور. ذو دلالة. ووردت في مثنويّ جلال الدّين الرّوميّ 5: 1334-1429 قصّة جارية كانت تقضي وطرها مع حمار سيّدتها. وكانت قد درّبتّه كما يدرب الماعز والدّبّ على جماع الأدميين وتضع قرعة في عضوه حتّى لا يجاوز الحدّ. فعلمت السيّدّة ذلك. ولم تر القرعة. فصرفت جاريته بحجّة ما. واجتمعت بالحمار بلا قرعة. وهلكت مفتضحة. وهو محرّم في الدّيانات السّماويّة وعقابه الإعدام. وقد انتقد فولتير فسوة القوانين ضدّه. والتّشريع الحديثة العلمانيّة لا تعاقب عليه إلا إن كان فيه تعذيب للحيوان.

لتملاً معي المدرّجات في عرض أمام الأهالي. وقد علمت بخبر عقابها التّالي. تزوّجت فتى كان أبوه وهو ينطلق في سفر قد أوصى زوجته أمّ ذلك الفتى. إذ تركها مثقلاً بحملها. أن تقتل فوراً ما تلد إن تضع أنثى. وقد ولدت بنتاً في غياب بعلمها. لكنّ عاطفة الأمومة الفطريّة غلبت فرض طاعة زوجها؛ فسلمّتها لجيران لها لتربيتها. وأخبرت الرّزوج عند عودته بأنّها أحببت بنتا وقتلتها. فلمّا تفتّحت زهرة أنوثتها وأن أوان تزويجها. وجدت الأمّ نفسها عاجزة عن رصد مهر لابنتها يليق بمنبتها. في جهل أبيها بوجودها. ولم تستطع سوى البوح بسرّها الدّفين لولدها. سيما أنّها تخاف كثيراً أن يمسّ أخته. مدفوعاً بتوثّب دماء الشّباب إن جمعت صدفة بينهما. في جهلهما معا بأخوتهما. أدّى الفتى. مثال البرّ والإحسان. واجب طاعة أمّه وصله أخته بغاية التّفاني؛ وأودع بعناية أسرار أسرته طيّ الكتمان. مؤدّياً على أحسن وجه واجب صلة الرّحم. متظاهراً بفعل ذلك ببساطة من باب الكرم. إلى حدّ إيواء جارتها الفتاة البائسة المحرومة من عون أبويها حتّ سقّف داره. ثمّ تزويجها بصديق حميم تربطه مودّة كبرى به. مع مهرها بسخاء من حرّ ماله.

### 10-24 الجريمة

لكن ما كانت تلك الإجراءات الموفّقة حسنة النّيّة لتخفي على مشيئة القدر الوحشيّة. فاجّهت إلى بيت الفتى بتدبيرها الغيرة السّوعي. بدأت زوجته في الحال. وهي نفس المرأة المحكوم بإلقائها إلى الوحوش الصّوّاري جزاء ما يأتي من الفعّال. ترتاب أوّلاً في كون الفتاة منافستها التي خطفت منها زوجها. ثمّ تكرهها

ومن ثمّة تنصب لها بوحشيّة شراك الرّدى: هذه هي الجريمة التي دبّرت لها. اختلست خاتم زوجها. وذهبت إلى الرّيف فأرسلت عبداً تثق بوفائه، لكنّه شرّ النَّاس في عين الوفاء ذاته. ليخبر الفتاة أنّ الشّابّ الذي ذهب إلى ضيعته يدعوها إلى موافاته، مضيفاً بأن تأتي على جناح السّرعة بمفردها، ولا أحد بصحبته. وكيلاً ينشأ أيّ تردّد حول الجيء في بالها. سلّمته الخاتم المسروق من بعلاها. لتأييد صدق أقواله عند إظهاره: امتثلت الفتاة لطلب شقيقها غير المعروف بتلك الصّفة لأحد غيرها. بعدما رأت الأمانة المعروضة عليها، وسارعت بالذهاب بدون رفقة أحد حسب التّعليمات المبلّغة إليها، هكذا اتخذت بالحيلة المريدة. ووقعت في شراك تلك المكيدة: إذ أنّ عرّت الزّوجة الفضلى شقيقة بعلاها، وقد أعمتها الغيرة وأخرجتها عن طورها، وانهاالت عليها بجلد جاوز كلّ حدٍّ: ومع أنّ الشّقيقة بلّغتها الحقيقة، مكرّرة أن لا أساس لطنتها عن الرّنا سبب نعمتها، ومؤكّدة مرارا صفته كشقيقها، عدّت كلّ ذلك كذبا من تلفيقها، وأولجت قبسا متّقدا بين فخذيها، وبوحشيّة قضت عليها.

#### 10-25 تتبعها الرّادفة

فلمّا أتى التّعي أخواها وزوجها هرعا، فبكيا الفتاة وتوجّعا وتفجّعا، ثمّ نقلها لتودع مئواها؛ لم يستطع الفتى حمّل موت أخته البائس المدبّر وغير المبرّر بصبر وقلب شجاع. وهزّ الألم كيانه إلى التّخاع، وسيطرت عليه مرارة الصّفراء الصّارّة باغية على كلّ الأمشاج، وألّت به نوبات الحمى المتلاظية حتّى بدا هو ذاته يحتاج إلى العلاج. لكنّ زوجته التي فقدت منذ أمد تلك الصّفة

بفقدانها الثّقة، ذهبت إلى طبيب مشهور بخلوّه من أيّ ضمير، يعرف له النَّاس انتصارات مجيدة، وتعدّ قائمة مآثر يده ضحايا عديدة؛ فوعده بخمسين ألف دانق، مقابل بيع سمّ صاعق، وهي بهذا النّحو من جهتها تشتري موت شريك حياتها. بعدما اتّفقا، تظاهرا بتحضير الشّراب المشهور بالمبارك حسب تسمية العلماء، والصّالح لعلاج الأسقام الباطنة والتّخلّص من بلغم الصّفراء؛ لكنّهما عوّضا وصفة الأطباء بأخرى بديلة، هي المعدّة لخلاص بروسرينة\* (1)؛ ومحضّر الخدم والأهل والأصحاب راح الطّبيب يمدّ يده للمريض كوب الشّراب.

#### 10-26 عصفوران بحجر

فما كان من تلك المرأة الجريئة، للتّخلّص من شريكها في الجريمة، والاحتفاظ في نفس الوقت بالمال الذي وعدته، إلّا أن أوقفت الكأس أمام الجميع وخاطبته: "لا يا حضرة الطّبيب، لن تعطي من هذا المشروب لزوجي الحبيب، قبل أن تشرب منه أنت نفسك أوفر نصيب، إذ كيف لي بمعرفة ما إن كان يحوي بعض السّموم المزعفة؟ ولا يسوّك أنت الرّجل الحكيم العالم أن أبدي كامرأة متفانية منشغلة بسلامة زوجي هذا الحرص اللاّزم،" بهت الطّبيب بالمكيدة المدبّرة له من تلك الشّيطانة المريدة، وطاش صوابه وحارفي الأمر، ولم يجد لضيق الوقت فسحة لإعمال الفكر؛ وقبل أن يشي أيّ اضطراب أو تردّد بالسّوء الذي يخفيه، نهل من الشّراب نعبا تباعا ملء فيه، فأخذ الشّابّ الكوب (1) الوصفة المباركة/المعدّة: تلاعب بلفظ sacram. وخلص بروسرينة هو الخلاص من الحياة.

مطمئناً مثله وشرب ما كان مقدماً له؛ ولما انتهى الحكيم بهذا النحو من خدمته، أخذ يستعجل الرجوع إلى بيته، لإبطال مفعول السمّ الزعاف الذي تناوله الساعة بالترياق الشّافي. لكن لم يرقُ للمرأة الماكرة، في إصرارها الإجراميّ على إتمام خطّتها الغادرة، أن تسمح له بالابتعاد قدر الأملّة، وقالت: "انتظر سريان الشّراب في الأعضاء وظهور أثر الدّواء!" لكن بعدما أتعبها بطول التّوسّل والمناشدة، أذنت له أخيراً على مضض بالمغادرة، في الأثناء كانت أحشاؤه قد تشبّعت حتّى النّخاع من المستحضر الفاتك النّقاع: أخيراً وصل بيته بجهد، وقد استولى عليه خدر ثقيل وضنى مُرد، وما كاد يروي لزوجته كلّ قصّته، ويوصيها بمطالبة زبونتته على الأقلّ بالأجر الموعود لميئة مزدوجة، حتّى لفظ طبيبنا النّطاسّي أنفاسه في انتفاضة عنيفة وحشرجة.

### 10-27 حيلة جديدة

لم يبق الرّوج هو الآخر طويلاً على قيد الحياة، وبين دموع زوجته المزيّفة المتكلّمة عرف نفس الوفاة: بعد دفنه ومرور الأيّام المعدادات التي تقام أثناءها الطّقوس للأموات، حضرت زوجة الطّبيب طالبة مكافأة الميئة المئنة، أجابت تلك المرأة الثّابتة هي هي حتّى النّهاية، مخفية وجه الصّدق ومبديّة مظهره، وبمنتهى الحفاوة، مغدقة عليها الوعود بسخاء، ومتعهّدة بتسليمها الثّمن المتّفق عليه دون إبطاء، لو أمدّتها فقط بقليل من ذاك الشّراب من فضلها لإتمام الصّفقة التي بدأت مع بعلمها، ما الدّاعي للإطالة؟ وقعت زوجة الطّبيب في الحباله، مغترة بسّيء المكر فقبلت بمنتهى اليسر والاستمالة السيّدة الغنيّة أسرع

جلب من بيتها كلّ علبه السمّ المعنيّة، وبحصول تلك على مائة وفيرة لجرائم كثيرة، أطلقت يديها الدّمويّتين تعيثان في الأرض بالطّول والعرض.

### 10-28 عصفورتان بحجر

كانت أمّا لبنت صغيرة، من زوجها الذي اغتالته قبل مدّة قصيرة، فضاقت بالبنية لأنّ القوانين تعطّيها كلّ الحقّ في تركه أبيعها؛ ولطمعها في كلّ ميراث بنتها، أخذت تُعدّ أيضاً لموتها، لوثوقها إذن من مآل إرث الأبناء الأموات، إلى أمّهاتهم المجرمات، أبدت أمّا ما أبدت قبل في دور الزّوجة؛ واحتالت لغداء نهئية الفرصة، فوجّهت لزوجة الطّبيب وابنتها بنفس السمّ نفس الضّربة، لكن بينما أتلّف الدّاء الفتاك سريعاً روح الصّغيرة الهشّة الدّقيقة وأحشائها الغضة الرّقيقة (1)، شهدت زوجة الطّبيب تغلغل إعصار الشّراب المقيت في رئتيتها وانتشار دماره على طول مساره، فتشكّكت وما لبثت أن تحقّقت وهي ترى نفسها يضيق من أثاره، فقصدت بيت الوالي مستصرخة مستجيرة بدماره؛ وأثارت هتاف الجماهير الغفيرة وألّحت لتمكينها من كشف تلك الجرائم الكبيرة، فانفتحت لها في الحال دار وأذنا الوالي، وما إن عرضت منذ البداية كلّ فظائع تلك الجريمة الوحشيّة بفائق العناية، حتّى اعترى ذهنها تهويم، وتشوّش وتغييم، وزمّت شفّيتها بعدما ظلّنا منفرجتين قليلاً واستحالت قففة أسنانها صريراً طويلاً، وتهافتت أمام قدمي الوالي بالذّات بلا رمق من الحياة، لم يسمح ذلك الرّجل الحنّك

(1) الدّقيقة/الرّقيقة: tenuem/tenera جناس مضارع.



بأن يفسخ بالإجراء وقع جرائم تلك الحية الرقطاء؛ فأمر بإحضار وصيفاتها على الفور وانتزع منهنّ تحت التعذيب حقيقة الأمر. وحكم بإلقائها إلى السباع، وهو عقاب دون ما تستحقّ بلا نزاع، لكن ببساطة لم يكن في المستطاع. أن يستنبط عقوبة أخرى توازي جرائمها الكبرى.

### 10-29 رقصة جماعية

مع تلك المرأة كنت سأعقد زواجي أمام كلّ الأنظار. فلبثت أنتظري يوم العرض بشديد الجزع والاحتيار، وأكثر من مرة رغبت في الانتحار قبل أن ينجسني مساس تلك المرأة المجرمة أو تصمني خسة ذلك العرض العموميّ بالعار؛ لكن ما كان بدون اليد البشرية والأصابع بمقدوري أن أجرد سيفاً بحافري المهزئ المستدير. مع ذلك ظلّ بصيص من الأمل يعزيني عن محني الشداد؛ فهذا الربيع في ساعة الميلاد، وقد وثى الأرض ببراعم التوار المتفتحة، وكسا الحقول بحمرة المتألثة؛ وها هي الورود في الموعد تخترق غلافها الشوكي ناشرة في الهواء عرفها الزكيّ. وستعيدني إلى لوقيوس شكلي الأصليّ. أخيراً حلّ اليوم المحدّد للعرض العموميّ. فقادني مدرّبي إلى مدخل المسرح يتبعني جمهور غفير في جوّ احتفاليّ بهيج، وبينما كانت تقدّم في افتتاحية العرض مشاهد استعراضية مسلّية من التمثيل الجماعيّ. لبثت أرصد بنهم من موقفي المؤقت قرب الباب بساطاً نضراً من الأعشاب نبت على المدخل، منعماً بفضولٍ بصريّ بمشاهدة عرض رائع من خلال الباب المفتوح. راح فتية وفتيات في زهرة العمر، رائعو الجمال أنيقو اللباس رشيقو الحركات يؤدّون بفنّ واتساق لوحات رقصة

بيروس\* اليونانية، منثنين تارة في حركة دائرية، وملتفتين تارة في رتل متماسك، فمتجمّعين في شكل تربيعة، فمفضّين أسراباً. ثمّ أنهى زمير البوق الختاميّ هذه السلسلة من اللوحات الراقصة المتنوعة المتناوبة. فأزيح الستار وطويت السجف وأعدّ الرّكح للمشهد التالي.

### 10-30. عرض راقص لمشهد ميثولوجي

كان وسطه جبل خشبيّ يشبه جبل إيدا\* الشهير الذي تغنى به الشاعرهوميروس\* ينتصب عالي البناء، غرست فيه أشجار حية مخضرة، ومن أعلى قمّته حيث فجرت يدا الصانع عينا تجري مياه مسبطرة، وعلى سفحه بعض المعاز ترعى الكلاً. وفي زيّ فارس\* الزراعي الفرجي\*. كان شابّ التحف قميصاً أنيقاً وتدلّت على كتفيه أطراف حلّة أجنبية، ولفّ رأسه بقلنسوة ذهبية، يمثّل دور راعي القطيع، ظهر فجأة ولد صبح عارٍ إلا من دنارمًا يرتدي الغلمان لم يسترسوى الكتف اليسار، × يسرّ الناظرين بحسن جسمه كلّ حتّى شعره الأشقر الذي برز من بين خصله جناحان صغيران ذهبيّان جمعا برباط يشبههما، وتبين عصيته مركوريوس\* ومرزاقه. تقدّم راقصاً، حاملاً يمينه تفاحة مذهبة الأوراق، مدّها للفتى الذي يمثّل فارس\*. معبّراً له بالإيماء عمّا أوعز به بوبتر\*؛ ثمّ تراجع برشاقة واختفى عن الأنظار، ثمّ أتت فتاة ينمّ محياها عن الوقار تشبه منظر الإلهة يونون\*. يكملّ رأسها تاج ناصع البياض ويدها صولجان. ثمّ دلفت أخرى، تحسبها مينرفة\* من أول نظرة، تغطّي رأسها خوذة متألثة، عُقد عليها إكليل من أغصان الزيتون، تحمل مجنّاً وتشهر رمحا كما تظهر في المعارك.

10-31 رقصة يونون ومينرفة

بعدهما دخلت أخرى تسرّ الأنظار بحسناها الفائق. تعرف في نضرة لونها الرّبيّ برحيق الألهة فينوس\* كما كانت في ريعان الشّباب. عارضة جمالها المطلق. في عري جسمها المجرد من كلّ ملابس سوى غلالة شفيفة رقيقة من الدّياج تظلل الأريّة. × كان التّسليم في فضول وصبابة يزيحها تارة عن زهرة شبابها وينفخ عليها بمجون تارة فتلتصق بجسمها راسمة خطوط أعضائها الفتانة: أمّا لون الإلهة فيزدهي في تضادّه العبقريّ بين بياض جسمها المعلم بمعدنها السّماويّ. ووشاحها الفيروزيّ المنبئ بمآبها البحريّ. ثمّ حفّ بكلّ واحدة من الفتيات القائمات بدور الإلهات موكب تابعيها والتّابعات: فتبع يونون كستور\* وبولوكس\*. تغطّي رأسيهما خوذتان كبيرتان مقبّبتان تناثرت بأعلاهما النّجوم. لكنّ الكستورين(1) هما أيضا مجرّد مثليّن. تتقدّم الفتاة بخطوها الوئيد الموقّع كالنّشيد. مثيرة إيقاعات شتّى: وبحركات خلّت من التّكلف والابتذال. تعدّ الرّاعي. إن أسند لها لقب ملكة الجمال. بمنحه ملك أسية بالتّممام والكمال. أمّا تلك التي حاكت بها مينرفة\* شكّة أسلحتها. فسار فتیان بجانبها. هما حاملا سلاح الإلهة المحاربة. الخوف والجزع ( ترور وميتوس) متوتّبين. بسيفيهما الجردين: وخلفها بقليل سار زمار يعزف لحنا حربيّا. مازجا بالأجراس الكريمة الرّتات الجهيرة على نحو بوق النّفير. ملهبا حماس تلك الرّقصة السّريعة. أمّا هي فكانت تسير بنشاط هاّزة رأسها وعيناها تومضان وعيدا. وتومى (1) الكستوران: كستور وبولوكس. تغليب كما في "صراعات إنيوكليسيّة" وكما في العربيّة: الغمّران.

لفارس\* بحركات سريعة ملتوية. واعدة إن سلّمها شارة التّصر في مسابقة الجمال أن تجعله سيّد الأبطال. وتكلّله في معارك عديدة بانتصارات مجيدة.

10-32 رقصة فينوس

هذه الآن فينوس\* تأتي فتقف في منتصف الرّكح. وسط هتاف المتفرّجين. محفوفة بكوكبة من الولدان يتألّفون بهجة. وعلى ثغرها بسمة عذبة. تخال أولئك الغلمان من بهاء أجسامهم الرّبيّ الطّيرة جمهرة من آلهة الحبّ طاروا لتوّهم من السّماء أو البحر: فبأجنحتهم اللّطيفة وسهامهم الصّغيرة وكامل هيئتهم. كانوا فعلا يحاكون صورتهم أروع المحاكاة. وبضينون بموارح مشاعلهم السّاطعة لسيدّتهم كأنّها تسير إلى مأدبة زفاف. ثمّ تدخل كوكبة عبقرية الجمال من العذارى: هنا رتات الرّواء\* فائقات الرّواء. وهناك رتات الفصول\* رائعات البهاء. ينثرن الزّهور مفرّقة ومنظومة مهنئات رتتهنّ. ويتجمّعن حولها في جوقه على نسق بديع. ملاطفات رتة اللّدات برياحين الرّبيع: ثمّ ها هي المزامير متعدّدة الثّقوب قد بدأت تعزف مقطوعات ليدية\* بأنغام عذاب. فتنتنشي من حلاوتها قلوب المشاهدين. وتفوقها حلاوة فينوس\* إذ بدأت تختال بتؤدة. وبخطى متأثية مترددة. مؤودة برفق أعطافها. وهاّزة بلبين رأسها. وتجيّب نغمة المزمارة الرّخيمة بحركات حلوة التّوقيع. وترسل إشارات من حدقتيها المقصورتين في ارتخاء حيننا والمتوقّدتين وعيدا حيننا. وبالعينين فقط ترقص أحيانا. حالما وصلت أمام الحكم أخذت تعدّه. كما بدا من حركة ذراعيها. إن فضّلها على الإلهتين

الأخريين أن تعطي فارس\* عروسا باهرة الجمال مثلها؛ فأسرع الفتى الفريجي\* بكل سرور يسلم الفتاة التّفاحة الذهبية التي بيده، شعار الانتصار.

### 10-33 أفكار الحمارة حول العدالة

أفتعجبون إذن يا أراذل الناس، بل يا بهائم المحاكم، بل ويا عقبان الفلا المكسوة ثوب القضاء، أن يتجر القضاة اليوم في أحكامهم ويملّوا ثمنها، إن كانت المحابة قد أفسدت في بدء العالم حكما متنازعا بين الآلهة والبشر، وإن كان قروي ومجرّد راع اختير بإيعاز يوبتر\* العظيم، باع حكمه منذ القديم، مقابل شهوته، ولتهلكته وتهلكة شعبه برّمته؟ × والأمر مائل لعمرى في الحكم الآخر اللّاحق الذي نوه به كلّ قادة الأخيين\* الأجناب وقضى بناء على نهم باطلّة بإدانة بلاميدس\* الذي فاق الجميع معرفة وحكمة بالخيانة، أو تفضيل أوديسيوس\* في فنّ الحرب على أياس\* الأشدّ لها مراسا؛ وماذا أقول في ذلك الحكم المعروف الذي أصدره الأثينيون، أولئك المشرّعون الجهابذة والمتفوّقون في كلّ العلوم الأساتذة؟ ألم يقض على ذلك الشيخ صاحب الحكمة الإلهية\*، الذي قدّمه ربّ دلفي\* في الحكمة على كلّ البشرية، بعدما تألّبت عليه عُصبة باغية حاسدة مفترية، باعتباره مفسد الشباب الذين كان بالعكس يكبح جماحهم، بالموت بسّم الشوكران المردى، تاركا لمواطنيه وصمة عار إلى الأبد، بينما يستحسن كبار الفلاسفة إلى هذا اليوم مذهبه ويفضّلونه على ما عداه، وفي بحثهم الدؤوب عن السعادة لا يثقون بأحد سواه؟ × لكن لئلاّ يعترض معترض على فورة استنكاري قائلا

في نفسه: "ها نحن الآن ملزمون بالإصغاء إلى حمارة يتفلسف علينا!"، لأعدّ إلى روايتي حيث تركتها.

### 10-34 نهاية مشهد الباليه

بعدها حكم فارس\*. غادرت يونون\* ومينرفة\* الرّكح أسفتين مغضبتين، مبديتين بالحركات سخطهما من ردّ الفتى لهما، بينما عبّرت فينوس\* عن فرحتها بالترّقص مع فرقتها، إذ أنّها انبجس من قمة الجبل الشّماء عبر أنبوب خفيّ صنوبر زعفران مذاب في الخمر، فارتفع عاليا، ثمّ اساقط رشاشا على المعاز الرّاعية في الجوار، مطرا عليها ودقا شذّيّا، حتّى اكتسى وبرها الأثيب لونا بهيّا، متحوّلا من بياضه العاديّ إلى صفرة الجاديّ؛ ثمّ لما نشرف في المسرح كلّ عرفة الشذّي، ابتلعت أحشاء الأرض فجأة ذلك الجبل الخشبيّ، ثمّ إذا بجنديّ يجري عبر السّاحة ليحضر من السّجن العموميّ، بطلب من الشعب تلك المرأة التي ذكرت أنّها ستلقى إلى السّباع جزاء جرائمها العديدة، والمعدّة لحفلة عرسى المشهودة، ها قد هيّؤوا بعناية ما سيكون لنا بالتحقيق تخت الزّواج، فراشا متألّئا باليشب الهنديّ محشّوا بالريش النّاعم ومزدانا بملاءة من الدّيباج، أمّا أنا ففضلا عن خجلي من أداء عرض الجماع أمام الجميع، وعن نفوري من ملامسة مجرمة نجسة، كنت أتعدّب أيضا جزعا من الموت، متسائلا بيني وبين نفسي كيف للسّبع الذي ينوون إطلاقه لافتراس المرأة، ونحن متلاصقان في ضمة الغرام، وما هو مهما كان بالفطن فطرة ولا بالمدرّب اصطناعا ولا بالقادر على مجاهدة التّفنّس على الطّعام، أن يمزّق المرأة المضطّجعة بجانبى ويدعني بصفتي بريئا لم أدن

فلم أعد قلقاً على عفا في وإنما على سلامتي أصلاً. وبينما  
مدرتني منهمك في ترتيب السرير، والخدم كلهم منشغلون  
بإعدادات مشهد الصيد أو مشدوهون بالعرض المثير. × أتيح  
لخاطري مجال للتفكير، وما كان أحد ليفكر في ضرورة مراقبة  
حمار بمثل سلاستي، تقدمت الهويني خلسة حتى بلغت الباب  
الذي كان قريباً، واندفعت بأقصى سرعتي. بعدما قطعت  
بسرعة مذهلة ستة أميال بأكملها، بلغت كنخريه\*، وهي  
مدينة محصنة نقيم بها، على ما يقال. جالية كورنتية\* عريقة،  
تقع على ضفاف بحر إيجة والبحر السارونيكّي. وبها كذلك ميناء  
يعدّ مرسى مأمونا للسفن ويتردد عليه كثير من الناس. جئبت  
الجموع وانتبذت على الشاطئ قريباً من خط ارتداد الموج مكاناً  
بعيداً؛ فتمددت على بساط الرمل الناعم لأريح جسمي المكثود.  
إذ كان مسار الشمس قد انحنى على حدّ النهار الأقصى.  
فأسلمت نفسي لهدأة المساء، وما لبث نوم عذب أن ألتئم بي.

## الكتاب الحادي عشر

### 11-1 الأمل

قراصة الهزيع الأول من الليل استيقظت مذعوراً، فرأيت  
قرص البدر تماً، وقد برز فوق جة البحر متألئاً بنور ساطع. أنست  
من الليل المعتم جلالاً وسكينة، ووقر في قلبي أنّ هذه الإلهة  
العلية تبسط على الكون سلطتها، وأنّ الشؤن الإنسانيّة  
خاضعة لعنايتها، وأنّ قوّة نورها وبركتها الرّبانيّة لا تمدّ بقوّة  
البقاء الحيوانات داجنها وبرّيها فقط. بل كذلك الجماد، وأنّ كلّ  
الأحياء على الأرض وفي البحر والسّماء تزيد أنا بزيادتها وتنقص  
أنا بنقصانها، وأنّ القدر لا ريب قد شفى غلته بكلّ ما أنزل بي  
من المصائب والنّوائب، فقدّم لي أملاً في الخلاص، وإن أتى متأخراً؛  
فقررت أن أتضّرّ إلى الإلهة المتجلية لي في هذه الصّورة المهيبة،  
أزحت على الفور فتور النّعاس، ونهضت خفّاً فرحاً، فبادرت إلى  
تطهير نفسي بالاغتسال في البحر؛ مغطّساً رأسي في جتته  
سبع مرّات، فقد أبان فيثاغور\* الإلهي أنّ هذا العدد يناسب  
العبادات بشكل خاصّ أكثر من سواه؛ وأنشأت أدعو والدّمع ببلى  
وجهي تلك الإلهة الجبارة.

"يا ملكة السماء، سواء كنت كيريس\* المطعمة منشئة الثمرات، التي في بهجتك بالعثور على ابنتك، أزلت طعام التوحش بلوط البشر العتيق، وعلمتهم طعاما أرهف، وتزتين اليوم أرض إليوسية\* بفيض هباتك؛ أو كنت فينوس\* السماوية، التي ولدت في بدء الكون الحب فجمعت به الجنسيتين المختلفين، ونشرت النوع البشري بسلسلة التناسل اللانهائية، وتعبدين اليوم في هيكلك بافوس\* الحاط بالبحر: × أو أخت فوبيوس\* التي يسرت وضع الأجنة بمراهمك المسكنة فأنشأت بذلك شعوبا عديدة، وتُعظمن اليوم في معبد أفسس\* الشهير، أو بروسربينة\* ذات الوجوه الثلاثة الخيفة بنوحها الليلي، كابحة جماح الأشباح والحفيظة على زنازن الأرض، الهائمة بين الغابات، والمسترضاة بشتى العبادات. أنت يا من تضيئين مدننا بنورك الطافح برقّة الأنوثة، وتغذين بأشعّتك الرطبة الدافئة النباتات المتفتحة، وترسلين على الأرض ضياءك الخافت في لفاتك المنفردة؛ بأيّ اسم وبأيّة طقوس وفي أيّة صورة تسمحين للناس بأن يدعوك: × أعينيني على محني التي بلغت المدى الأكبر وثبتي حظي المنعثر؛ وبعد استنفاد كلّ الكرب العظام، مني عليّ بالراحة والسلام؛ كفاني متاعب وحسبي مخاطر! اسلخي عني غلافي الحيواني ورديني إلى مرأى ذوي، أعيديني إلى لوقيوس العزيز عليّ؛ وإن كانت قوّة إلهية غضبي تعقبني بحقدتها بلا هوادة فلْيُسمح لي بالموت على الأقلّ إن لم يُسمح لي بالحياة."

بعدما وجّهت هذه الدّعوات وأردفت كثيرا من الشكاوى الباكيات البائسات، استولى النوم من جديد على نفس ذاك الفراش الرملي على نفسى المضناة. فما كدت أغمض عيني حتى انبثق من خضمّ البحر طيف إلهي رافعا طلعة بهية يختر الألهة أنفسهم لها سجّدا؛ ثم برز الطيف النير تدريجيا بكلّ جسمه نافضا عنه اللجّة، تراءى لي منتصبا قبالي. سأحاول أن أنقل إليكم أنتم بدوركم صورته العجيبة، إن منحني فقر اللسان البشري القدرة على وصفها بالكلمات، أو وهبني تلك القوّة الإلهية فصاحة وجزالة وبيانا. كان شعرها الكثيف الطويل المنعقف شيئا يسيرا ينسدل رخاء على جيدها الإلهي متفرقا و متموجة بنعومة، وقد عُقد بأعلى رأسها المهيب تاج من زهور شتى متعدّدة الأشكال، تبرز وسطه، فوق الجبين، اسطوانة صقيلة كالمرآة أو بهيئة القمر ترسل ضياء ناصعا، محفوف على اليمين والشمال بنقش حيّات متوقّدة، وكذلك مدّت فوقه شارات كيريس\*. وعليها إزار متدرّج الألوان، حيك من أرهف الكتان، هنا أبيض كالضياء ناصع، وهناك أصفر كالزعران فاقع، أو متضرم بحمرة الورد ساطع، وما كان يخطف أكثر أنظاري، عباءة فاحمة تسطع في سوادها البهّار، تمنطقها مرتدة من الجنب اليمين إلى الكتف اليسار، دلي رفلها مكشكشا حتى الكفاف، بحاشيته هذب معقودة الأطراف، وهي تسرّ العين بتموّجها الهههاف.

11-4 وصف الإلهة

وعلى حاشيتها المطرزة وفي عرضها انثرت جُوم ساطعة  
توسطها قمر ينفث ألسنة من اللهب؛ وعلى مدار هذه  
العباءة الرائعة التحم بها أوثق الارتباط شريط مشكّل من  
زهور وفواكه شتّى. وقد برزت في كلّ عدّتها، حاملةً بيمنها  
صنجا من التّحاس عُقفت صحيفته على هيئة التّجاد ومُدّت  
وسطه قضبان صغيرة تصدر عنها كلّما مُرّرت عليها عصيّة  
ناقرة ثلاثتها معا رنات جهيرة. وبتدلّى من اليسرى قنديل ذهبيّ  
بشكل قارب ينبثق من جزء عروته المرنيّ صلّ بمدّ رأساً متوقّداً.  
وينفخ عنقه إلى أقصى مدى؛ ويغطّي قدميها الصّمعاوين  
نعلان ضُفرا من سعف النّخيل الذي يمثّل الظفر؛ في هيئتها  
هذه وأبْهتها، وبصوت ملؤه جلال ألوهتها. تكرّمت بمخاطبتي  
وهي تعبق بأصماغ بلاد العرب الطّيبية:

11-5 الإلهة تخاطب لوقيوس

"هأنذا جئت إليك يا لوقيوس، متأثرة بدعائك، أنا أصل  
الطّبيعة بأكملها وسيّدة العناصر كلّها، أرومة القرون الأولى  
والقوّة الإلهيّة العليا، ملكة عالم الأموات والأولى بين آلهة  
السّماوات والنّمودج الموحد لكلّ الآلهة والإلهات، أنا التي أسير  
وفق مشيئتي ذرى السّماء النّيرات، وأنفاس البحر الشّافيات،  
والصّمت الحزين الرّائن على غياهب عالم الأموات؛ فيّ يتعبّد  
العالم كلّهُ إلى قوّة إلهيّة واحدة، تحت أشكال شتّى وبطقوس  
متنوّعة وأسماء متعدّدة، يدعوني هنا الفريجّيون\* الألى أمّ

الآلهة البسّيننتيّة\*. وهناك سگان أتبكة\* مينرفة\* الأثينيّة،  
وهنالك القبارصة البحّارة فينوس\* البافوسيّة\*، وسگان كريت  
الصّيادون ديانة\* الديكتنيّة\*، وسگان صقلية النّاطقون بثلاث  
لغات بروسرينة\* الإستكسيّة\*، وسگان سهول إيوسية\*  
القدامى كيريس\* الأثينيّة، وتدعوني فئة يونون\*، وأخرى بلّونة\*،  
هؤلاء هكّانة\* وأولئك رمنوسية\*، بينما الشّعوب الذين تضيئهم  
أشعة الإله الشّمس بازغة عند الشّروق ومنحدرة مع الغروب(1).  
الأحباش بكلتا فئتيهما والمصريّون المتصلّعون في المعرفة منذ  
القدم، يؤدّون لي الشّعائر المناسبة ويدعوني باسمي الصّحيح:  
الملكة إيزيس\*(2). هأنذا حضرت إليك رائية لمصائبك، هأنذا راضية  
مؤاتية إلى جانبك، فكفكف عبراتك وكفّ عن شكّاتك(3) وأبعد  
الحزن عنك، فها قد أشرق بعنايتي يوم خلاصك، لذا أعزّ أوامري  
كلّ انتباهك، لقد خصّصت الديانة الأزليّة لي النهار الذي  
سينسلخ من هذه اللّيلة، والذي بمقدمه تكون عواصف الشّتاء  
قد سكنت، وثائرة الموج قد هدأت، وعاد البحر مأمونا للملاحة،  
فيقدّم لي كهنتي قارباً جديداً لافتتاح موسم البحارة.

(1) بازغة عند الشّروق ومنحدرة عند الغروب: nascentis (dei solis) inchooantibus et occidentis inclinantibus جناس تصحيف مع مقابلة.

(2) أسماء الملكة إيزيس: لاحظ هنا عشرة أسماء هي إلى حدّ ما تسميات  
مضللة ومظاهر، قبل جلي الحقيقة الصّحيحة، ولعلّ لهذا كما لتبويب الرّواية  
إلى عشرة كتب بنوعها كتاب يختلف عنها في لهجته بما قد يوهم أنّه زيد إلى  
الرّواية الأصليّة تلفيقاً، دلالة إذا عدنا إلى فلسفة العدد الفيناغورثية التي تعتبر  
عدد 10 (= 1+2+3+4) ختام دورة وافتتاح دورة جديدة؛ وهنا يبدأ لوقيوس حياة  
جديدة، بعد ضياع حياته السّابقة البهيمية، ويمكن تقسيم الكتب العشرية  
الأولى موضوعيّاً على الأساس المذكور: 1- الوصول 2-3: الشّقوط في اللذة  
الحسيّة والسّحر 4-5-6: في كهف اللصوص 7-8-9-10: تنقل ومحن.

(3) كفكف/كفّ: mitte/omitte جناس مطلق مذبّل.

11-6 تعليمات إلهية

فلتنتظر هذه الشّعيرة بذهن صاف من الكدر، ومن مشاغل الحياة الأخر؛ بإيعازي سيحمل كاهن وسط الموكب بيمينه إكليلا من الورد ملاصقا للصنح. فلا تتردد: نَحّ الحشود وانضمّ إلى الموكب بخفة، وأنت من رضي في قوة. اقترب كأنك تودّ تقبيل يد الكاهن وبرقة. اقتطف من ذلك الورد تنضّ عنك فورا جلد البهيمة البغيض منذ أمد عندي. لا ترهب وتستصعب شيئا ممّا يوحى لك، ففي هذه اللحظة بالذات بينما أحضر هنا حيالك، أصدر تعليماتي إلى كاهني في منامه بما يجب فعله بعد ذلك. بأمرى سينفلق محفل الجماهير المتراصة أمامك، وفي غمرة العيد البهيج والمشاهد الاحتفالية، لن يشمئز أحد من خلقتك المستعارة الرّزية، أو يثير حَوْل صورتك فجأةً لديه سوء تأويل وشبهة، تذكّر جيّدا واحفظ دوما في أعماق الضمير أنّ ما تبقى من حياتك ملك لي حتّى الرّمق الأخير؛ فلا حيف في أن تدين بما تبقى لك من العمر لمن بفضلها ستعود بين البشر. ثمّ إنك ستعيش سعيدا، ستعيش في حماي مجيدا، حتّى إذا ما وصلت بعمرِكَ إلى الأجل، فنزلت إلى العالم الأسفل. هناك أيضا، في ذلك القبو نصف الكرويّ، ستلقاني ساطعة بين دياجير الأخيرون\*، بأسطة ملكي على غياهب إستكس\*؛ هناك أيضا، في مقامك برياض الأليزيوم\* الرّضية، ستثابر على عبادة ربّتك البرّة الحفيّة، وإن أنت بالطاعة المتناهية والعبادة المتفانية والتّقاوة المتمادية صرت أهلا لرضواني، فاعلم أنّي وحدي بإمكانني أن أمدد أيضا عمرك إلى ما بعد الأجل المقدّر لك."

11-7 يوم العيد

بعدما نطقت تلك الإلهة الجبّارة بجليل وحيها حتّى المنتهى اضمحلت منحسرة في ذاتها؛ فنفضت النّوم عني فورا ونهضت أطفح رهبة وسرورا ثمّ عرفا غزيرا، منخطفًا بتجلّي الحضرة الإلهية لي مبهورا؛ اغتسلت بماء البحر، وأخذت أستعيد تعليماتها مركّزا فكري، وحالما أجلي ظلام الليل البهيم وبزغت الشّمس ذهبيّة، إذا بالجموع يملؤون السّاحات من كلّ صوب مسرعين، في جوّ مهرجان بل احتفال بنصر مبین. كان يبدو لي أنّ كلّ شيء يستطير من فرط السّرور، بسبب فرحتي الخاصّة وحبوري، حتّى لأحسّ البهائم من كلّ نوع والمنازل بل والنّهار، كلّها تطفح بهجة واستبشارا. فقد تلا صقيع البارحة (1) على غير المتوقع نهار صحو دافئ؛ وانطلقت العصافير تصدح أعذب الأغان. محتفية بدفء الرّبيع الحاني، ملاطفة بشدوها الرّقيق أمّ الكواكب أصل الأزمان وسيّدة الأكوان. وكذلك الأشجار، مثمرها المؤتي كلّ حين أكله، وعقيمها المعطي فقط ظلّه، كلّها بدت منتعشة بنسمات السّلامى الرّيقة، مشرقة بأكمام أوراقها المتفتّحة، مهفهفة في حفيف رقيق لتأودات أغصانها المترقّقة؛ وخفتت دمدمة العواصف الثّائرة، وهدأت عريدة اللّجج الفائرة، وراح البحر يرسل موجه في أنسياب لطيف، وتبدّد ما في السّماء من ضباب كثيف فأشرققت بسنا صاف شفيف (2).

(1) صقيع البارحة: pruinam pridianam جناس ناقص.

(2) صاف شفيف: (nudo sudo)que جناس مضارع.

11-8 لوحات تنكريّة في مقدّمة موكب إيزيس

تقدّمت موكبَ المهرجان قليلاً طلائع أزيّنت كلّ حسب اجتهاده وعلى هواه. هذا تقلّد جادا يؤدّي دور الجنديّ. وذاك التحف دثاراً قصيراً وبدا بنعله وحرابه بمظهر الصّيّاد، ولبس آخر حذاء مذهّباً وإزاراً من الحرير وحليّاً نفيسة ووضع شعراً مستعاراً وسار في ارتخاء يحاكي امرأة. وبرز آخر في طماق ودرع وخوذة حتّى لتظنّه خارجاً من مباراة مصارعة، ولم تخل التشكيلة من يقدّ القاضي بإبالة فؤوسه وطيلسانه الأرجوانيّ، أو الفيلسوف بردائه الطويل وعصاه ولحيته الشبيهة بعنقون التّيس، أو آخرين يمثّلان بقضبان من الخوص أحدهما قنّاص الطّير مع الدّبّق والآخر صيّد السمك مع الشّصوص. رأيت كذلك دبة أليفة محمولة على محفة في زيّ سيّدة، وقرداً بطرطور مزروود وتثورة زعفرانيّة من الطّراز الفريجيّ\*، في هيئة التّراعي الكتميتيّ\*، يحمل كوباً ذهبيّاً، وحماراً ألصق له جناحان يمشي بجانب شيخ متداع، تحسب من دون شكّ أحدهما بليروفون\* والآخر بيغاسس\* فتنفجر ضحكا على كليهما(1).

11-9 موكب إيزيس

وسط هذه العروض المسلّية المعدّة لتفريغ العامّة والمنتشرة هنا وهناك، بدأ الموكب المحصّص للإلهة واهبة الخلاص يتحرّك. في مقدّمتها سارت نساء متألّقات في ثياب بيضاء، مشرققات في

(1) العرض التّهريجّيّ في مقدّمة موكب إيزيس: بمثابة تذكير بشخصيّات ورد ذكرها في النّصّ، أي، إن قبلنا التّأويل الفلسفيّ لرواية أبوليوس كنظرة أفلاطونيّة، بعالم الظواهر الذي هو ظل من عالم الحقيقة.

شنتى عدد الرّينة، مكلّلات بتيجان زاهية من أزهار الرّبيع، هؤلاء يفرشن الأرض بنشار الرّهور يسحبونها من حجورهنّ وينثرنها على طريق الموكب وأولئك يدرن للإلهة الآتية مرايا ثبّتت على ظهورهنّ تكشف أمامها تيار العبّاد المشيّعين. والبعض حملن أمشاطاً من العاج يتظاهرن، بحركة أيديهنّ وثني أصابعهنّ بتصنيف شعر الملكة وتزيينه، وأخريات يرششن السّاحات بقطر من طيب الحفلات وشنتى العطور، ويتلوهنّ جمع غفير من كلا الجنسين، يحملون مصابيح ومشاغل وشموعاً وغير ذلك من الأضواء الصّناعيّة زلفى لمصدر الأجم السّماويّة. وخلفهم الشّبابات والمزامير تشدو بمعسول النّشيد في انسجام، تتبعها فرقة غنائيّة تسرّ الناظرين من صفوة الشّبان، متألّئين في ثياب حفلات بيضاء كالثلج، مردّدين شعراً عذبا نظمه بإلهام ربّات القريض\* شاعر مفلق، معيدين القطعة تمهيدا لأدعية الإنشاد الختاميّ، يسير في الموكب أيضاً زمارون من خدام سرابيس\* العظيم، ميلين شباباتهم بأجّاه أذانهم اليمنى مقدّمين المعزوفة المألوفة للإله في معبده(1)، وعدّة سدنة يهتفون طالبين إفساح السّبيل أمام الموكب الجليل.

11-10 بقيّة الموكب

ثمّ يأتي جمع المطلّعين على الأسرار اللدنيّة رجالاً ونساء من كلّ فئة وسنّ يتألّؤون في ثياب من كتّان نقيّة البياض، وقد لفت النساء شعرهنّ المضمّخ بالعطور بوشاح شفاف، ولعت (1) الإله في معبده: templi dei que حرفياً: الإله ومعبده، فصل لتصلين مع عطفهما hendiadys.



رؤوس الرجال الحليقة إلى الفذال: كواكب الدين العظيم على الأرض. يحدثون رينا جهيرا بصنوج من النحاس والفضة وحتي الذهب (1). ومشي خلفهم كبار الأخبار حفظه الأسرار، ملتفتين بصدار من كتان فالق البياض شد حول قامتهم نازلا إلى القدمين. حاملين شارات الإلهين الأعظمين (2). بمشي أولهم مادًا مصباحا يشع وضاحا بنور ساطع السننا. غير القناديل التي تضيء مساء عشاءنا. بل سفينة ذهبية تبعث من فتحة وسطها شعلة قوية. وييدي الثاني المشابه للأول في ثيابه منضدة المعونات المشتقة من عناية الرببة المعوان تسميتها الخاصة المطابقة؛ ويسير الثالث رافعا سعفة فصلت أوراقها من ذهب تفصيلا رائعا ومزراق مركوريوس\* معا. ويعرض الرابع رمز العدالة. يدا يسرى صوّرت براحة مفتوحة، وهي تبدو بلا مندوحة، لأنها جُبلت على العطالة، وضعف الحيلة وقلة الشطارة، أولى من اليمنى بتمثيل العدالة. ويحمل كذلك كوبا من الذهب كالثدي في استدارته، يسكب نخبا من الحليب من حلمته؛ والخامس يحمل سلّة ذهبية مليئة بغصينات من الذهب، والسادس جرّة.

### 11-11 صورة إيزيس

بعدهم مباشرة، تقدّم الآلهة متكّرمين بالمشي على أقدام بشرية: هذا أنوبيس\* الوسيط الخيف بين العالم العلويّ والعالم

(1) من النحاس/من الذهب: aereis/aureis جناس مختلف، ورد مثله في 9-19

(2) لآفات شعورهنّ، حليقي الشعر، ملتفتين بصدار: crines obvuolutae, capillum derasi, cinctum injecti استخدام شاذّ لحالة التصب accusativus للتعبير عن الوسيلة مكان الجرّ ablativus.

السفليّ، مهيبا بوجهه المراوح بين اللون الأسود والذهبيّ. رافعا هامته القعساء بشكلها الكليّ، حاملا مزراقا بيسراه، وهارًا سعفة مخضوضرة بيميناه. تتبع خطاه بقرة منتصبّة تمثّل الإلهة أمّ كلّ الأشياء، يحملها مثبتة على كتفيه ويمشي بهمة أحد خدامها السعداء؛ ويحمل آخر سلّة تحتوي على الأسرار الكريمة، ضامة في جوفها خفايا الديانة العظيمة. ويحمل آخر في حضنه السعيد صورة جليلة للإلهة العظيمة، ليست على شبه داجن الحيوان ولا الطير ولا الوحش ولا حتّى الإنسان، يثير الإجلال بطرافته النابعة من فكرته البارعة، شعاعا جلّ أن يُسمى لدين يجب حفظه بالكتمان، وقد شكّل من ذهب ساطع اللّمعان، في صورة وعاء صغير، مجوّف بمهارة وذو قعر مستدير، زوّق في الخارج بصور رائعة من أنماط مصرية شائعة، مع نتوء في فوهتها المرتفعة قليلا عن قاعدتها والممدودة بقناة في شكل مسقاة، وتبّتت بالجهة الأخرى عروة واسعة المنحنى، يلتف صلّ حولها ويطلّ من فوقها رافعا عنقه المنتفشة المحزّزة من فرط انتفاخها والمحرشفة.

### 11-12 إلى الورد فالورد حلو جميل...

ها هي الآن قد وصلتني أنعم الرببة المفضال التي وعدتني، ودنا أكبر الأخبار حاملا مفتاح خلاصي وأقداري، في نفس العدة المذكورة في وعد الرببة، ممسكا بيده اليمنى صنعها وإكليلا لي أنا، إكليلا طبعًا لي يمكنني، بعد معاناتي كلّ تلك الحن، وبعنايات إلهتي المعظمة، أن أتغلب على فسوة الحظّ الغاشمة، فما دفعني فرحي المفاجئ إلى إقبال الطائش الأرعن، مخافة أن

يشوّش نظامَ الموكبِ الدّينيّ اندفاع دابّة بنحو فجائيّ، وبتهيبّ وخطو متأنّ بل إنسانيّ. وإلهام لا شكّ ربّانيّ، تسلّلت على رسلي والشّعب ينفصّ من حولي.

### 11-13 التّحوّل

فما كان من الكاهن المطّلع. كما علمت من الوقائع. على وحي اللّيلة السّابقة. والمبهور بالمطابقة مع المهمة التي بعهدته إلّا أن توقّف للحظته. ومدّ يده تلقائيّاً فعرض الإكليل أمام فمي سويّاً. أمسكت إذّاك مرتعشنا. وقد تسارع خفقان قلبي المعمود. الإكليل المتألّق المضمفور من جنّي الورود. والتهمته بنهم وملء قلبي شوق إلى الخلاص الموعود. فما كذب وعد السّماء الصّريح: زال فوراً عنّي الشّكل البهيميّ القبيح: انقشع أوّلاً ذلك الوبر الوضر. ثمّ نغم الجلد الخشن. وضمر البطن الرّيبيل. ونضت كفوف أطرافها الحوافر لتنبت أظافر. ولم يبق طرفاي الأماميّان رجلين. بل امتدّا في وضع قائم ليقوما بوظائف اليدين. وتقلّص العنق الطّويل. واستدار الرّأس والوجه المستطيل. وعادت الأذنان العملافتان إلى ضالّتهما الأصليّة. وعادت الأسنان الشّبيهة بالجنادل الصّخرية إلى دقّة المقاسات البشريّة، وما كان يعدّني بالأخصّ من قبل. ذلك الدّيل. تلاشى فلا ذيل. شدّه عامّة النّاس. وخشع المطلعون على الأسرار أمام ظهور قدرة إلهتهم العظيمة بمثل ذلك التّجلي. وهذه المعجزة الشّبيهة برؤى اللّيل. ويسر هذا التّحوّل الذي تمّ أمامهم. وانطلقوا بصوت جهير كلّهم. وقد مدّوا إلى السّماء أيديهم. يشهدون على تلك الآية المبيّنة على إحسان الرّبّة المعينة(1).

### 11-14 لوقيوس يستر جسمه

أمّا أنا فتسمّرت مكاني من فرط ذهولي معقود اللّسان. ومهجتي لا تسع مثل تلك الفرحة المفاجئة العارمة. متسائلاً: ما الأفضل أن أقول أوّلاً. وماذا أفتتح بعد استعادتي نطقي حديث الولادة. بأيّ حديث أستهلّ تيمّناً بحلّ عقلة لساني. وبأية ألفاظ على قدر كاف من البيان. أحمد إلهتي العظيمة على ذلك الإحسان. لكنّ الكاهن الذي علم بوحى إلهيّ بكلّ مصائبى منذ البداية. ورغم ذهوله هو نفسه من إعجاز تلك الآية. أمر بإيلاء من الرّأس أن يقدّم لي ثوب من الكتّان أستربه نفسي: × فبعدما جرّدتني الحمار من غلافي التّحس. ضغطت بشدّة فخذني. وخصفت عليهما جيّدا بيديّ. متّخذاً ذلك السّربال الطّبيعيّ للاستتار قدر ما يمكن لشخص عار. إذّاك بادر أحد الكهنة إلى نزع عباءته البرّانيّة وتغطيتي بأقصى السّرعة: بعد ذلك قال لي الحبر الأعظم وهو مبهور ويحدّق فيّ مليّاً. ووجهه يشعّ بهجة وسنا ربّانيّاً:

### 11-15 خطاب الحبر الأعظم

"بعد الذي عانيت من عديد وشتّى الأنواء. وعواصف الدّهر الهوجاء. وأعاصير الحدّثان العاتية. ها أنت يا لوقيوس وصلت

(1) الموكب الدّينيّ: لاحظ الشّبه مثلاً ورغم اختلاف المضمون الدّينيّ مع "خرجة" سيّدي أبي سعيد في تونس صيفاً. إذ تنطلق من "زاويته" نحو مكان قريب سكن به الوليّ الصّالح. في مقدّمتها "الشيخ" يتبعه "الباشعلاّم" ثمّ "الباشعسقاء" على حصان. ثمّ سقّاؤون وعلّامون. ثمّ حامل المبخرة وضاربو الدّفوف وطبّال وزمّارون ومدّاحون ينشدون أذكّاراً تمجّده ثمّ يعود الموكب إلى ضريحه.

11-16 حفل تدشين موسم الإبحار

كذا خاطبني الكاهن الجليل بإلهام الإلهة، ساحبا بشيء من المشقة أنفاسه اللاهنة ثم سكت. ومن ثم اختلطت بطابور العبدة ومشيت في غمار المسيرة المباركة، وقد بتت معروفا للمدينة بأكملها، وقبله الأنظار كلها، ووجهة كل إشارة وكل بنان، وقصتي تروى على كل لسان. "هذا الذي اليوم ردت اليوم عناية الإلهة القديرة العلية إلى صفته البشرية. فنعمًا له وبيا سعده، بل يا سعدي (1)، هذا الذي استحق لا شك بنقاوة وأمانة حياته السابقة من السماء مثل هذه الولاية السامية، حتى يجتبي وهو يحيى بنحو ما بلطف رحمته لشرف خدمتها." وسط هذه التعليقات وغوغاء المحادثات الفرحى والدعوات، تقدمنا الهوينى حتى اقتربنا من شاطئ البحر ووصلنا إلى عين المكان حيث أوى الحمار الذي كنت أمس. بعدما وضعت هناك تماثيل الآلهة حسب الشعائر، عمد الحبر الأعظم إلى سفينة بديعة الصنع زينت على كامل محيطها بالرسوم المصرية الباهرة، فتلا عليها صلوات من شفته الطاهرة، ونقاها من كل رجس بمشعل متقد وبيضة وكبريت أتم التنقية، ثم أهل بها ونذرها للإلهة. كان شرع المركب السعيد المتألق سنا يحمل بارزة حروفا من الذهب مطرزة، ترفع دعاء بإبحار سعيد في الموسم الجديد. ها قد انتصبت الصارية المكونة من جذع صنوبر مستدير، زاوية وعالية، تسرر الأنظار بمصطبتها الكبيرة، وتألّق كوئنها المعقوف على شكل البطة والملبس بصفائح الذهب، ورونق

(1) سعدي: في النص اللاتيني يا سعده ثلاثا.

أخيرا إلى حرم الرحمة ومرفأ السلامة؛ ما نفعتك قط أرومتك ولا منزلتك، ولا حتى معرفتك التي هي حليتك وزينتك، بل انزلت إلى شهوات شبابك الغرير ووقعت في أسرها المرير. وبؤت بالعقاب الوخيم على فضولك المشؤوم (1). لكن الحظ الأعمى الذي ألقاك طويلا في أسوأ أهوال وأنكال، قالك عبر مكره العشوائي إلى هذه السعادة القدسية على أية حال؛ فليرح الآن وليطلق العنان لخبطة العقور، وليبحث عن سواك هدفا لبطشه المسعور؛ فلا منال لضربات الأقدار وقسوتها في من طلب جلال إلهتنا حياتهم لخدمتها، ما استفادت ربة الحظ مما عانيت من قسوتها الوحشية، من اللصوص والوحوش والعبودية، وذرع الثنايا المحسبة وخشية الموت اليومية؟ ها قد ألت الآن إلى عهدة ربة حظ غيرها، بصيرة وتضيء حتى الآلهة الآخرين بنورها، فلتضع الآن على وجهك صفاء يوافق بياض ثوبك، ولترافق بخطوة جذلى موكب ربتك المعينة الفضلى؛ وليرك الكفرة، ليروك وليعترفوا بخطئهم؛ هوذا أمام أعينهم لوقيوس مخلصا من سالف كُربه، مغتبطا بعناية إيزيس\* به، منتصرا على حظّه، لكن لتحظى بمزيد من الأمان والحماية انضم إلى رهبانيتنا السّمحاء التي أمرت بإعطائها عهدك منذ عهد قريب وكترس نفسك منذ الآن للخضوع لتعليمات ديانتنا، واحن رقبتك لنير الخدمة الطوعية؛ فحين تبدأ في خدمة إلهتنا، ستندوّق أكثر نعمة الحرّية."

(1) خطاب الحبر الأعظم للوقيوس: يفهمنا لماذا كان فضول لوقيوس كبسيشسية قبله غير سليم فالأصل بعالم الآلهة لا يكون بالانهماك في شهوات الحس وخزعبلات الشجر بل بالمعرفة والحب بمعناه الأفلاطوني ( فينوس بنديموس لا أورالية كما جاء في مأدبة أفلاطون وكما يشير أبوليوس نفسه في "الرافعة" (12).

غاطسها الصّقيل المصنوع كلّه من خشب السّرو الصّافي. إذآ أخذ الجميع، عبدة وعامة، يتبارون على تكديس قفاف مملوءة بالأفاويه وما شابهها من العطايا، وسكب شربات اللّبن الطّازجة فوق اللّجة إلى أن امتلأت السّفينة بالعطايا التّفيسة والقرايين المباركة وحلّت من مراسيها وسلّمت للبحر فجرت بريح طيّبة، بعدما أخذت صورتها، لبعء المسافة، تضحلّ وتهتزّ أخذ حملة المقدّسات كلّ ما جلب قبل، وعادوا خفافا الخطى إلى المعبد في موكب حافل على نسق مائل.

#### 11-17 في معبد إيزيس

لما وصلنا أمام المعبد دخل الحبر الأعظم وحملة الصّور الإلهيّة، والمطلّعون السّابقون على الأسرار القدسيّة إلى غرفة الإلهة، فرتّبوا فيها وفق الطّقوس التّمائيل التّابضة بالحياة، ثمّ وقف أحدهم، يسمّى أمين الصّحف، على الباب فدعا إلى الانعقاد مجلس حملة التّوابيت ( الباستوفوري\*)- بهذا الاسم يدعى فعلا ذاك الجّمع المقدّس. ثمّ قرأ من على منبر عال من نصوص خطّت في كتاب، داعيا بالخير والبركات بإطّناج للأمير الأعظم ومجلس الشّيوخ وفئة الفرسان وكلّ شعب الرّومان، وللبحارة والسّفائن في البحار الخاضعة لسلطة إمبراطوريّتنا؛ ثمّ أعلن بلغة اليونان ووفق عاداتهم: " بلويا فيسيا". عبّره تاف كلّ الحفل الذي تلا تلك الكلمة عن بشرى الخير واليمن للجميع؛ أخذ النّاس يحملون أكاليل من أغصان الآس المونعة طافحين سعادة، ويقبّلون قدمي الإلهة التي تبتّ تمثالها المصنوع من الفضة على دكة، ثمّ انصرفوا إلى بيوتهم؛ أمّا أنا فما كانت حالتي التّفيسيّة

لتسمح لي بالابتعاد قيد أملة، فلبثت هناك متأمّلا صورة الإلهة متذكّرا مصائب السّابقة.

#### 11-18 وقد يجمع الله الشّئتين بعدما يظنّان كلّ الظّنّ ألاّ تلاقيا

في الأثناء لم توقف الشّهرة الجّنحة طيرانها ولم تن، بل أذاعت بسرعة في كلّ أرجاء وطني خبر النّعمة القمينة بدائم الثّناء لإلهتي اللّطيفة المعطاء، وقصّتي الجديرة بالذكّرمدى الدّهر، فبادر خدمي وصحبي ومن جمّعهم صلّات القرابة بي إلى خلع مظاهر الحداد التي اتّخذوا لما أتاهم خطأ خبر موتي، وأسرعوا من فورهم والفرحة المفاجئة على أساريهم حاملين هدايا شتّى ليشاهدوني عائدا إلى التّور من عالم الموتى. فأنعشني أنا نفسي مرأهم بعد بأسى؛ وقدّرت (1) ممتّنا هداياهم الشّخّيات، إذ اعتنى ذويّ بأقصى الاحتياط بحمل ما يفي بغرض الإنفاق بسخاء على ملبسي وبقية حاجياتي.

#### 11-19 تقاعس عن إجابة داعي الرّهبنة

بعدهما حدّثتهم كلّا باللياقة اللّازمة، وأخبرتهم بسرعة بأتراحي الماضية وأفراحي الحاضرة، عدت إلى مشاهدة الإلهة المحبّبة واستأجرت في فناء<sup>8</sup> المعبد بيتا اتّخذته سكنا مؤقتا؛ مكبّا في تبرّع خاصّ على كلّ الطّقوس المقدّمة للإلهة، ومندمجا في حياة الكهنة المشتركة، معتكفا لعبادة الرّبة

(1) مرأى/قدّرت: (facie/facio)+genitivus جناس مختلف.

(2) مرأى/فناء: conspectum/conseptum جناس مضارع.

المعظمة، فما خلت ليلة ولا غفوة من طيف الإلهة وتنبهاتها. بل أخذت تكرر لي شريف تعليماتها. لحضّي على أن أباشر أخيرا خدمتها التي منذ أمد وُسّمت لها. أمّا أنا، فرغم حرارة رغبتي، كانت تثبطني رهبتي. بعدما استخبرت بعناية عن متطلّبات عبادتها الصعبة، ونذر البتولية الشّديد المشقّة، وضرورة حماية حياة الرّهبنة المعرّضة لعدد الفتن بإحاطتها بالحيطّة الدّائبة؛ ولتفكير المستمرّ في ذلك الأمر، ظلمت، أمّا كيف فلا أدري. أرجئ وأؤجل وإن كنت أتعجل.

#### 11-20 رؤيا صادقة

ذات ليلة، رأيت في المنام كبير الكهنة يقدم لي ملء حجره شيئا، ولما استفسرت عما يكون ولأنيّ شيء يصلح، أجاب بأنّها حصص أرباح أرسلت إليّ من تسّالية\*، وأنّ خادما لي يدعى كنديدوس(1) أتى في نفس الوقت، لما نهضت قلبت الرؤيا في ذهني طويلا لتأويلها، سيما أنّي على حدّ علمي لم أملك أبدا عبدا بهذا الاسم، لكن مهما يكن ما يحمل لي حلمي من نبيّ المستقبل، كنت أرى في إرسال مرابيح فأل كسب محقق في كلّ الأحوال؛ بقيت قلقا ومترقّبا حدثا سائرًا على تلك الحال. أنتظر موعد فتح المعبد في الصّبح، ولما أزيحت السّتر التّاصعة على الجانبين، صلبنا لصورة الإلهة المهيبة، وطفق الكاهن يطوف حول مناضد العطايا المنصوبة، ويتلو صلوات خاشعة تعظيما للرتبة؛ ويسكب ماء مغترّفا من جرن بداخل المعبد، بعد الانتهاء من هذه العبادات وفق الأصول، انطلقت أصوات العباد معلنة طلوع (1) الخدم؛ حول استخدام صيغة الجمع/الثنى عند حديثه عن مرافقيه في الشّفر انظر الملاحظة 2: 15

النّهار ومحيّية مولد النّور، فجأة وصل من هيبانة\* الخدم الذين تركت<sup>8</sup> هناك لما سجرنتني فوتيس بغلظتها التّحسة، بعدما علموا طبعًا بقصّتي، معيدين لي جوادي الذي استردّوه بعد تنقله من يد إلى يد بالتّعرف على سمة بظهره، فبقيت أنعجب من صدق حلمي، ففضلا عن تحقّق وعده بالمغنم(1)، أعيد لي حصاني الأبيض مصداق كنديدوس اسم الخادم.

#### 11-21 في انتظار السّيامة

بعد تلك الحادثة واطّبت بمزيد من الحماس على العبادات، سيما وفي النّعيم الحاضرة عربون خيرآت، وأخذت رغبتي في السّيامة تنمو باطراد يوما بعد يوم ولا تعرف أدنى فتور؛ قصدت مرارا رئيس الكهنة متوسّلا إليه أن يُطلعي أخيرا على أسرار اللّيلة المقدّسة، لكنّ ذلك الرّجل المعروف برزانته ومحافظته على تعاليم الدّيانة الصّارمة ما انفكّ، بحلم وترفق وكما اعتاد الأباء تهديئة رغبات أبنائهم السّابقة لأوانها، يصبرني ويكبح تعجّلي، ويعلّل نفسي القلقمة المتلهّفة بعزاء الرّجاء الطّيب؛ x ذاكرا لي أنّ الإلهة نفسها تعيّن بإشعار منها اليوم الذي يمكن لكلّ مرشّح تلقّي الأسرار فيه، وبعنايتها هي يُختار الكاهن لإمامة طقوس السّيامة، وبتعليمات ماثلة يتمّ كذلك خديد التّفقات الصّوريّة لتلك الحفلة الطّقوسيّة، وأنّ علينا، حسب رأيه، حتمل كلّ ذلك بجميل الصّبر، وعلّي الاحتياط إلى أبعد حدّ من التّلهّف والكِبْر، وجتّب كلا الإثمين فلا أتخلّف متى دُعيت ولا وعده بالمغنم: lucrosae pollicitationis مجاز مرسل: التّرجمة الحرفيّة؛ وعده المريح.

أَتَعَجَّلَ قَبْلَ تَلْقَى الْأَمْرِ. وَأَخِيرًا أَنْ كَهَنُوتِهِ لَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ فَقَدَ رَشْدَهُ أَوْ قَرَّرَ مَوْتَهُ لِيَجْرُوَ بَدُونَ أَنْ تَأْمُرَهُ بِالتَّخْصِصِ إِلَهْتَهُ عَلَى تَعْرِيزِ نَفْسِهِ لِحُطْرِ سِيَامَةٍ فِيهَا تَطَاوَلَ عَلَى الْحَرَمَاتِ. وَانْتِهَاكَ لِلْمَقْدَسَاتِ (1). أَتَبَا بِذَلِكَ خَطْبِيئةٌ مِيئَةٌ؛ فَإِنَّ مَقَالِيدَ الْعَالَمِ السَّفَلِيِّ وَوَكَالَةَ الْخِلَاصِ الْأَبَدِيِّ مَحْفُوظَةٌ بِيَدِ الْإِلَهَةِ. وَإِقَامَةُ طَقْسِ الْعُبُورِ ذَاتِهِ بِمَنَابَةِ مَوْتِ إِرَادِيٍّ وَخِلَاصِ مَنْوُوحٍ بِنِعْمَتِهَا. وَبِنَهَايَةِ الْأَعْمَارِ الْمَقْدَّرَةِ تَسْتَخْلَصُ مَشِيئَةُ الرَّبِّةِ مِنْ بَيْنِ الْمُنِيخِينَ عَلَى الْبَرِزْخِ حَيْثُ يَنْتَهِي عَالَمُ النَّوْرِ مِنْ أَمْكَنِ اسْتِنْمَانِهِمْ عَلَى أَسْرَارِ الدِّينِ الْجَلِيلَةِ. فَتَعِيدُ عِنَايَتَهَا إِحْيَاءَهُمْ بِنَحْوِ مَا وَتَضَعُهُمْ عَلَى مَسَارِ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ. يَجِبُ إِذَنْ أَنْ أَمْتَلُ لِلْأَمْرِ الْعَلَوِيِّ، وَإِنْ تَكُنْ مَشِيئَةُ الْإِلَهَةِ الْعَظِيمَةِ خَصَّتْنِي مِنْذُ أَمَدٍ بِالشَّرْفِ الْجَلِيِّ الْمَتَمَثِّلِ فِي تَعْيِينِي وَنَذْرِي لِنَعِيمِ خِدْمَتِهَا. وَأَنَّ عَلِيَّ الْإِمْتِنَاعِ مِنْذُ الْيَوْمِ كِبَاقِي عِبَادَتِهَا عَنِ الْأَطْعَمَةِ الرَّجْسَةِ الْحَرَمَةِ فَأَلْجُ بِبَيْسَرٍ إِلَى أَسْرَارِ دِيَانَتِهَا السَّمْحَاءِ.

### 11-22 الإذن بالسيامة

بَعْدَمَا قَالَ لِي الْكَاهِنُ ذَلِكَ لَمْ يَعُدِ التَّلَهُّفُ يَفْسُدُ طَاعَتِي. بَلْ وَاطْبَتُ أَيَّامًا عَلَى حُضُورِ شُعَائِرِ الْعِبَادَةِ الْمُنْتَظِمَةِ بِمَنْتَهَى التَّفَانِي وَالذَّعَّةِ وَالصَّفَاءِ وَامْتِنَاعِ عَنِ تَذْكِيرِهِ جَدِيرٍ بِالثَّنَاءِ. فَمَا خَذَلْتَنِي رَحْمَةً رَبَّتِي الْقَدِيرَةَ. وَمَا عَذَّبْتَنِي بِطُولِ الْإِنْظَارِ. بَلْ مَا عَتَمْتُ أَنْ أَخْطَرْتَنِي ذَاتَ لَيْلَةٍ بِهَيْمَةٍ بِتَعْلِيمَاتٍ غَيْرِ مَبْهَمَةٍ بِمَقْدَمِ الْيَوْمِ الْمَبْتَعَى. × الَّذِي تَمَّ فِيهِ عَلَيَّ بِكِبَرِي الْمُنَى. وَبِالْمَبْلُغِ الْمَتَرْتَّبِ عَلَيَّ لِنَسْدِيدِ نَفَقَاتِ الْحَفْلَةِ. وَبِتَعْيِينِ كَبِيرِ كَهَنَتِهَا مَثْرًا<sup>١</sup> (1) فَقَدَ رَشْدَهُ أَوْ قَرَّرَ مَوْتَهُ: perditatae mentis/destinatae mortis ترصيع.

بِالذَّاتِ لِلإِشْرَافِ عَلَى طَقُوسِ سِيَامَتِي. لِتَوَافُقِ بَرَجِينَا بِتَدْبِيرِ إِلَهِيٍّ حَسْبَمَا ذَكَرْتُ. أُنْعَشْتُ مَهْجَتِي أَقْوَالُ إِلَهْتِي هَذِهِ وَبِقِيَّةِ وَصَايَاهَا الْفِيَاضَةِ بِالْوُدَادَةِ؛ وَقِيلَ أَنْ يَلُوحَ الصَّبَاحُ الْوَضَاحُ (1). نَفَضْتُ النَّوْمَ عَنِّي وَهَرَعْتُ إِلَى صَوْمَعَةٍ كَبِيرِ الْكَهْنَةِ. فَلَقِيَتَهُ خَرَجَ لِلْحِظْتِهِ مِنْ غُرْفَتِهِ. فَبَادَرْتُ بِتَحْيِيَّتِهِ. كُنْتُ قَدْ قَرَّرْتُ. بِحَزْمٍ أَكْثَرَ (2) مَّا مَضَى. أَنْ أَطَالِبَهُ بِطَقْسِ الْمَسَارَّةِ. بِاعْتِبَارِهِ الْآنَ حَقًّا لِي؛ لَكِنَّهُ بَادَرَنِي حَالِمًا لِحُنِي: "إِيهِ لَوْقِيُوسِ. طَوْبِي لَكَ وَيَا سَعْدَكَ. أَنْتَ الَّذِي كَرَّمْتَكِ الْإِلَهَةَ الْعَظِيمَةَ بِمَرْضَاتِهَا." وَاسْتَأْنَفُ: "لِمَ تَقِفُ الْآنَ عَاطِلًا مَثَاقِلًا؟ هَا قَدْ حَلَّ الْيَوْمَ الَّذِي مَا فَتِنْتُ تَمْتِنَاهُ. يَوْمٌ تُدْخَلُ وَفَقِ الْأَوَامِرِ الْمُوَحَّاةِ مِنْ رَبَّتِنَا ذَاتِ الْأَسْمَاءِ الْمَتَعَدَّةِ وَبِيَدِيَّ هَاتَيْنِ إِلَى أَقْدَسِ الْأَسْرَارِ الْإِلَهِيَّةِ." وَمَدَّ الشَّيْخُ يَدَهُ بَوَدِّ فَقَادِنِي فِي الْحَالِ إِلَى بَابِ الْمَعْبَدِ الْكَبِيرِ وَأَقَامَ بِفَائِقِ الْجَلَالِ وَوَفَقِ الْأَصُولِ طَقْسَ الْفَتْحِ وَقَدَّمَ نُسُكَ الصَّبْحِ. ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ مَخْبِئٍ بِالْمَعْبَدِ أَسْفَارًا خُطَّتْ فِيهَا طِلَاسِمٌ مَسْتَغْلَقَةٌ. بِبَعْضِهَا صُورُ حَيَوَانَاتٍ شَتَّى مَحَشَّاةٍ بِعِبَارَاتٍ مَقْتَضِبَةٍ. وَأُخْرَى لِفَائِقِ ذَاتِ عُقْدٍ. مَعْقُوفَةٌ عَلَى شَكْلِ الدُّوَلَابِ وَمَلُولِبَةٍ كَالْعَنْمِ. حُصِّنَتْ قِرَاءَتُهَا عَلَى غَيْرِ الْعَارِفِينَ. وَمَنْ نَفَسَ الْمَصَادِرَ أَعْلَمَنِي بِمَا يَلْزَمُ إِعْدَادَهُ لَغَرَضِ طَقْسِ السِّيَامَةِ.

### 11-23 طقوس المسارّة

افْتَنَيْتُ فُورًا تِلْكَ الْمَسْتَلْزِمَاتِ مَعَ الْإِسْتِيْفَاءِ. وَعَظِيمِ السَّخَاءِ. بِنَفْسِي أَوْ بِوَأَسْطَةِ زَمَلَائِي؛ وَلَمَّا أَنْ أَوَانَ الْإِحْتِفَالِ. كَمَا ذَكَرْتُ كَبِيرِ (1) الصَّبَاحِ الْوَضَاحِ: luce lucida جناس مطلق. (2) لَقِيْتُ/بِحَزْمٍ أَكْثَرَ: continatus/constantius جناس مضارع.

الكهنة. فادني إلى المغطس القريب، محفوفا بجمع من العباد؛ فسلمني أولا إلى المغسل العاديّ مستخيرا لي الآلهة، ثم طاف حواليّ ينضح مزارات ماء التعميد عليّ. ثم أعادني إلى المعبد. وقد انقضى من النهار قسمان، أبقاني أمام قدمي الرّبة، وأسرّ لي بتعليمات ارتفعت روعتها عن تناول الكلم، ثمّ أوعز لي جهارا، بشهادة الجميع، بالامتناع عن ملاذّ الطّعام وأكل أية موادّ حيوانيّة وشرب الخمر مع الطّعام عشرة أيام تباعا. بعد أداء تلك الفرائض حسب الأصول بالنزاهة واحترام، جاء اليوم الموعود للموعود الرّبانى، والشّمس مالت للمغرب حاملّة في ركابها المساء. فإذا بجموع يأتون من كلّ صوب لتكرمي بالهدايا وفق طقوس السّيامة العتيقة؛ ثمّ أزاح الكاهن عني العوامّ، وغطاني بثوب من كتان غير مصبوغ ثمّ أمسك بيدي وقادني إلى قدس الأقداس. قد تسأل، أيّها القارئ النّبيه، بشيء من اللّهفة، عمّا قيل وصنّع بعد ذلك، وسأقول له لو كان يُسمح بقوله، وستعلمه لو كان يُسمح بسماعه. غير أنّ أذنيك ولساني سترتكب إذاك نفس الدّنب. هذا إفشاء السرّ الكفور، وتانك الفضول الأثيم؛ لكن ربّما كانت تشوّقك رغبة ورعة، فلن أعذبك بإطالة حيرتك؛ اسمع إذن وصدّق لأنّ ما أقول عين الحقيقة. بلغت برزخ الموت ووطئت عتبة بروسرينة\* ثمّ عدت محمولا عبر كلّ العناصر، ورأيت في عزّ الليل الشّمس تسطع بنورها الشّعشعانيّ، ومثلت أمام آلهة العالم السّفليّ والآلهة الأعلىين وجها لوجه، وقدمت لهم عن كئيب عبادتي؛ هأنذا أخبرتك بأشياء لا بدّ. مع أنّك سمعتها، أن تجهلها؛ وإني مخبرك فقط بما يمكن التصريح به

لأفهام غير العارفين دون ارتكاب إثم عظيم.

### 11-24 في رحاب إيزيس

حلّ الصّباح، وبعد قضاء المناسك، تقدّمت للسّيامة وعليّ اثنا عشر طيلسانا، وهذا الرّبي لا شكّ ذو دلالة تتصل بأسرار الدّين، لكن لا قيد بمنعني من الحديث عمّا رآه إذاك كثير من الحاضرين. أمرني الكاهن بالجلوس على منبر خشبيّ أقيم وسط المعبد أمام تمثال الرّبة، وعليّ ثوب من كتان محبوبور برائع الألوان، ومن كتفي يتدلّى دثار فخم على ظهري حتّى الكعبين. وأنا مزخرف في كلّ مكان بصور حيوانات متعدّدة الألوان: هنا تنينات الهند، وهناك عنقاوات أصقاع الشّمال النّائية، تلك الوحوش الغربية المجنّحة المتحدّرة من عالم آخر؛ والمسيمون يدعون هذا الدّثار بالحلّة الأوليّة. كنت أحمل باليد اليمنى مشعلا متقدّا، وكلّل رأسي بعصابة رائعة من سعفة ناصعة تمتدّ أوراقها إلى الأمام على شكل أشعّة؛ بعد ما زوّفوني في زيّ الشّمس على هذا المثال، وأوقفوني منتصبا في هيئة التّمثال، أزيحت الستائر فجأة، وانتشر النّاس من حولي لبشاهدوني؛ ثمّ احتفلت بتلقّي الأسرار الرّبانيّة هذا المولد الأسعد، وأقيمت مأدبة بهيجة حفلت بما لذّ وطاب، في اليوم الثالث أيضا، أقيمت شعائر ماثلة، وفطور طقسى، واستكملت سيامتي حسب الأصول؛ بعد ذلك، بقيت هناك بضعة أيّام أنعم بلذّة لا تضاهى وأنا أتأمّل تمثال الإلهة، مشدودا إليها برباط جميلها الذي لا يقدر بمال، أخيرا وبإيعازها، وبعدما أدّيت لها، بنحو لا يفى قطعاً بالغاية، لكنّه أتى على قدر طاقتي، أخذت أعدّ للإياب إلى بيتي بعد طول الغياب، فاكّا

بأشدّ المشقة عروة المحبة المتوثقة؛ فسجدت أمام صورتها جثيًا  
ومسّحت بوجهي قدميها مليًا، وانفجرت عبراتي، ثم دعوتها  
بصوت مختنق مقطّع بشهقاتي:

### 11-25 وداع الإلهة المعينة

"إلهتي المقدسة، يا راعية النوع الإنساني مدى الدهر،  
ومسبغة أنعمك على البشر للأمر جراحهم، ومانحة أمومة  
قلبك الرؤوم للبائسين في أتراحهم، لا يمرّ نهار ولا منام (1) ولا  
أصغر أن خلو من نعمك، ودون أن تقدّمي للناس في البرّ والبحر  
حمايتك، فتطردي أعاصير الحياة وتمدّي إليهم يدك المساعدة  
التي بها تسلكين خيوط الأقدار المتشابكة وتهدئين عواصف  
الدهر المحتمة وتخضعين مجاري الأفلاك النحسة. أنت يا من  
يعظّمك آلهة العالم العلويّ، ويجلّك آلهة العالم السفليّ،  
ومن حرّكين الأفلاك على مدارها، وتمدّين الشمس بضياؤها،  
ويخضع هذا العالم لحكمك، والترتار\* موطئ قدمك، والنجوم  
لك تستجيب، والأزمان إليك تؤوب، وبيتهج الآلهة بك، وتخضع  
العناصر لك، بأمرك تهبّ الرياح وتثقل المعصرات، وتنبت البذور  
وينمو النبات؛ ومن مهابتك تقشعرّ الطيور الحلقا في السماء،  
والوحوش الهائمات في الجبال، والزواحف المحتفبات تحت التراب،  
والوحوش السابحات في البحار، لكتي لحمد أفضالك ضعيف  
الحجى، ولتقديم القرابين لك قليل الغنى، وتعوزني لبيان ما  
أحسّ به إزاء جلالك فصاحة اللسان، بل يقصر عنه ألف فم  
وألف لسان أو مديح مسترسل إلى آخر الزمان. لذا سأحرص  
(1) لا نهار ولا منام: nec dies nec quies جناس مضارع.

على فعل ما بوسع عبد صادق التقوى، لكتّه معدم من ناحية  
أخرى: سأحفظ قسماتك البهية وجلالتك الإلهية في خفايا  
صدري وأتمثلها مدى عمري." بعدما دعوت الإلهة العظمى بهذا  
الشكل، عانقت مئرا كبير الكهنة الذي غدا أبا لي، واعتذرت له  
وأنا أطوّق رقبته، وأغمره بفيض من القبل، معذرا عن عجزتي عن  
ردّ كفاء تلك الجمائل.

### 11-26 في معبد إيزيس برومية

ثمّ بعدما تلبّثت طويلا أثنى على أفضاله شكرا جزيلًا، غادرته  
أخيرا عازما على الإياب رأسا إلى بيت آبائي بعد طول الغياب؛  
وبعد أيام قليلة، وبوحي من الإلهة القديرة حزمت أمتعتي  
بعجلة، وقصدت رومية على متن سفينة، فوصلت بفضل ربح  
طيبة إلى ميناء أغسطس\* بسرعة معجبة، ومنه انطلقت  
سريعا على عربة، فوصلت المدينة المقدسة مساء عشية  
التصاف (1) من كانون الأوّل، من ثمة، كانت أولى أولوياتي أن  
أقدّم يوميًا صلاتي لجلال الإلهة الملكة إيزيس\* المعبودة هنا تحت  
اسم إلهة الحقل المستمدّ من موقع معبدها (2)؛ وكنت لها  
عابدا دؤوبا، فلئن كنت في معبدها غريبا، فقد بات دينها لي  
وطنا حبيبا، وها أنّ الشمس العظيمة أنهت، متنقلة على مدار  
البروج، حولا بالتّمام، وإذا بي أتلقّى مجدّدا في المنام من إلهتي

(1) التصاف: يؤرّخ الرومان بعرة الشهر kalendae أو نصافه idus أيهما  
أقرب؛ ويستخدمون كذلك Nonae وهي اليوم الخامس أو السابع من الشهر،  
والعيدوس يوافق 15 أو 13 من الشهر، وهو اليوم الذي تدفع فيه الذبون، والتاريخ  
هنا هو 12 ديسمبر.

(2) إلهة الحقل: نسبة إلى حفل مارس برومية.



بقظة العناية دائمة الإنعام، إخطارا عن مسارة جديدة وطقوس سيامة مزيدة؛ فلبثت أتساءل محتارا عن مرادها وغايتها، ولا غرو فقد كنت أحسبني أطلعت تماما منذ أمد على أسرار ديانتها.

### 11-27 إيزيس تطلب منه سيامة جديدة

لبثتُ أعرض مشكلتي الإيمانية على عقلي تارة وأستشير العارفين بالأسرار تارة حتى اكتشفت حقيقة جديدة أكثر إثارة. هي أنني تشربت فقط من أسرار الإلهة العظمى، ولم أتلق بعد نور الإله الأسمى، أوزيريس\* الجبار أب الآلهة الأعلى، ورغم التقارب، بل وحدة الجوهر بين هاتين القوتين الإلهيتين ودينيهما، ثمّة فرق كبير في أسرار كليهما؛ لذا عليّ أن أفهم أنني مطلوب لأخدم كذلك الإله الأعظم، ولم تبق المسألة طويلا بذلك الإبهام، إذ ما لبثت أن رأيت في المنام، في الليلة التالية، واحدا من الكهان يحمل ثيابا من الكتان، وبيده عدد من المزاريق، وعساليح من العليق، وأشياء أخرى لا يجب أن أذكر لها خبرا، فبأخذها إلى بيتي ويجلس على أريكتي ثم يأمر بإعداد وليمة للاحتفال بالديانة العظيمة، وليتسنّى لي بالتحقيق التعرف عليه بسمه مميّزة ثابتة، كان لالتواء طفيف في عرقوب قدمه اليسرى يمشي بتؤدة وبخطوة مترددة، بعد تجلي الإرادة الإلهية بهذا الوضوح الأبلج، زال كل أثر من الغموض والتلجج؛ وبعد إقامة صلاة الصبح لربّتي، أسرعرت أنفّس في كل من أمامي، عسى أن يكون فيهم من له مشية كالتّي رأيت في منامي، فما خاب ظنّي إذ رأيت واحدا من حملة التّوابيت يطابق في القدم والقامة والهندام حلم البارحة بالتّمام؛ وعلمت لاحقا أنّه يدعى أسينيوس مركلّوس، وهو اسم

لا يخلو من التّورية عن حوّل هيئتي، ودون توان ذهبت رأسا إليه، ولم يكن من جهته يجهل ما أنوي عرضه عليه، إذ تلقى هو الآخر سابقا أمرا مطابقا بإمامة الطّقوس لحفل تكريسي. فقد رأى البارحة في الحلم، أنّه بينما كان يسوّي أكاليل على تمثال الإله الأعظم، سمعه ينبئه بنفس الفم الذي يملئ به مصائر كلّ الوري، بإرسال رجل من مادورة\* إليه شديد الفقر، ويطلب منه سيامته على الفور، فإنّ عنايته تعدّ له مجدا أدبيا(1)، وله هو الآخر ربحا سنيا.

### 11-28 سيامة ثانية

بعد نيل وعد السّيامة، ظلّ ضيق ذات اليد يعرقلني ويحول دون ديدني؛ إذ تأكلت موارد الهزيلة نفقات السّفر، ثمّ إنّ مصاريف حاضرة بمثل ذلك الكبر تربو ربّوا فائقا عن كلفة المعيشة في مدن الأمصار التي عشنت فيها سابقا، فكان فقري الشّديد يعدّني ويسحقني، كما يقول المثل، بين الذّبيحة والحجر، فكنت في أنشدّ الحرج من إلحاح الرّبّ عليّ رغم فقري، بعدما حثّني كثيرا، أمر أخيرا فبعث بعض ملبوساتي وحصلت على مبلغ يفي على ضالته بحاجياتي، إذ أصدر إليّ أمرا صريحا بهذه العبارات: "لو أردت افتناء ما تنشد منه بعض اللذّة لما أبقيت حتى على ثوبك، أفتراك الآن وأنت إزاء عيد بمثل هذه الجلالة، تتردّد مخافة فقر لن تأسف عليه أبدا؟" × من ثمّ أحضرت كلّ المعدّات الصّورويّة، واقتصررت مجددا لعشرة أيّام على الأعدية غير الحيوانية، فضلا عن ذلك،

(1) مجد أدبيّ: studium و gloriā studiorum عديدة المعاني: التّفاني، الدّراسة، الدّاب، الأدب..

حلقت رأسي وتنوّرت بطقوس كبير الآلهة اللبّيّة، وصرت أوّم بكلّ الثقة شعائر هذه الديانة الشّقيقة. فكان ذلك يقدم لي جميل السلوان عن غربتي وبهيّة لي أيضا أسباب اليسرة، إذ كانت الحمامة بإلهام إونتوس\* الموفق المعين تدرّ عليّ بعض الموارد لامتلاكي لغة اللاتين.

### 11-29 طلب ربّاني بإجراء سيامة ثالثة!

وها أنا بعد مدّة وجيزة أتلقي فجأة وأامر إلهيّة غريبة وغير متوقّعة بإجراء طقوس سيامة ثالثة. بقيت إذك مشوّش البال في أشدّ القلق والحيرة أقلب أفكار في سريرتي، متسائلا عن المقصد الربّاني الجديد الخفيّ. وما تبقى لاستكمال المسارّة التي سبق أن أعدتها. وأقول في نفسي: "لا بدّ أنّ الكاهنين أخطأ في إجراء الطقوس أو لم يستوفياها." بل بدأت ساورتني بصدقهما ظنّة، وصرت في اضطراب خواطري الملتجّة كمن به جنة، حتّى أوحى إليّ طائف ودود في إحدى الليالي: "ليس في هذه السلسلة الطويلة من الشّعائر ما تخشى منه. ظلنا أنّ عنصرنا ما قد أغفل في ما سبق؛ لولا تهللت بالعكس بهذا التّكريم الإلهي المتكرّر واستبشرت، وابتهجت بالأحرى بنيلك ثلاثا ما يتيسّر بالكاد مرّة واحدة لغيرك، وتشيم من هذا العدد بنحو سووي بشري نعيم أبديّ. ثمّ يكفي لتفتنع بضرورة السيامة القادمة، أن تفكر الآن مع نفسك أنّ المسوح التي ارتديتها في مصرك نذرا للرّبة العظمى محفوظة في نفس المعبد حيث أودعتها. فأنت لا تستطيع في أعياد رومية إقامة الصّلاة بها أو الظّهور إن أمرت بذلك اللباس البهيج؛ فما أسعد إذن وما

أبين وأصلح لك أن تمرّ مجددا بطقوس السيامة امتثالا للإلهين العظيمين بروح مفعمة بالسّعادة."

### 11-30. كشف ربّاني

هكذا أوحى إليّ في نومي الحالم المشير الجليل باللازم؛ وبدون تأخير أو تأجيل المتهاون، رحلت فورا إلى الكاهن فرويت له ما رأيت؛ وألزمت مذك نفسي بتغذية خالية من المواد الحيوانيّة، بل زدت تطوّعا عن الأيام العشرة المنصوص عليها في الشريعة الأزليّة، وجّهت عدّة السيامة بسخاء بباعث التقوى المشبوبة، لا تقيدا بالمقادير المطلوبة. فما ندمت، وحقّ هرقل، عمّا جنّست وأنفقت من مالي؛ إذ يسّرت عناية الآلهة بموارد الحمامة حالي. أخيرا بعد أيام معدودات، تفضّل الإله الأفضل بين الآلهة الأعظمين، والأشرف بين الأفضلين، والأعلى بين الأشرفين، وسيد الأعلين أوزيريس\* بالظهور لي في المنام، لا متنكرا في زيّ مستعار بل متجلّيا في كلّ مهابته أمامي. فأهاب بي أن أعود بهمة إلى القضاء في كنف رعايته السّامية، وألا أخشى نمائم الحساد التابعة هناك من معرفتي الواسعة، ثمرة جهودي الثابرة، وألا أتعبّد إليه في غمرة العوامّ، فقد اصطفاني لجمع الخدام بل ضمن المجلس الأعلى المعين خمسة أعوام. فحلقت (1) شعري بالكامل مرّة أخرى، وطفقت أودّي فرحا مهمّتي الكبرى، ضمن هذا الجمع العتيق المؤسس من عهد سؤلا\*. غير مغلّل أو مغطّ قرعي بل حاسرا أمام كلّ من يرى.

(1) حلق الشّعير: مرّة أخرى ( إذ سبق أن أشار إليه في 11-28) تعبيري عن التّجرّد عن الشّهوات الحسّيّة تماما ( ففي 2-9 أشار إلى أنّ فتنة المرأة تتبلور في شعرها).